مولد البطل في السيرة الشعبية

كتاب الهلال

د. أحمد شمس الدين الحجاجي





سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

رئيس مجلس الإدارة : مكرم محمد أحمد

نائب رئيس مجلس الإدارة : عبد الحميد حمروش

رئيس التحرير : مصطفى نبيل

سكرتير التحرير : عادل عبد الصمد

مركز الإدارة :

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب تليفون ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط

KITAB AL-HILAL

NO . 484 AP . 1991 العدد ٤٨٤ - رمضان - ابريل ١٩٩١

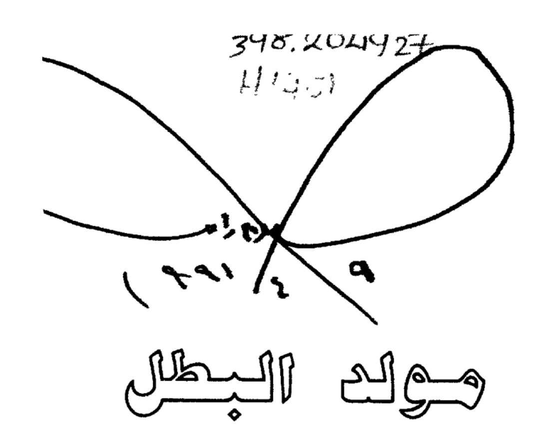
أسعار البيع للعدد فئة ٢٥٠ قرش

الأردن ١٥٠٠ فلسا ، الكويت ١٥٠٠ فلسا ، العراق ٢ دينار ، السعودية ١٠ ريال ، المغرب ... قطر ١٠ ريالات ، الأمارات العربية ١٠ درهم ، سلطنة عمان ١ ر...

اهداءات ٢٠٠١

أ. صلاح راتب

القاهرة



مولد البطل

فى السيرة الشعبية

بقلم

د . احمد شمس الدين الحجاجى

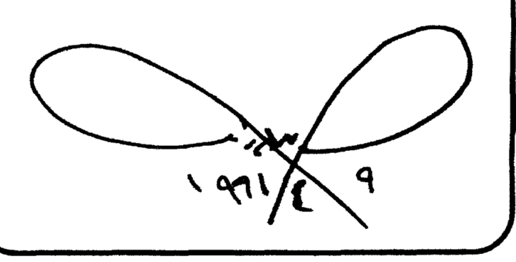
دار الهلال

الغلاف تصميم الفنان · محمد ابو طالب

إلى اخر فرسان السيرة
وقد ترجل عن فرسه :

الدكتور

النعمان عبدالمتعال القاضى




سيد الشجعان
الفارس
عنتر

مقدمة

يتناول هذا البحث حلقة من حلقات السيرة وهى مواليد البطل كما قدمته السيرة الشعبية ..

والسيرة الشعبية نوع أدبى من أنواع الأدب العربى الذى أهمل أو أغفل حتى إنه لم يدخل ضمن الأنواع الأدبية المعروفة ، وقد اشترك فى هذا الإهمال كثير من الباحثين عربا كانوا أم غير عرب .

وقد أدى ذلك إلى التهاون فى جمع نصوصها ، فضاعت النصوص التى كانت تروى فى الأربعينات عن "عنترة" و"سيف ابن ذى يزن" و"المهلهل" .. بوفاة رواتها .

كما ضاع كثير من النصوص المختلفة لسيرة بنى هلال لوفاة رواتها ، ولم يبق إلا عدد قليل من رواة بنى هلال ، متناثرين فى أنحاء الإقليم المصرى ، وقد ترك معظمهم حرفة الرواية الشعبية للعمل فى حرف أخرى ، أو تحولوا إلى مغنين من مغنى الأفراح . وقد أدى هذا الإهمال إلى عدم التوفر على دراسة السيرة

الشعبية ، ورفضها لوناً أدبياً واحتقارها واحتقار مؤديها حتى الأربعينات من هذا القرن .

ولعل من أهم نتائج هذا الإهمال الحكم على العقلية العربية بأنها جزئية النظرة غير قادرة على رؤية الكل وقصور خيالها وعجزه .

بدأ هذا الحكم من خلال النظرة العنصرية عند "رينان" ، وانتهى إلى أن أصبح حكماً عاماً لا علاقة له حتى بالنظرة العنصرية . وقد تبنى وجهة النظر هذه "دى بور" و"جورج جيكوب" و"وجرونبوم" ، و"نيكلسون"[١] .. وقد وافق بعض الباحثين العرب على هذه النظرة ودعموها ؛ فالعقاد يرى أن العرب أمة بلا خيال ، واحمد أمين أيضا يرى أن الجاهلى محدود الخيال ، وغنيمى هلال لا يتهم العقل العربي بشىء ، ويصب حديثه على القصة العربية فيرى أن لها مفهوماً خاصاً لم تنهض لتكون ذات رسالة إنسانية[٢] ..

وقد وقف أيضا بعض دارسى الأدب العربى من عرب وأجانب موقف المدافع ، من خلال تناولهم لفن السيرة الشعبية . فكان الحديث عنها دفاعاً عن العرب وعن فن السيرة والقصة عموما[٣] .

ولقد بدأ العرب يهتمون بدراسة أعمالهم الشعبية منذ الأربعينات من هذا القرن ، تمت معظم المحاولات داخل أروقة الجامعة أو من باحثين قريبين لأروقتها . ولقد كان الطريق شاقاً وصعباً أمام الرواد ، فلم يكن أمامهم من مثل يحتذونه سوى دراسات المستشرقين والرحالة ، وهى قليلة لا تكفى لأن تكون هادية للطريق الجديد . لقد كانت أقدم الدراسات محاولة محمد توحيد السلحدار الكشف عن أسباب تقبل الجمهور لمسرحية "الأحدب" التى قدمها "جورج أبيض" سنة ١٩١٢ م .. فربط بينها وبين مفهوم الفروسية فى القصص الشعبى[٤] . وقدمت سهير القلماوى رسالة لنيل درجة الدكتوراه عن "ألف ليلة وليلة" ،

سنة ١٩٤٢ م . وكان أول عمل يتناول السيرة الشعبية يقوم به الجيل الأول من الرواد ، هو بحث محمد فهمى عبداللطيف "أبو زيد الهلالى" سنة ١٩٤٦ م ، وفؤاد حسانين "قصصنا الشعبى" سنة ١٩٤٧ م ، وعبدالحميد يونس فى دراسته "الظاهر بيبرس" التى نال بها درجة الماجستير ، و"الهلالية" التى نال بها درجة الدكتوراه ، وكذلك شكرى محمد عياد فى دراسته "البطل فى الأدب والأساطير" التى قدمها سنة ١٩٥٩ م ، وقد درس فيها التكوين الذاتى والتكوين الموضوعى للبطل دراسة نفسية . أما الجيل الثانى من دارسى السيرة ، فقد عبد لهم الجيل الأول الطريق إلى حدٍ ما ومع ذلك فلقد كان الطريق أمامهم شاقاً وعسيرا .

قدمت نبيلة إبراهيم دراستها عن "ذات الهمة" التى نالت عليها درجة الدكتوراه . وكذلك دراستها عن "أشكال التعبير فى الأدب الشعبى" ،

وقدم محمود ذهنى "عنترة بين التاريخ والأدب الشعبى" ، وهى رسالة نال بها درجة الدكتوراه ، كما قدم مشتركا مع فاروق خورشيد "فن كتابة السيرة" ، وقدم فاروق خورشيد أيضاً "الرواية فى عصر التجميع" ثم قدم "أضواء على السيرة الشعبية" .

وقدم على زبعور "أضواء على السيرة الشعبية العربية" ، وقدم شوقى عبدالحكيم "سيرة بنى هلال" و"السيرة والملاحم الشعبية العربية" .. كما قدم محمد رجب النجار "أبو زيد الهلالى الرمز والقضية" و"البطل فى السيرة والملاحم" . وقدم صلاح الراوى "عزيزة ويونس" . وقد تتابعت محاولات عدد من الباحثين فى دراسات قدمت فى المؤتمرات العلمية والصحف والمجلات منهم "عبدالحميد حواس" و"حافظ دياب" و"أحمد ممّو" و"عبدالرحمن فيثه" .

وإذا كان الباحثون العرب يحاولون أن يؤدوا دوراً فى دراسة فن

السيرة الشعبية فإن الباحثين الغربيين لم يتوقفوا عن دراستها . فقد قدمت أنيتا بيكر "سيرة بنى هلال فى جنوب تونس" رسالة دكتوراه سنة ١٩٧٨ م ، من جامعة "إنديانا" . وقدم بيترهيث دراسة بعنوان "السيف الظمآن ، دراسة للبناء والتعبير فى سيرة عنترة" نال عنها درجة الدكتوراه من جامعة "هارفارد" سنة ١٩٨١ م . وظهرت حديثاً دراسة بردجت كونلى "الملحمة الشعبية والهوية" سنة ١٩٨٦ م(٥) .

ومازالت الدراسات تتابع فى بلدان متعددة بلغات متعددة ، من لغات أوروبا وآسيا ، وقد برز فى إيطاليا اسم جيوڤانى كانوڤا فى فهرسته للسيرة ..

والسيرة فى المصطلح ترجمة حياة . وفى التراث الشعبى ترجمة حياة فرد أو ترجمة حياة جماعة .

ترجمة حياة الفرد مثل "سيرة الإمام على بن ابى طالب كرم الله وجهه ، ومحاربته للملك الهضام" ، وكذلك سيرة "حمزة البهلوان" وسيرة "سيف بن ذى يزن" .

وقد تكون سيرة جماعة مثل "الهلالية" و"ذات الهمة" و"الظاهر بيبرس" .

وهذا البحث جزء من محاولة للتعرف على قوانين السيرة الشعبية وبنائها المعمارى ، يختص بمحاولة التعرف على القوانين المحددة لسمات مواليد البطل .

ولعل أقدم صورة منها موجودة بين أيدينا باللغة العربية هى سيرة "ابن هشام" التى تترجم للرسول عليه الصلاة والسلام .

فالسيرة الشعبية تمر بحلقات ترتبط بالفرد ارتباطاً وثيقاً يتتابع مع حلقات عمره . والمواليد إحدى هذه الحلقات . وهى مصطلح متعارف عليه بين الراوى الشعبى وبين جمهوره .

وقد أخذت هذا المصطلح من أفواه رواة السيرة وجمهورها فى فى محافظتى "قنا" و"أسوان" فى مصر العليا .

وهو لا يعنى لحظة ولادة البطل ، وإنما يعنى لحظة أكبر من هذه اللحظة إذ هو يستغرق زمناً أطول منها بكثير ، فهو تناول لعالم البطل قبل ولادته ثم تناوله وليداً وطفلاً حتى تنتهى مرحلة العبور . وهى مرحلة التعرف والاعتراف .

وقد ارتبط هذا المصطلح بسيرة بنى هلال وببطلهم أبى زيد الهلالى سلامة .

فالجزء الأول من سيرة بني هلال هو باب مواليد أبى زيد ، وهو جزء فى غاية الصعوبة بناء وأداء لا يستطيعه إلا القادرون من الرواة ، فهو مدخل السيرة كلها . والمواليد لا ترتبط بسيرة بنى هلال فقط ، وإنما ببنية السيرة الشعبية عموما مروية ومدونة .

ولم أحاول أن أفسر النصوص تفسيراً نفسيا أو اجتماعيا ، وإنما جعلت النص هو الأساس الذى يكشف الضوء عن عالم المواليد ، فالعمل كله محاولة لإعادة قراءة نصوص السيرة فى بابها الأول ، مواليد البطل ، للوصول إلى العناصر المكونة لهذه النصوص . وإن كنت أحب أن أشير هنا إلى أن سيرة بهرام شاه وفيروز شاه وحمزة البهلوان هى تأليف وليست روايات شفوية شعبية . فليس من المعقول أن تؤلف الجماعة سيراً شعبية تعبر عن رؤية دونية لها وتمثل موقفا شعوبياً معارضا لقوميتها كما يتبدى فى بهرام شاه وفيروز شاه . وقد نشر نخلة قلفاط بهرام شاه عام ١٨٩٨ على أنها من تأليفه . أما سيرة فيروز شاه فقد نشرت عام ١٨٧٨ فى بيروت ، ثم أعاد قلفاط نشرها عام ١٨٩٨ على أنها أيضا من تأليفه . وانتحال قلفاط لهذه النصوص واضح ، فقد تكشفت أن سيرة بهرام بور ترجمة حرفية لمنظومة هفت بيكر أو التماثيل السبعة للشاعر الفارسى نظامى كتبها سنة ٥٩٣ هـ .

وأظن أن فيروز شاه لها أصل غير عربي لن أتوقف عن البحث عنه . أما حمزة البلهوان فأنا أرى أنها كتبت كرواية لترد علي سيرة فيروز شاه ولترفع من شأن العرب ، ومن هنا اهتم بها الوجدان العربى كثيراً وجعل منها نصاً متداولاً أقرب إلي أن يكون شعبيا ، فاستلهم منها محمد خضر رواية ، كما استلهم منها الشاعر محمد ابراهيم أبو سنة مسرحيته "حمزة العرب" . فقد تمثلت هذه السيرة كل خصائص فن السيرة الشعبية .

● ● ●

وقد قسمت هذا البحث إلى سبع وحدات ، هى : مصادر البحث - دراسة للراوى والرواية والنبوءة ، والبطل المصاحب ، والنسب ، والميلاد ، والغربة والاغتراب ، والاعتراف والتعرف .

وأريد أن أوضح هنا أن الوحدة الخاصة بمصادر البحث لا تختص بمواليد البطل فقط ، وإنما تختص بالسير الشعبية جميعاً ، فهى مدخل لدراسة الراوى ودوره فى تكوين الرواية ، وكذلك دراسة الرواية الشفوية والمدونة للسير الشعبية . وقد وضعتها مع هذا البحث لأنه يمثل جزءاً من مشروع كبير أوفر نفسي على إتمامه وأطمح أن تكون كل وحدة من هذا البحث كتاباً كاملاً ، بالإضافة إلى العناصر الأخرى المكونة للسيرة .

وأود أن أشير إلى أن هذا البحث ، بشكله الحالى ، قد خلا من رواية شاعر السيرة جابر أبو حسين ، والشاعر سيد الضوى ، وهما من شعراء الوجه القبلى ، وكذلك خلا البحث من روايتى شاعرى الوجه البحرى الشاعر فتحى سليمان والشاعر على الوهيدى . وروايات هؤلاء ستتضمن ، إن شاء الله ، أعمالى القادمة عن السيرة الشعبية .

(١٩٨٨/٣/١٢)

المصادر

الراوى والراوية

قد يكون مناسباً أن يبدأ البحث عن مواليد البطل فى السيرة الشعبية ، أو أى جزء من أجزائها بدراسة المصادر ، وإذا كان البحث معتمداً على نصوص مجموعة من أفواه الرواة فإن دراسة الراوى والرواية تصبح أساسية فى هذا المبحث .

ويمكن تقسيم الرواة الذين لهم علاقة بهذا المبحث إلى قسمين :
أ - رواة لم ألتق بهم التقاء مباشراً .
ب - رواة التقيت بهم التقاء مباشراً .

القسم الأول من الرواة الذين لم التق بهم التقاء مباشراً هم نساخ النصوص المطبوعة بين أيدى القارىء العربى ، وهؤلاء النساخ لم يدونوا أسماءهم فى معظم الحالات وإنما دونوا أسماء رواة آخرين ، وقد اختلط فيها لفظ التأليف بلفظ الرواية ، والعكس كذلك ..

وقد قدمت (سيرة ذات الهمة) على أنها تأليف "على بن موسى المقانبى" و"ابن بكر المازنى" و"صالح الجعفرى" و"يزيد ابن عمار المزنى" و"عبدالله بن وهب اليمانى" و"عوف بن فهد الفزارى" و"سعد بن مالك التميمى" و"أحمد الشمشاطى" و"صابر المرعشى" و"نجد بن هشام العامرى" .

ويذكر مدون (سيرة عنترة) عدداً ليس بالقليل من رواتها ، يضع على رأسهم "عبدالملك بن قريب الأصمعى" و"أبو عبيدة" و"جهينة المثنى اليمنى" و"البلخى" و"حماد" و"سيار بن قحطبة الفزارى" ، و"الكاهن الغسانى الثقفى" و"ابن خداش النبهانى" . ويذكر فى المتن :
"ذكر الرواة الحفظة عن وهب بن منبه وعن كعب الأحبار" (السيرة ص ٥) . ولقد ذكر فى صدر طبعة صبيح لسيرة "الإمام على بن أبى طالب - كرم الله وجهه - ومحاربته الملك الهضام" ،

أنها تأليف العلامة القصصى الشهير "أبو الحسن بن محمد البكرى" وقد هاجمها ابن كثير فى تاريخه ، وأسماها سيرة البكرى لأن واضعها يدخل فى قول النبى عليه الصلاة والسلام : "من كذب علىّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار" ، وتتغافل مكتبة الجمهورية هذا الاسم فتصدر صفحة العنوان دونه ..

وتبدأ السيرة بعد حمد الله والصلاة على النبى وآله بذكر سلسلة من الرواة الذين تسلسلت عنهم الرواية حتى تصل إلى النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ غير أن السلسلة تنقطع فى منتصفها ، تذكر نسخة مطبعة صبيح السلسلة دون أن تشير إلى القطع ، فالنسخة تذكر أنها مروية عن أبى الحسن أحمد بن عبدالله ابن محمد البكرى ـ رضى الله عنه ـ قال : حدثنا يوسف بن عبدالله الجهنى ، قالا . حدثنا صاحب الحديث عن على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، قال كنا مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ... (السيرة ص ٢) تضيف نسخة مكتبة الجمهورية ما يوضح انقطاع الرواية ، وانتخاب ناسخها ما سمع من مرويات ، فهو يذكر بين كلمة "الجهنى" ، وبين كلمة "صاحب الحديث هذه العبارة ... "قال حدثنا خلق كثير يروى بعضهم عن بعض فأخذنا من ذلك ما نرجوه إن شاء الله تعالى تعليقه على قدر الروايات ، قالوا حدثنا صاحب الحدِيث .. السيرة ص ٢ . وتتحدث سيرة الملك سيف عن راوى واحد هو "أبو المعالى" روای سيرة "أبى الأمصار وسائق النيل من أرض الحبشة إلى هذه الديار" (السيرة ص ١) .

وداخل النص يتكرر قوله : "قال الراوى" دون تحديد لاسمه مما يجعل أبا المعالى مجهولاً للقارىء .

ولا تذكر سيرة المهلهل اسما لراويةٍ محدد وإنما بكلمة الناسخ "أقول بعد حمد الله والصلاة والسلام على رسله وأنبيائه ، هذه

سيرة الكرار والبطل المغوار الذى شاع فى الأقطار وأذل بسيطة كل صنديد وجبار المهلهل بن ربيعة . (السيرة ص ٢) وفى المتن قبل أن تنتهى الصفحة تذكر كلمة "قال الراوى" .

أما سيرة بنى هلال فإنها تبدأ بداية قريبة لسيرة المهلهل :

حمداً لمن جعل سير الأولين عبرة للآخرين (أما بعد) فهذه سيرة بنى هلال التى تشتاق لقراءتها الكبار والصغار على الأجيال" (السيرة ص ٥) ،ويذكر مباشرة بعد هذه الجملة عبارة "قال الراوى" .

وفى تغريبة بنى هلال ورحيلهم إلى بلاد الغرب وحروبهم مع الزناتى خليفة . وما جرى لهم من الحوادث والحروب المخيفة .

فهى لا تذكر اسماً لراوية من الرواة ، فعبارة البداية تكاد تكون عبارة معد النسخة للطبع . "أما بعد فلما كانت القصص والنوادر موضوعة لإفادة الناس وتسلية الخواطر لاسيما قصة بنى هلال وماجرى لهم فى سالف الأجيال من الوقائع التى تشيب الأطفال ، فقد بادرنا بطبعها من أولها إلى آخرها ، وذكرنا رحيلهم عن بلاد نجد إلى تونس الغرب" (السيرة ص ٢) . وقبل أن تنتهى المقدمة وفى نفس الصفحة يذكر "قال الراوى" .

وسيرة حمزة البهلوان لا تذكر اسماً لراوية محدد ، وفى طبعة تذكر أن راويها ابن الأثير الجزرى . وفى ذلك بعد عن الحقيقة . كما أنها لا تذكر عبارة قال الراوى التى تستخدمها عادة السير الشعبية إلا فى صفحة "٣٨" . وقبلها ذكرت كلمة قال مرة واحدة لا فى سياق حوار بين اثنين وإنما فى سياق جديد يكشف عن استتار الفاعل وهو هنا الراوى ، فتكون "قال" تعنى : قال الراوى ، فقد ذكرت فى النص فى صفحة "٢٩" فى فقرة جديدة ، "قال فلم يجبه الدربندى" . ولقد استمرت السيرة تستبدل بكلمة قال الراوى "قال" حتى صفحة "٢٥٠" وهى المرة الثانية التى يذكر فيها نفس العبارة . وبين قال الراوى الأولى والثانية ذكر كلمة "قال"

بمعنى قال الراوى ، أى باستتار الضمير المستتر العائد على الراوى اثنتين وأربعين مرة .

ولقد وقف الباحثون مواقف متعددة من نساخ النصوص الشعبية بعضها سلبى والآخر إيجابى ..
فمحسن مهدى وهو يتحدث عن نص "ألف ليلة وليلة" المتداول ، يرى أن النساخ قد عبثوا به . "ألف ليلة وليلة" : المقدمة . "ص ٢٢ ـ ٢٥" . ويسميهم عبدالله بن محمد بن خميس وضاعين ، وينال منهم ومن أعمالهم ويتهم مؤلفاتهم بأنها رخيصة ؛ "ملئوها بالكذب والدجل والتهويل والتحريف والتبديل لتقرأ فى المقاهى الشعبية والمجتمعات العامية مثل (تغريبة بنى هلال) و (أبو زيد الهلالى) و (الزير سالم) وما شابه ذلك ، وهذه كلها ليس فيها ما يبل صدى أو يغنى دارساً أو يعتمد عليه محقق على أنها ماعدا مؤلف أبى عبد الرحمن من نسيج خيال من هم بعيدون عن مجتمعنا وعن البيئة الهلالية التى نشأت فى قلب الجزيرة العربية ، والتى جاء شعرها منطبقاً مع شعر بنى هلال الحقيقى ، أما شعر هذه الكتب المصنوعة ، فبعيد كل البعد عن الحقيقة والواقع مما تبدو فيه آثار الضعف وتكلف الشعر" (روايات من تغريبة بنى هلال/ المقدمة . ص ٩) .

أما الرواة الذين وقفوا منها موقفاً إيجابياً فقد عدوا الأعمال المنسوخة أعمالاً مؤلفة وليست روايات شعبية ، وقد عدها فاروق خورشيد ومحمود ذهنى فى كتابهما "فن كتابة السيرة" مؤلفاً روائياً ، وطبقا ذلك على نص سيرة عنترة .

ولقد ألح فاروق خورشيد على هذه الفكرة فى كتابه "أضواء على السيرة الشعبية" .

ويذكر محمد رجب النجار ، وهو يتناول سيرة بنى هلال من نصوص مطبوعة كلمة المؤلف المجهول :

"كم هو عبقرى هذا المؤلف المجهول الذى كان وراء سيرة بنى هلال ، هذا المؤلف الذى أدرك هذا التباين الملحمى بين أنواع الصراع الذى اشتملت عليه تلك الملحمة ، التى تحكى صراع الذات العربية بين القبلية والقومية" (أبوزيد الهلالى . ص ٩٠) .

هذا عن الراوى المدون للنص تدويناً يرتبط بشخصيته . أما الراوى الشعبى الأمى الذى يروى النص مباشرة على جمهوره ، فهناك نوعان منه ، نوع من الرواة لم أتصل بهم - ونوع آخر اتصلت به اتصالاً مباشراً .

والرواة الذين لم أتصل بهم أخذت مادتهم مدونة تدويناً علمياً دقيقاً من باحثين نشرا نصين من أفواه رواتهما يدخلان ضمن دائرة النصوص المدونة والمطبوعة ..

إذ أن المدونين حافظا - بأمانة - على نقل النص من افواه الرواة دون تحريف أو تغيير فى لغة النص ، هذان النصان هما النص الذى جمعه "بترسن" من روايات عرب الشوا شمال نيجيريا ، من سيرة بنى هلال وهى مطبوعة سنة ١٩٣٠ م .

ورواية عبدالرحمن قيقه ، التى قام بجمعها "عن شيخ من جادو كان يأتى تونس لجمع الصدقات من إخوانه الليبيين العمال فى المناجم التونسية" (من أقاصيص بنى هلال ص ١١٣) . وقد طبع ابنه هذه الرواية بلغتها المروية مع ترجمة فصيحة للنص .

أما راوى السيرة الأمى الذى اتصلت به اتصالاً مباشراً فإن علاقة طويلة تمتد إلى الطفولة تربطنى به . فتقاليد القص فى الجنوب الأقصى لمصر كانت حية قوية إبان طفولتى ، حين كان المذياع شيئاً نادراً فى حياة الناس ، ومازالت بقاياها تحاول أن تعيش مجاورة للمذياع والتلفزيون ، ولكن ما تبقى يعيش لأن رواته

مازالوا أحياء فليس هناك جيل آخر مدرب لحمل تراث السيرة الشعبية .

● ● ●

ولقد كانت بداية علاقتى العملية بالرواة الشعبيين حين عدت إلى الأقصر عام ١٩٦٧ م للبحث فى معتقدات أهل الأقصر عن الأرواح والأشباح ، ولأحاول جمع القصص المرتبط بهذه المعتقدات ثم توقفت بعدها فترة من الزمن ، لأعود أول يوليو عام ١٩٧٨ م إلى محافظة قنا فى صعيد مصر ، وقد حصلت على منحة من مركز الدراسات الأمريكى بالقاهرة لجمع القصة الشعبية فى محافظة "قنا" ، كان البحث شاقاً عن القصة فلقد كنت أذهب إلى حفاظ التراث القصصى لأسجل لهم . تصادف أن تلاقى شهرُ شعبان مع شهر يوليو ، وأثناء النصف الأول من شعبان كان مولد أبى الحجاج ، وكانت حلقات الغناء منتشرة فى أنحاء مدينة الأقصر ، وكنت أسجل فى هذه الحلقات هذه الأغانى التى ينشدها المنشدون ، وأخذت أبحث عن الرواة الذين كنت أعشقهم فى صباى . "حمدان" شيخ العرب الهوارى الذى عشق القص فخرج على تقاليد أسرته ، يقص قصة "عنترة" و"أبى زيد الهلالى سلامة" ، يلقيها وهو يقف بعصاه الغليظة مؤدياً أدوار البطولة فى السيرة التى يحكيها ، صوته فيه قوة الرياح ورهافة النسيم ، وقوة الفارس المحارب ورقة العاشق . كان حمدان يمثل صورة الممثل القدير الذى لم أرَ له مثيلاً ، انطبعت صورته فى ذاكرتى . أخذت أبحث عنه ، وأدركت أنى أبحث عن بقايا ماض قديم ، فقد مات الرجل فى السودان وهو يعمل رئيس عمال إحدى التراحيل عن عمر يناهز التسعين عاماً ، أخذت أبحث عن عطا الله المغنى الذى امتدت شهرته طول المديرية وعرضها ، كان عطا الله يتسيد عالم الموال وهو يغنيه ، تجمع ذاكرته معظم ماوعت الذاكرة من مواويل ، مواويل ابن عروس وغير ابن عروس ، اختلطت دون أن يعرف

مؤلفها ، وهو نفسه كثيراً ما يؤلف ساعة الأداء ، تنتقل مواويله إلى الناس ، ويدعى الكثيرون أنها لهم ، عرفت الطريق إلى قريته فركبت مواصلة إلى عاصمة المحافظة ، ومواصلة أخرى إلى قريته "المعنَى" فعلمت أنه فى قرية أبى مناع شرق ، فركبت إلى أبى مناع غرب ومنها إلى أبى مناع شرق ، أربع مواصلات لقطع مسافة لا تزيد عن مائة ميل ، لأجد نفسى فى قلب الجبل . ذهبت إلى الديوان الذى سيحيى فيه حفلة العرس ، واتفقت معه على أن ألقاه فى بيته "بالمعنى" فى موعد حدده هو ، وحاولت أن أخرج وكان مستحيلاً ، فقد أصر أهل العروس أن أبقى ، وكان لابد أن أبقى ، فالطريق أصبح خطراً فقد أخذت النيران الجائعة فى الجبل تنطلق متوجهة نحو ثأر قديم .. وبقيت لأسهر مع عطاالله ، لم يعد عطاالله ذلك الصوت الفريد الذى كنت أسمعه فى طفولتى ، كان الرجل قد كبر واقترب عمره من السبعين ولكنى لم أصب بملل ، فإذا كان صوته قد تغيرت حلاوته فإن الموال لم تتغير حلاوته ، حتى انتصف الليل ، ووقف عطا الله يغنى موالاً ، كان هذا الموال عن "عزيزة ويونس" . تحركت النشوة فى النفوس ، وتغير صوت عطا الله ، عاد شاباً كروانى الصوت . لم أسمع عطا الله بهذه الحلاوة من قبل ، وأسفت يومها أن حجارة بطارية جهاز التسجيل قد ضعفت ، ولم تكن هناك كهرباء لتشغيل الجهاز .. التقيت بعطا الله بعد ذلك ، وطلبت منه أن يغنى "عزيزة ويونس" فاستنكر أن يغنيها قبل أن ينتصف الليل ، فهو قد تعود أن يختتم بها السهرة وتعود الجمهور أن يستمع إليها آخر السهرة ، وهم حريصون على الانتظار إلى نهاية السهرة ليستمعوا إلى "عزيزة ويونس" ، ثم ينفضون ليعودوا إلى بيوتهم سعداء ..

غنى عطا الله "عزيزة ويونس" وكانت جديدة كل الجدة ، لم أشعر بها بمثل ما شعرت به فى المرة الأولى ، خلت من صفائها ومن حلاوتها ، لم يكن الشاعر هنا فى حالة نفسية مهيأ لتأدية هذا

الدور ، ولم يكن جمهوره أيضا مستجيباً له ، فهو لم يكن مستعداً أن يستمع إلى هذا الدور فى هذا الوقت بالذات ، وسقط النص هذه الليلة سقوطاً واضحاً .

وقبل الفجر فى ليلة ٢٣ يوليو عام ١٩٧٨ م وهى ليلة من ليالى المولد ، توقفت على صوت يسرى فى الليل ، فيه عذوبة وخشونة ، تفوح منه رائحة الأرض ، ذهبت تجاه الصوت ، وما إن رآنى المغنى ، وقد بدأت أسجل له حتى ازداد حماسه ورفع صوته :

عزيزة قالت يايونس ..
أبويا بنالى قصر وسط البحور حجرات ..
وإن كنت رتس قرارى يايونس ..
حسب من مركبك لتلطم الحجرات ..
وإن كان مش عاجبك نوم الفراش .. يايونس .
تعال نام على الحجرات ..

كان صاحب هذا الصوت واسمه الصادق مغنياً شعبياً ، ثم فقد عقله وقد خرج منذ أيام من المستشفى ، قال لى واحد من الجمهور إنه علم أخاه الغناء وأصبح مشهوراً فى قريته الصعايدة شمال الأقصر ، وإنه بدأ ينتشر فى القرى المجاورة .

عطا الله يغنى الهلالية ، الصادق يغنى الهلالية ، توقف شاب فى سن السادسة عشرة من العمر مع حمار يجمع به العيش فى أيام المولد من البيوت وهو يغنى بالطار :

يونس خطر ع السوق ولد الهلالية ..
عيان عيان متقلبوش فيه ..
تسعة وتسعين دكتور غير التمرجية ..

حتى الشحاذة فى مجتمع الأقصر وقنا تستجدى بغناء عن الهلالية ، يغنيها الشاعر على ربابة أو طار ، وعندما أردت أن

أسجل له الهلالية ، كان التعامل معه فى غاية القسوة فقد جاءت الأسرة كلها لأدفع ثمن تسجيل ابنهم للهلالية ، وحين تحادثنا لم يكن الغلام يعرف منها إلا مقاطع شعرية تصلح للغناء وهى مواويل مربعة ومخمسة ومسبعة تتناول حالة من حالات الحب أو الشقاء فى مواجهة محنة الإنسان فى الحياة .

ذهبت لأجمع القصص الشعبى من أفواه من أعرف من الرجال ومن عجائز النسوة ، الجميع يقص عن الهلالية ، فأخذت أبحث عنها ، الكثيرون يروونها ولكن معظم الرواة يروون فصولاً منها ، فالهلالية قد تكسرت عند الكثيرين من الرواة إلى قصص .. لقد شعرت فى هذه الفترة بمشقة الطريق ، مع أن هذه المنطقة أرضى وأرض أهلى وهم كثر ولكن عالم الهلالية يحتاج إلى دربة كبيرة ، وأنا أحوج إلى معلم ليعلمنى تقاليد السيرة ، هذا المعلم لا يوجد فى المدارس ، ولا يوجد بين المثقفين ، ولقد وجدته فى منتصف شهر اغسطس أى بعد حوالى شهر من التيه فى دروب المحافظة شرقاً وغرباً ، شمالاً وجنوباً ، ففى إحدى سفراتى التقيت بأحد طلاب المرحلة الثانوية الذى أخبرنى أن جده يعرف الهلالية ، والتقيت بالجد ، الحاج عبد الظاهر من مشايخ العرب من قرية الكرنك القديمة ، كان أمياً لا يعرف القراءة والكتابة ، يسكن بجوار معبد الكرنك ، بلغ من العمر ثمانية وستين عاماً ، يسمونه فى القرية العمدة فهو يقوم بدور العمدة بين أهل قريته ، يصلح بينهم مستخدماً العرف فيحكم بين المتخاصمين ، وكثيراً ما يتقبلون حكمه ، تحدث عنه يحيى الطاهر عبد الله فى رواية (الطوق والإسورة) ، فقد كان كما يذكر يحيى رئيس عمال ترحيلة من التراحيل التى كانت تذهب إلى فلسطين ، ولم يكن ذلك اختراعاً ، فالرجل مكافح طوال عمره وانتهى به المطاف إلى أن يزرع أرضه التى لا تبعد عن منزله فى طريق مطار الأقصر .

امتنع الحاج عبدالظاهر فى البداية عن أن يروى سيرة بنى هلال

لأن من العار أن يحكيها حتى لا يتصور أحد أنه راو محترف ، لم يستمر فى الامتناع فقد شفع لى العلاقات الأسريةً التى تربطه بأسرتى .

قام الحاج عبدالظاهر بدور مهم فى هذه الفترة من حياتى ، فقد قام بدور المعلم لينقل لى تقاليد الرواية الشفهية ، فقد كان أحد عشاقها ، يجرى وراء رواتها وهو صغير ينتقل إليهم أينما كانوا .. وقد عاش روح بطولة بنى هلال وامتزجت روح الفارس فى دمه . فهو لا يجد متعباً إلا ويحاول أن يحل أزمته . ولا تعرض له مشكلة إلا ويكون الحكم العدل ، كان الناس يغضبون منه ثم يرضون ، فليس هنا أحسن من العدل ، إنه يريح الظالم والمظلوم .

تسيد الحاج عبدالظاهر رواية الهلالية ، وكان يختلف كثيراً مع بعض رواتها إذ أنه كثيراً ما يقوم بنقدهم ، ونقد رواياتهم ، فهو يرى أنه قادر على معرفة "الجيد من البطال منهم" أو بعبارة أخرى "الأصيل من المزيف" .. والجيد أو الأصيل هو الذى يحترم الرواية التى يرويها ويحترم جمهوره ، أما البطال أو المزيف فهو الذى لم يدرب تدريباً كافياً ، فيقف قبل أن يتم تدريبه أمام الجمهور فهو هنا يخدعهم ، ولا يقبل الحاج عبدالظاهر أن يخدع الراوى جمهوره .

ولقد تعلمت منه الكثير ، تعلمت منه اكتشاف الراوى الجيد والراوى البطال على حد تعبيره ، فقد كان يأتى إلى بيتى عدد كبير من مدعى الرواية يتصورون أن بإمكانهم أن يخدعونى بما عندهم على عادتهم من التعامل مع الباحثين الأجانب ، وهو قد فتح لى الطريق لمعرفة عظيمة .. فقص الحاج عبدالظاهر سيرة بنى هلال من بابها الأول ـ مواليد أبى زيد حتى بابها الأخير ـ الأيتام ـ لمدة شهر كامل .

لقد خرجت من عنده أحمل رواية الحاج عبدالظاهر ، وأحمل عالم الهلالية وروح الراوى ، وقدرته الكبيرة على الإبداع .

والتقيت بعبدالسلام حامد ، كان مختلفاً كثيراً عن الحاج عبدالظاهر ولكنهما يتفقان في الاعتزاز بالنفس .. عبدالسلام حامد من الأقصر كان عمره عندما التقيت به في أخريات أغسطس ١٩٧٨ م ثمانين عاماً ، وهو صاحب مطعم صغير في سوق الأقصر ، يقدم المأكولات الشعبية من الفول والطعمية ، يجلس أمام مطعمه وحوله حلقة من حلقات أصحابه وهم مختلفو الأعمار فيهم الفتى والشاب والكهل والشيخ العجوز .. وحدثني عن معلميه الذين تلقى عنهم فهو قد اهتم بالسير الشعبية ، يقول إنه يروى سيرة المهلهل وعنترة وسيف ، وأخذ يقص لي عن الهلالية ، كان يسجل جزءاً ويطلب أن يوقف التسجيل ثم يأخذ في الكلام عن عالم الهلالية في المحافظة .. جمعت عشر ساعات من الهلالية منه ولكني استمعت إلى ساعات وساعات عن أنساب الهلالية في المحافظة وعلاقات القبائل بها ، فالهلالية لم يموتوا ولكنهم عالم يعيش ، قبائل ممتدة في جنوب مصر الأقصى ، وكذلك أهل الزناتي خليفة ودياب من حمر اليمن يمتدون في المنطقة غرب النيل جنوب الأقصر حتى إسنا ، كما أن هنا قبائل تنتسب إلى محمود البياضي مربي الأيتام .

وذهبت إلى إحدى حفلات الزفاف بقرية أبي الجود شمال الأقصر ، وهناك التقيت بالنادي عثمان ، وما إن رآني حتى أخذ يعزف بالربابة عزفاً يشد الانتباه فهو من أحسن عازفي الرباب في مصر كلها ، وهدأت الربابة ليرتفع صوته بمسبع :

طلع خليفة يشوط على جمع العرب ولوفات ..
لقيهم اسود مقادم متعددين ولوفات ..
روح خليفة الزناتي لهني له غموز ولا فات ..

وقضيت الليل في الحفل لم أغادره حتى انتهى وقد تكونت علاقة صداقة قوية بيني وبين النادي عثمان ، كان النادي عثمان قد انتهى من تسجيل بعض الأشرطة لعدد من المشتغلين في

الدراسات الشعبية ، وكان على علم ما بمعنى البحث العلمى ، وكانت هذه المعرفة سبباً كبيراً فى سهولة التعامل معه . كان النادى عثمان أحد القلائل فى الإقليم الذين مازالوا يؤدون السيرة الشعبية . وهو من مواليد عام ١٩١٦ م يسكن فى قرية "الطود قبلى" وهى شمالى الأقصر ، شرقى أرمنت ، وهو من أسرة تحترف الغناء ، وقد أتى لى بأحد أقربائه الذين هاجروا منذ زمن إلى محافظة "أسوان" فى قرية "الحجز بحرى" مركز "إدفو" - وهو عوض الله عبدالجليل ، وهو أكبر من النادى عثمان بسنتين ، يغنى السيرة وهو يحمل طاراً . وقد سجلت له سيرة بنى هلال من فصلها الأول حتى فصلها الأخير ربيع سنة ٧٩ . لقد كانت علاقتى بالنادى علاقة مثمرة إلى أبعد الحدود ، فقد تعرفت منه على عالم أداء رواة الهلالية الرحب وأساليبهم فى أدائها .

كان هؤلاء الرواة الأربعة اهم من جمعت منهم سيرة بنى هلال ، وتمثل النصوص التى جمعتها منهم والنصوص التى حصلت عليها مطبوعة مادة هذا البحث .

وتثير النصوص المطبوعة والمروية دعاوى أهمها محاولة إطلاق مصطلحات لا تنطبق على النصوص ، فمثلاً هناك إلحاح على تسمية السيرة بالملحمة أو بالرواية المؤلفة ، لذا فمن المستحسن أن نختبر هذه النصوص لنتبين إلى أى مدى تصدق هذه الدعاوى .

والملحمة مصطلح أطلق أول ما أطلق على الإلياذة والأوديسة ، ثم أطلق من بعدهما على أعمال أوروبية أخرى مثل ملحمة رولان وملحمة السيد ، وقد ظهرت ملاحم غيرها فى أرجاء مختلفة فى العالم الأوروبى . وهناك عناصر مشتركة بين الملحمة الأوروبية والسيرة الشعبية العربية ولكن بينهما أيضا اختلافاً كبيرا ، فالسيرة عالم متسع أكبر بكثير من الملحمة وهى الشكل الأول الذى نبتت منه الملحمة ، فالسيرة حين تبدأ فى التكسر تتحول إلى

ملحمة ، فهى جزء من السيرة ، السيرة هى الكل والملحمة هى الجزء ، ولو قارنا على سبيل المثال بين سيرة بنى هلال وبين كل من الإلياذة والأوديسا مجتمعتين لوجدنا أن كلاً منهما تمثل حلقة من حلقات سيرة واحدة . فالإلياذة تتوازى مع التغريبة ولا تتسع اتساعها ، فهى تقترب من الجزء الخاص بحصار تونس فى كثير من أبعاده وتلتقى معها فى كثير من عواطف المتحاربين المحاصرين ، وعواطف المتحاصرين والعالم الذى تعيشه . الحب والكره والبطولة والخيانة ، وتلتقى كثير من الشخصيات بينهما مع كثير من الفوارق أيضاً ، قصة حب عزيزة الجميلة ويونس لا تتساوى مع قصة حب هيلين الجميلة وباريس ، ولكن هناك توافقا كبيرا بينهما ، وحتى غضبة دياب لمقتل صديقه عامر الخفاجى فيعود بعد اعتزاله الحرب ليقاتل مع الهلالية ، وهى تماثل غضبة "أخيل" لمقتل صديقه بتروكليس وعودته ليحارب مع اليونان ، لينتقم لصديقه . الإلياذة كلها لا تزيد فى بنيتها عن بنية التغريبة . الوحدة الزمانية والمكانية ، لمعركة تدور لمدة أربعة عشر عاماً حول أسوار "تونس المرية" تقابل معركة تدور عشرة أعوام حول أسوار طروادة . ولاشك أن هناك فروقاً كبيرة بين العالمين .

وعند النظر إلى الأوديسا فهى لا تزيد عن الريادة رحلة أوليس فى البحر للعودة إلى وطنه . والثانية رحلة أبى زيد لاستكشاف بر تونس والعودة إلى وطنه . رجلان يغتربان ، اليونانى فى البحر والعربى فى البر .

ليس الشعر هو الفرق الوحيد بين الملاحم العربية والسيرة . فالسيرة العربية شعر .. بعض الشعراء يروون نصوصها شعراً ، وقد يتكسر الشعر بفعل اضافات الراوى المستمرة وجمله الاعتراضية التى تقتحم النص مثل رواية النادى عثمان ورواية عوض الله . وأهم فرق هو اتساع السيرة الذى يشمل فى طياته أكثر من ملحمة ، لولا أنها لم تتكسر لتصبح مستقلة الموضوع

بعيداً عن الجوانب الأخرى . فليس هناك ملحمة واحدة فيها هذا الفصل المتسع عن مواليد البطل ثم التدرج السلمى نحو المراحل المختلفة لعمره كما يوجد فى هذه السيرة . وسيرة بنى هلال تبدأ بفصل مواليد البطل وتنتهى بفصل الأيتام ، الذى يمكن أن يعد فصلا من فصول مواليد البطل أيضا ، فمرحلة الميلاد تتكرر ثانية فى بطل الهلالية الجديد على أبو الحلقان .

لقد أخذت السيرة تتكسر ، فالرواة لا يقدمون كل فصولها ، وهم لا يعرفونها كاملة ، فكثيراً ما يكون الراوى متمرساً فى رواية السيرة إلا أن هناك فصلاً أو أكثر لا يجيده أو لا يحسن أداؤه . فالفصل الخاص بعقد شمة الذى يتحدث عن زواج سرحان بشمة بنت الحسب سيد النسب ، لا يعرفه كثير من الرواة حتى إن عوض الله المتسيد لرواية الهلالية لا يعرفه . وحين كان يرويه النادى عثمان بدا واضحاً أنه بعيد عنه . وفى الوقت نفسه عندما يروى حاجة يونس للمال فى تونس يحاول أن يبيع فرعاً من هذا العقد فيأخذه الدلال إلى عزيزة ، ويكون هذا بداية تطور جديد فى حركة السيرة إذ تتعرف عليه مَىْ خادمته التى أصبحت خادمة الأميرة عزيزة . فالعقد مهم جداً فى هذه السيرة وخاصة الجزء المرتبط بالريادة . ومع ذلك فالفصل الخاص به ينحل من السيرة ، وكذلك فصل فرس المعز بن صالح فقد انحل من السيرة ولم يعد كثير من الرواة يروونه . وعندما رواه لى عوض الله كان بعيداً عن ذاكرة النادى عثمان إلا أن جابر أبو حسين المتسيد لعالم الرواية وكذلك تلميذه سيد الضوى كانا يرويانه لجمهورهما . وهناك إشارات عن علاقة خاصة بين أبى زيد الهلالى سلامة وبين الجازية . فإنه من المتعارف عليه عند رواة السيرة أن أبا زيد الهلالى تزوج الجازية ثم طلقها وأنه لم يعش معها إلا أياماً معدودات . وهذا يفسر علاقة الحب والكره التى بين أبى زيد والجازية فقد صنعت هذه العلاقة بشكلها المعقد مواقف درامية دفعت حركة السيرة إلى النمو

المتصاعد وخلقت عناصر إثارة فى النص . هذه العلاقة والحديث عنها يوضحان أن هناك فصلاً خاصاً بها فى السيرة . ولكن هذا الفصل ضاع ولا يعرف أحد عنه شيئاً من الرواة .

السيرة تكسرت ومازالت تتكسر حتى إنه يمكن أن تتقلص لتصبح فى تطورها ملحمة لولا هذا التغير الشديد فى إيقاع المجتمع ثقافياً ، وتحول الاهتمامات نحو فنون ولدتها الثقافة الحديثة مما جعل السيرة تتوقف عند حدود من يعرفونها ليمثل تكسرها مرحلة من مراحل تطورها وهو تحولها إلى حكايات منفصلة لا ترابط بينها كما حدث لها فى كثير من المجتمعات العربية . إن علينا أن نتقبل كلمة سيرة وصفاً لهذا الفن الذى أبدعته العقلية العربية ، دون أن نسبغ عليه أسماء أخرى لا تنطبق عليه إلا فى بعض الجوانب دون غيرها . أما أن نطلق عليه مصطلح رواية بالمعنى الحديث لمصطلح الرواية فهذا صعب التقبل . وصعب الإقناع به . وهو لا يضيف شيئاً للسيرة ، ولا يمثل فخراً لأصحاب هذا التراث . فالسيرة فن نبت وتطور وارتقى قبل أن تظهر الرواية ، وهى تقف فناً قائماً بذاته من بين الأنواع الأدبية مثلها فى ذلك مثل الرواية وغيرها من الأنواع الأدبية ، فإضافة لفظ رواية لعمل له قوانينه الخاصة التى استقرت يعد إضافة صفة بعيدة عن الموصوف . فالرواية فن له عدة سمات ، وهذه السمات فى دينمية وتطور . يشترك فى تحريك هذا التطور الآداب العالمية بصلاتها الوثيقة ببعضها فضلاً عن الفنون المحلية ومنها السيرة . والسيرة الشعبية العربية فن له قواعده ولا يمكن تطبيق قواعد فن مازال يتطور على فن قد اكتمل منذ أمد بعيد .

وفاروق خورشيد ومحمود ذهنى فى عملهما الرائد "فن كتابة السيرة" مطبقة على عنترة فى نصها المطبوع ، وضعاها تحت فن الرواية ، فهى فى نظرهما ليست سيرة بالمعنى الاصطلاحى الحديث كما أنها ليست أسطورة عند الأنثروبولوجيين ثم هى ليست

ملحمة بمفهومها عند اليونان ولكنها كما لاحظناها تقترب كثيراً من الرواية . فهى مرة شبيهة بالرواية الخيالية وهى فى مرة ثانية قريبة من الرواية الواقعية . (ص ٤٨) .

ثم يعودان فيجعلان منها رواية لا تاريخية ولا خيالية ولا واقعية ، ويمكن تسميتها بالرواية الأم فتصبح سيرة عنترة رواية من نوع السيرة يغلب عليها الطابع التاريخى . (٥٠) . أوجه الاتفاق بين الرواية والسيرة لا تجعل من السيرة رواية بالمعنى الاصطلاحى للرواية ، إذ أن أوجه الاختلاف أيضاً كبيرة فنحن إزاء عمل من الأعمال الشفوية وليس من الأعمال المكتوبة كالرواية لنقرب بينهما فى شكل واحد . إلا أننا نقول إنها أعمال قصصية أو إذا قلنا روائية بمعنى أنها تروى وليس بمعنى أنها رواية حديثة .. وعلى كل فقد أنكر الباحثان أن يكون الأصمعى هو مؤلفها "فى الوقت الذى تدل السيرة ومافيها من بناء فنى سليم على أنها من صنع رجل متمرس فى هذا الفن ، طويل الباع له تجارب متعددة سابقة وربما لاحقة فى الأعمال القصصية" (ص ٦٧) .

و"عملية البحث عن مؤلف لعنترة انتهى إلى أن كاتبها شخص واحد وليس عدة أشخاص" (ص ٧٢) . وتعنى كلمة الكاتب هنا المؤلف كما يتضح من سياق قولهما :

"من هذه المادة التاريخية الخصبة التى خلفها الأصمعى استقى مؤلف سيرة عنترة موضوع قصته وعناصرها وأحداثها وأسماء شخصياتها .. ثم صاغ كل ذلك فى قالب روائى فيه خيال وفيه تفنن وفيه بناء قصصى سليم . وبذلك يمكننا القول بأن المادة العلمية والتاريخية فى سيرة عنترة يرجع الفضل فيها أول ما يرجع إلى الأصمعى أما السيرة الروائية للسيرة فإنها دون أدنى شك ليست للأصمعى وإنما لشخص متأخر عنه زمنياً اطلع على تراث الأصمعى واستغله فى صياغة روايته القصصية" . (ص ٦٩ -

٧٠) .. وماقاله المؤلفان هنا يرده النص نفسه الذى يذكر أن هناك أكثر من راو للنص فيغير اسم الراوى كثيراً على أساس أن راويها غير واحد . أو يذكر قال الراوى دون أن يحدده أو يذكر "قال نجد مؤلف تلك العبارات" (السيرة ص ١٢٠) أو قال الأصمعى رحمه الله .. وقد جعل منه صحابياً روى الحديث عن الرسول حتى أدرك الخلفاء الأمويين (ص ١٤) ومات أيام هارون الرشيد . بما لا يدع مجالاً للشك أن التاريخ والحقيقة التاريخية لم تكن تهم راوى النص ولم تكن هى الأساس الذى بنيت عليه السيرة .. فالراوى الشعبى يقوم بذكر هذه السلسلة من الرواة ليخلق الإيهام بحقيقة ما يقول وليوقع التأثير فى نفس مستمعيه بصحته .. فاختلاط الرواة فى النص يجعلهم مجرد أسماء . ومن هنا قوله قال وهب بن منبه وكعب الأحبار .

ولعل أصدق مافى النص مرتبط بالرواة هو قوله : قال الناقل بالرواة (ص ٨٢) ، فالأعمال الشعبية التى وصلت إلينا مخطوطة إما لنساخ كانوا أمناء فى نقل النص أو أنهم كتبوا النص بلغتهم . فالنساخ الذين نقلوا النص كما هو بلغته العامية ولم يحاولوا تغييرها وتفصيحها كثيرون ، يبرز ذلك فى النص الذى طبع بمطبعة حجر سنة ١٩٦٦ فى القاهرة عن سيرة المهلهل وهو مدون بالعامية المصرية بلغة يختلط فيها النثر بالشعر ، وكذلك ألف ليلة وليلة التى حققها محسن مهدى ، وقد أدى ذلك بمحسن مهدى إلى البحث عن النص الأم لألف ليلة وليلة واتهامه لناسخ نسخة ألف ليلة المتداولة بتشويهها والإضافة إليها ، ولكن محسن مهدى عجز عن الوصول للنسخة الأم فانتهى إلى أن كل نسخة هى نسخة أم .

وعلينا أن ندرك أن ناسخ النص ليس باحثا ، مثل عبدالرحمن فيقة أو بترسن ، يقدم النص المجموع شفهياً للدارسين ، وإنما هو

مبدع فنان يبرز من لغة النص أنه أجهد نفسه بالارتقاء بلغتها درجة عن العامية بمحاولة تفصيحها ، ومن هنا تمت عملية تفصيح نصوص السيرة ، وربما كان ذلك مما أدى إلى أن تطبع هذه النصوص دون غيرها مما دون بالعامية فإن الاتجاه العام فى العالم العربى يقف فى مواجهة العامية ، فهذه النصوص التى يتهم نساخها بتشويهها قد استطاعت أن تخلق رواجاً للدور الذى لعبه نساخها فى تفصيحها ، فمحاولة الإيهام الفنى بالحديث عن رواة هى محاولة تقليد لرواية العلماء عن التاريخ ، فقد استعار منهج العلماء فى توثيق الحديث لتأكيد صحته بتدوينه أسماء الرواة ، فهى تستند إيهاماً إلى تسلسل رواة كما تستند أحداث التاريخ فى تسلسلها إلى رواة ، ومن هنا اختلطت رواية العلماء برواية العامة ورواية العامة برواية العلماء ، مما يجعل بعض العلماء ينكرونها ، ولكن كثيرا ما يعجزون عن تمحيص كل ما يصل إليهم ، فدخل كثير من روايات العامة كتب تاريخ الأدب والتاريخ العام . وقد حفل كتاب جمهرة أشعار العرب بهذا اللون من الرواية ، وهو يحكى عن أشعار الجن وشياطين الشعراء (الجمهرة ص ٢١ ـ ٦٣) ، وكذلك الأغانى للأصفهانى ، كما لم يسلم كتاب من كتب التاريخ من تأثير روايات العامة ، واختلاط روايات العامة برواية العلماء جعل مهمة دارس التاريخ شاقة (انظر الأسطورة والأدب ، المدخل) وفى الوقت نفسه سهل مهمة الراوى الشعبى ومدون النص بالذات إذ إنه يتعامل مع نص مقدس كالقرآن الكريم والحديث الشريف يخشى عليه من التحويل والتبديل ، وإنما يتعامل مع نص دنيوى لا حرج من التزيد عليه والحذف منه . فهو يملكه تماماً كما يملكه الراوى الذى أسمعه نصه ، ومن هنا فهو مؤلف نص لا من حيث تركيبه من الألف إلى الياء وإنما من حيث عرضه فى السياق الذى يحب بإضافة ما يريد أن يضيف وحذف ما يريد أن يحذف . مدون النص مثله مثل الراوى الشعبى فى تعامله مع نصه فهو لا يستطيع أن يكون مقنعاً إلا إذا كان عارفاً بطبيعة عمله ، وصناعته الأدائية

وإتقانه للرواية وإدراكه لجمهوره وحاجته . ومدون النص راو فاهم لطبيعة عمله مدرك لانتقاله من الشفهى إلى المكتوب لذا فقد قام المدون بتغييرات أملتها الطبيعية الكتابية للنص .

وهناك فرق كبير بين أن تروى وأن تكتب ، إذ تتغير الحواس التى تتلقى العمل الفنى . أن تسمع تختلف تماماً عن أن ترى . اختلاف التلقى يغير كثيراً من تركيب العبارة وبنية الحدث ، فالراوى حين يروى يوقع ، فتتحول كلماته إلى شعر ، أو نثر موقع . والنثر الموقع قصير مسجوع ، فيه الكثير من الترادف والإطناب والتكرار وكثيراً ما يتجاوز المكتوب منه الإيقاع فى النثر والإطناب والتكرار . غير أن كاتب السيرة لا يتخلص تماماً من عناصر الأداء الشفوى ، فهو مدرك بوعى أن عمله المكتوب سيقرأ على جمهور .. فهو عمل سيتحول إلى رواية شفوية ، إن مدون النص لم يكن يتصور أن النص سيتحول إلى كتاب مطبوع تنقطع العلاقة فيه بين المبدع والمتلقى وإنما العلاقة قائمة بين قارىء النص ومتلقيه إذ أنه بعد أن يكتب النص يصل إلى يد قارىء يقرأه على جمهور ممن لا يحسنون القراءة والكتابة ، وهؤلاء قاعدتهم عريضة فى عالم لم تنتشر فيه القراءة والكتابة الانتشار الحديث ، فقد كانت دائرة الأميين متسعة اتساعاً كبيراً فى العصر التركى . إذن فمدون النص يكتب النص لراو آخر ، فهو يحفظ له النص بمقوماته الشفاهية التى وصلت إليه . ربما يكون مع هذا مدونا للنص وراوياً لما يدونه فيكتبه ثم يلقيه على الجمهور الأمى . وإنه من الواضح فى تدوين النص أن جميع المقومات الشفاهية للنص موجودة ، ويضاف إليها العبارات النمطية التى يخاطب بها الراوى جمهوره . ففى (ذات الهمة) على سبيل المثال تتكرر عبارة (قال الراوى ياسادة ياكرام) ، وعبارة (أنشد يقول : صلوا على طه الرسول) . وتوضح جدلية العلاقة بين الراوى وجمهوره عبارات منها (ياسامعين) و (قال الراوى المؤلف لهذا الكلام بعد الصلاة على

النبى صلى الله عليه وسلم) و (صلوا على سيد السادات) و (النبى تبسم فى وجه من يصلى عليه) .. ويمكن أن تظهر مقدرة الناسخ من الرواية فهو قد يذكر حادثة ويتركها ثم يعود ليشير إليها على عادة الكاتبين : "قال الراوى تقدم لنا فى الجزء الرابع أن (بنو هلال) بعدما قتلوا أبو بشارة العطار حاكم بلاد صهيون جدوا فى قطع الفلوات حتى أقبلوا على مدينة الشام" . (التغريبة ص ١٣٣) . فالناسخ هنا واحد وليس المؤلف بالمعنى العصرى لكلمة تأليف . فهو مدون رواية يعرفها دون أن يكون هناك شخص يمليها عليه ويحاسبه على التزام ما يملى عليه . فهو يدون من الذاكرة ويتضح ذلك من امساكه بخيوطها وانتخابه لأحداث مترابطة فيما بينها . فمدون نص سيرة المهلهل المتداولة بين أيدينا بعنوان قصة الزير سالم أبو ليلى المهلهل ومدون نص سيرة بنى هلال واحد فهو قد بدأ السيرة الهلالية من حيث انتهت . ويمكن أن نضيف أن كثيراً من مختارات الشعر الفصيح المذكورة فى ثنايا النص هى مختارات الناسخ كما أن كثيراً من تصحيحات النموذج الشعرى الذى يمثل جزءاً من السيرة قد يكون أحد أعماله .

وهناك جوانب ليس من السهل أن تكون من المرويات الشفهية ، فهى واضحة التأليف إن لم ينقل المدون عن غيره فهى لاشك من الأعمال المكتوبة كالرسائل المتبادلة بين "مهردكار" بنت الملك كسرى وحمزة البهلوان . تبدأ رسالة مهردكار الأولى بهذه الفقرة "أسيرة الحب قيدها الجمال قيوداً لا تنحل ، ورمتها أيدى الطافك بسجن من الهوى يزيد ويقود بهاعلى الدوام لم يسبق لى أن ملت إلى غرام أو فكرت بمثل هذه الأوهام أو خطر لى أن أعلق قلبى بفتى من الفتيان أو أسلك سبل هذا الميدان ولا أعرف أن نظرة واحدة كافية أن تفعل بى ما فعلت وترمينى بالوسواس وتلقينى على سرير الضنا وتجعلنى أسلك سبيلاً ربما كان غير موافق سلوك من لا يعرف ولا يدرك مفاعيله" . (السيرة ص ٧٣) . هذه النصوص

الأدبية من رسائل تضمنتها السيرة تكشف عن تدبر وتدبير كاتب ، فهى لم تخرج عفوية وإنما صيغت صياغة متأنية حتى خرجت مسترسلة بدقة ، ليس من السهل أن تكون من المرويات الشفهية ، فهى خارجة عن دائرة الحدث مختلفة عن طريقة الرواية الشفهية .

● ● ●

والنصوص الشفهية التى يتناولها هذا البحث وهى جميعاً مرتبطة بسيرة بنى هلال ، ومتغايرة عن بعضها البعض إلى حد كبير ، فهى نصوص مستقلة قد تلتقى فى بعض أحداثها ولكنها تختلف فى معظم هذه الأحداث . حتى إن نص عرب الشوا ، تكاد تنقطع العلاقة بينه وبين بقية النصوص إلا من حيث استخدام بعض الأسماء كأبى زيد ودياب ، ويتغاير بعضها بتغاير المكان "فخضرة" تتحول إلى "أنده" . أما فى بقية النصوص فالخط العام للسيرة موجود وتتغير تفصيلات الأحداث فنص عبدالرحمن قيقة مختصر ومحدود . أما النصوص الاربعة للحاج عبدالظاهر وعبدالسلام حامد والنادى عثمان وعوض الله عبدالجليل فهى نصوص منفصلة تتزاحم فيها الأحداث تزاحماً كبيراً . ويجمعها الخط العام لحركة السيرة . وتتغاير كثرة من التفصيلات المرتبطة بالحدث مما يجعل كل رواية من هذه الروايات سيرة قائمة بذاتها ، فلسنا أمام بطل واحد اسمه أبوزيد الهلالى سلامة وإنما نحن أمام عدة أبطال كل منهم يسمى أبازيد الهلالى سلامة . وكل منهم بطل يشترك فى المقومات العامة للبطل ، ولكن تختلف كثير من الأحداث وكثير من التصرفات التى تساهم فى نمو السيرة بطريقة مختلفة عن الأخرى . والسؤال أيهم أبوزيد الحقيقى ؟ ليس هناك أبوزيد حقيقى ؛ أو أبوزيد غير حقيقى هناك أبوزيد لراو معين فى رواية معينة . فإنه مع اختلاف روايات السيرة بين هؤلاء الرواة فإن راوية النص الواحد لراو واحد ، فى أوقات مختلفة يخرج نصاً مخالفاً للنص الذى رواه قبل ذلك . المعالم الأساسية واحدة ، ولكن

التغييرات تتم فى تصرفات الشخصية فى مواجهة الحدث وكذلك فى لغة الحدث وكذلك فى لغة النص .

ولقد سجلت لعوض الله روايته لمواليد أبى زيد أربع مرات . الأولى فى بيتى فى ٧ مارس عام ١٩٧٨ م وبقية المرات فى احتفالات فى أماكن متعددة . واشترك فى جميع هذه الحفلات النادى عثمان . كانت الثانية منها فى جامعة القاهرة احتفالاً ببلوغ الدكتور عبدالحميد يونس سن السبعين من عمره . (وكانت أول مرة يدخل فيها الراوى الشعبى جامعة القاهرة . وكان الدكتور عبدالحميد يونس يرى أن ذلك انتصار لفكرة الأدب الشعبى فكان ذلك اعترافاً أكاديمياً بدور الشاعر الشعبى فى إبداع نوع أدبى) . وكانت المرة الثالثة عندما صاحبنى فى محاضرة ألقيتها فى المركز الثقافى الأمريكى . والرابعة قدمته فى المركز الثقافى الأسبانى مع مجموعة من المحاضرين لمدة أربعة أيام . بدأت يوم ١٩٨٠/٥/٢٨ م .. والمرة الخامسة والأخيرة فى ١٩٨٣/٤/٢٤ م .. فى منزلى .. وفى جميع هذه المرات كانت هناك اختلافات واضحة بين الروايات . هذا مع العلم أنه هو نفسه كان يزعم أنه يمكن التغيير فى أى جزء من أجزاء السيرة إلا الجزء الخاص بالمواليد . كان عوض الله يعتز بالمواليد ويرى أن هذا الجزء لا يغير فيه ، وكنت إذا أعدت عليه شيئاً من محفوظى يحرص على أن تكون روايتى مطابقة لما يقوله ، وكنت أتصور أن هذا يعنى أنه حافظ للنص لا يبدل ولا يغير فيه ، وهو لاشك حافظ للنص ولكنى اكتشفت أنه يغير ويبدل فيه . ففى إحدى الروايات يجعل من غانم بطلا وفى رواية أخرى يجعله يهرب من الموت ، وفى رواية ثالثة لا يذكره أبدا . وفى رواية يكرر أبيات وصوراً أو مقطوعات ثم لا يعيدها فى رواية أخرى . تطول الرواية وتقصر حسب حالة الانتشاء التى تصيبه من جمهوره ، حبه لأن يكسب الجمهور أساسى فى عملية الأداء . يتغير أداؤه ويرتفع إيقاعه وهو يقف بجوار النادى

عثمان مؤدياً تأخذه الغيرة ويزداد حماساً وتتحول ساحة الأداء بمكانها إلى مسرح له يتحرك فيه مشخصاً عالم السيرة مبهراً بأدائه كل المستمعين ، ولا يختلف النادى عثمان عنه إلا فى شيء واحد وهو هدوءه الشديد وثقته الزائدة بنفسه فهو يسمح بقدر من التجاوز فى سلوك عوض الله إزاءه حتى وهو يحاول أن يفسد عليه الأداء بعدم استخدامه الطار فى الوقت المناسب ، فقد كانا يشتركان معاً فى العزف : النادى بالربابة ، وعوض الله بالطار .

كانت خبرة النادى كبيرة بجمهوره وكانت لغته أقرب وأوضح للجمهور من لغة عوض الله ، يهز عوض الله الجمهور بهذا الكم الانفعالى الشديد الذى يصبيه فى أدائه ويهزهم النادى بالكم الهائل من مخاطبة عواطفهم بأحداث يحبونها وثقته بنفسه يغنى لهم عزيزة ويونس أو يحادثهم عن مقتل الزناتى خليفة ، وهذا الجزء من السيرة رواه لى النادى وسجلته له أكثر من عشر مرات . لا يمل من الاستماع له حين يتحدث عن الزناتى خليفة وهو فى كل مرة يضيف إليه جديداً . الإطار واحد ، ولكن الأداء مختلف وكذلك بعض التفصيلات التى تدخل فى بنية الحدث الكبير للسيرة مختلفة . وصف الأبطال مختلف ، ولقد كانت تجربة حية أن جمعت بينهما فى محاضرة ألقيتها فى المركز الثقافى الأمريكى ، وكانت عن أداء السيرة ، وطلبت من كل منهما أن يغنى مقتل الزناتى خليفة . صورتان تتوازيان فى جمالهما وتختلفان كثيراً فى مبنيهما .

تعتمد التغيرات التى يحدثها الراوى فى النص كثيراً على الأوصاف النمطية المحفوظة عن وصف البطل وهى كثيرة ويمكن أن يضيفها لأى بطل من أبطاله ، وكذلك صوره عن وصف الجو تتكرر فى المواقف ، تطول وتقصر حسب إحساسه برغبة جمهوره الذى يشترك فى عملية الأداء اشتراكاً فعلياً ، فالنص الشفوى يعاد

تأليفه ساعة الأداء ، يتم فى عملية جدلية بين الراوى والمتلقى . إذا لم تتم عملية التفاعل فإن النص يسقط ، فكل النصوص التى فى أيدينا هى بصورة أو بأخرى تأليف تم ساعة تسجيل النص أو ساعة أدائه . تأليف لا يبدأ من فراغ وإنما من تقاليد متوارثة . فالسيرة التى تطول طولاً متسعاً ليس من السهل أن يحفظها الراوى بكاملها ، إنه يحفظ الأساس ثم يبنى عليه بناء جديداً من وصفه وحسه ، وتتم عملية تداخل لمحفوظه وما يمكن أن يتولد ساعة الأداء فهو يصيغ عالماً متكاملاً من صناعته من خلال تقاليد طويلة عاشها وترسخت فى نفسه ومن خلال تقاليد عالمه الذى يعرفه ويشترك فى معرفته جمهوره الخاص . يأخذ النص فى التوالد والبناء ليتكامل نصاً لنوع أدبى اسمه فن السيرة ، وهو هنا يقترب من أداء الملحمة الغربية التى عرفت عند أصحابها بأنها "لم تصنع بوضع مجموعة منسقة من الأعمال البطولية وجعلها حكاية مستمرة ، فالملحمة ليست إعادة خلق الأشياء القديمة ، إنها فى مجموعها خلق جديد بلغة الأشياء القديمة ، وأى شىء آخر يمكن أن تكون الملحمة ؛ فا"لشاعر الملحمى يملك تقاليد المحتوى وتقاليد الأسلوب ، وهذا ما يكون وراء الشعراء الآخرين أيضاً . غير أنه فى حالة شاعر الملحمة فإن هذه التقاليد تضيق إلى حد ما (The Epic. P.P. 16 - 17) . وضيق هذه التقاليد فى حالة الراوى الشعبى تأتى من أن جمهوره يدرك هذه التقاليد أكثر مما يدرك قراء شاعر من شعراء الغناء تقاليد كتابة الشعر الغنائى . فإن العارفين بها قلة إذا ما قورنوا بعدد قراء الشعر أو متلقيه . والسبب فى ذلك أن عملية الخلق عند شاعر السيرة مثلها فى ذلك مثل شاعر الملحمة الشعبى إذا ما قورن بشاعر من الشعراء المؤلفين للملاحم مثل "ملتن" فإن هدف صناعته أكثر تقيداً . كما يوضح التكرار والكم الهائل من الصفات . إنه مقيد بحقيقة أنه ينظمها للحفظ" ("Tbid" P. 37") .

واستخدام الصفات المتعارف عليها للبطل ومن يقفون معه أو

ضده من الشجعان صفة من الصفات الهامة للنص وهى التى تجعل التكرار جزءاً هاماً من بنيته .

فالنادى عثمان يروى ساعة مقتل خليفة وذهاب دياب إليه . وعندما يسمع البطل يناديه للحرب يدرك أن ساعته حانت ولكنه لا يتراجع ففى النص صفة خاصة بالزناتى والحدث نفسه وهو توجهه إلى الحرب :

خليفة سمع الطبل نقر .
وع الكتف ناقل زناته .
وجض ابوه كبير الزناته .
ولما جض ولد مهران
ولما جض ولد مهران
وخللى عينك رقوبة .
خرج ولد مهران .
وقال ياعبد جيب الركوبة .

بعد هذا الموقف يضيف لقاء الزناتى بدياب ، وهذا الوصف يتكرر كثيراً فى نص السيرة فهو يروى حالة عامة من الحالات التى عرفت بها السيرة . وهى لقاء الأبطال والتى يمكن أن يوصف بها الزناتى أو دياب أو أبوزيد أو على أبو القمصان بن أبى زيد :

جابوا كحيل وقدموا ليه .
وع الكتف ناقل زناتى .
وسرجوا وقدموا ليه .
ركب خليفة الزناتى .
ولما تقابلوا هما لتنين .
يارافع البلا ياسلام .
وتحلف وتقول سبعين .
نازلين من قرى لجبال

ضاق الحلق ووسع الملق .
هلف الرجال شرد وطار .
وقلبوا لها بالعبابيس .
فى نهار ياللا السلامة .
وتسمع رطن الدبابيس .
تارت هوال القيامة .
ونسوان ياما نوحت .
ياما خليفة اطوًحت .
وياما خيل عادت روحت .
بعددها من غير سجعان .
من الصبح لما أوجب الضهر .
من الصبح لما أوجب الضهر .
ويالطيف ضقت الخلايق .
وعرق البهمه نزل نهر .
من الزهق شدوا الخلايق .
من الضهر لما أوجب العصر .
وسحبوا السيوف الهواشم .
آدى اتوصلوا بأهل بيت مصر .
وأبرى ساعتك يأم هاشم .

هذه الأبيات كلها لتصور حالة التزاحم النفسى فى معركة ضارية وضعها طبيعى فى هذا المكان ولكنه لا يختص بحدث معين من أحداث لقاء الزناتى بدياب إلا حين ذكر السرداب فهو من المعالم المهمة فى مقتل الزناتى لذا فقد عاد لتكرار جمل من النص :

ولما جو عند السرداب .
وع الكتف ناقل زناتى .

هذه الصورة أعيدت فى السيرة أكثر من مرة فى فصل الأيتام وهو المتصل بمواليد البطل ، فتتكرر صورة أبى زيد فى ميلاده مع ابنه على أبى الحلقان فحين يحارب عدو البياضى يكرر النادى جزءاً من النص السابق بنفس ألفاظه :

من الصبح لما اوجب الظهر
ويالطيف ضقت الخلايق

ويستمر ، والغريب فى كل ذلك أن المستمع يستمتع بالوصف فى كل مرة يعرض له عندما تكون اللحظة لحظة قتال . وحين لا يريد الجمهور منه أن يكرر هذه التراكيب فإنه يتوقف لأن لديه بديلاً عنها . أو يحذف جوانب منها ليدخل مباشرة فى موضوعه وفى ذهنه عالم سيرته ، وكيف يصوغه لهذا الجمهور الذى كثيراً ما يكون مدركاً لصنعته ، وكثيراً ما ينقلب أعضاؤه إلى رواة لهذه السيرة لجمهور آخر . فى لحظة أخرى ، فالسيرة أولاً وأخيراً عرض لحياة أبطال يعيشون أزمة أحياناً مع أعدائهم وأحياناً مع أحبائهم وأحياناً مع أنفسهم ، هذه الأزمة التى تخلق النص وتخلق الانطباع .. ببطولة شخصيات السيرة ، وقد أدرك الغربيون فى ملاحمهم هذا الحس ، فيرى أحد الباحثين "أن الملحمة الحقيقية ، تخلق الانطباع بالبطولة ، وأن هذا الإحساس يتم بالسيطرة على مادة واسعة وأن يدرب على التحكم فى إرادته بوعى" (**The English Epic, P.P. 10 - 11**) .

ووعى الراوى بدوره هو الذى يجعل منه مؤلفاً للنص لا يفترق فى ذلك راو عن آخر ، وفى هذا البحث لا يختلف النادى عثمان وعوض الله عن الحاج عبدالظاهر وعبدالسلام حامد . فلم يكن الحاج عبدالظاهر مختلفاً عن الرواة المحترفين ، فهو قد صنع النص بلغته وكان أقل استخداماً لعناصر التكرار اللفظية ، ولكنه كرر الحدث . كرر ما حدث لأبى زيد فى طفولته وكرره مع ابنه على

أبى القمصان . وعبدالسلام الذى كان يركب عالماً يطيله حين يشاء ويقصره حين يشاء يولد الكلام ساعة تسجيل النص بطريقة ويركبه بطريقة أخرى حين لا يكون هناك تسجيل للنص .

فالنصوص التى يتعامل معها هذا البحث نصوص شعبية لأن مادتها متواترة منقولة من جيل إلى آخر ، وهى أيضاً مؤلفة لأن رواتها صاغوها الصياغة التى تجعلها قريبة لمستمعيهم ، فجعلوا من النص الواحد عدة نصوص ، وجعلوا من البطل الواحد عدة أبطال باسم واحد ، وأبطلوا مقولة أن السيرة تاريخ لأن البطل إذا لم يثبت على حال فى الروايات التى تتحدث عنه فكيف يكون تاريخاً ، قد يكون هناك سيف فى التاريخ وقد لا يكون ، وقد يكون هناك المهلهل وقد لا يكون ، قد يكون هناك حمزة وقد لا يكون وقد يكون هناك أبو زيد وقد لا يكون ، وقد تكون هناك ذات الهمة وقد لا تكون ، وبالتأكيد هناك بيبرس - ولكن من المؤكد أن لا علاقة بين البطل التاريخى وبطل السيرة - البطل التاريخى يختص بالتاريخ ، يحقق وجوده من عدمه ، أما بطل السيرة فلا دخل له بالتاريخ وليس من حق التاريخ أن يحقق فى وجوده من عدمه لأنه موجود صنعه الفن ، وفن السيرة صنع أبطالاً ، أصبح لهم واقعهم الحقيقى فى خيال صناعهم من رواة ومتلقين ، فهذه النصوص هي الواقع الذى يتعامل معه الباحث .. وأى ارتباط بين أحداث حدثت فى التاريخ وأحداث حدثت فى السيرة . فإنما هى خلفية العمل الفنى ، الخلفية التى توحي بالوجود الحقيقي للفن ليقف في موازاة الوجود الحقيقى للتاريخ . دون أن يحاول الفن أن يرهق نفسه بالبحث عن الصواب والخطأ فى أحداث تاريخ بطل السيرة لأنه فى نظر الراوى والمتلقى ثابت حى وموجود ، لا يبحث فى ذلك عن سند تاريخى لأنه لو تطابقت صورة بطل السيرة مع التاريخ لبطلت معجزة فن السيرة ، ولما تعددت صور البطل الواحد ، فأصبح أبوزيد في نيجيريا نيجيريا ، وفى تونس تونسيا ، وفى مصر مصريا يتحدث الناس عن

أماكن وجوده .. وفى الجزيرة العربية عربيا ، يذكر الناس أشعاراً عنه بلهجاتهم . ولا يختلف المهلهل عن أبى زيد فهو فى إحدى الروايات مولود فى الجزيرة العربية وفى أخرى مولود فى مصر .. ولعل النصوص التى تناولت مواليد البطل تكشف عن إبداع الراوى ويستحسن أن نقف مع مفتتح النص .

● ● ●

فالنص يبدأ بالفعل الماضى وسيرة سيف تذكر .. إنه كان فى قديم الزمان وسالف العصر والأوان (سيرة سيف ص ١) .

وسيرة عنترة تبدأ بـ "اسمع أيها السامع ماكان من أحاديث العربان وما جرى بين يعرب وقحطان وفزارة وذبيان ، وعبس وغطفان ، وهم مضر وربيعة وأنمار وكان أكبرهم يقال له مضر .. (ص ٢) .

وتبدأ حمزة البهلوان بداية مباشرة بكان "كانت دولة الفرس من الدول العظيمة فى قديم الأيام" (ص ٢) .

وسيرة المهلهل تذكر بعد حمد الله وصفا لعالم العرب ثم تبدأ السيرة بقول : "قال الراوى وكان ربيعة فى ذلك الزمن (ص ٢) .

وتبدأ أحداث التغريبة بعبارة : "إنه لا يخفى عن أهل المعارف والآداب بأن بلاد نجد كانت من أخصب بلاد العرب" (ص ٢) . ويبدأ عوض الله سيرة بنى هلال بفصل المواليد بجملة : "قال الهلالى رزق أمير الرجال" ، ويبدأ الحاج عبدالظاهر السيرة بفصل المواليد بعبارة "سيرة بنى هلال كانوا زمان قبائل قبائل" ، أما عبدالسلام حامد فيبدأ السيرة بفصلها الأول من نجد إلى مكة . وبعد الصلاة على النبى : "يبدأ بعبارة نرجع نقول على عرب بنى هلال عرب بيض الله تناهم نشعر نقول على رزق الهلالى" . وإذا كانت البداية هى بفعل ماض فإن حدث السيرة مستقبل ،

والمستقبل بمعنى أن كل مقدمات الحدث إنما تكشف جوانبه ، وحين نتحرك إلى المستقبل يصبح مضارعاً ، فالمستقبل يتحرك فى دائرة المضارع حركة متوفزة لا تستقر إذ أنها ساعة أن تستقر يتغير الموقف فيصبح الاستقرار ماض ، لتبدأ حركة جديدة هى حركة ما بعد الاستقرار ، حركة تتجه نحو المستقبل فى صراع ممتد مع حركة الزمن من مستقبل إلى مضارع إلى ماض ، فأداء راوى السيرة هو حركة مضارع تتجه إلى المستقبل ولا تتوقف هذه الحركة إلا حين يتوقف الراوى . ففى ساعة التوقف يصبح الحدث وحالة الأداء حالة ماضية ، ما تلبث أن تتغير الحالة عند المتلقى ، إذ إنه ساعة أن ينتهى الراوى من أدائه تتلبس المتلقى حالة خلق أو حالة معايشة للنص يتحول الحدث فيها الى حالة مضارعة ومستقبلة عنده حتى يتوقف عن التفكير فى النص أو إعادة خلقه من جديد لأى سبب من الأسباب الحياتية .. وحين التوقف يصبح النص ماضياً إلى أن يعود فى الذهن من جديد ، وهذه العودة للنص سواء أكانت مع الراوى أو مع الذات فهى حالة مضارعة متجهة نحو المستقبل ونحو تشكيل الحدث . فالمضارع هو نقطة الحركة وهو مستقبل ليتحول فى النهاية إلى الماضى . ثم ليعود الماضى مرة ثانية نحو المضارع فالمستقبل فى علاقة متجددة لا تنتهى إلا ساعة توقف النص تماماً .

وفى السيرة تتلاشى العلاقات بين الماضى والمضارع والمستقبل ، وبطل السيرة "لا يشعر بحدود فاصلة بينه وبين الماضى والحاضر فى هذا العالم ولا يكاد يميز نفسه كنقطة محدودة من الزمان والمكان" (البطل . ص ٧٥)[٦] .

فالماضى معروف والمستقبل معروف ، والمضارع هو حالة الأداء التى تعيش فى زمن لا ينتهى والحدث يتحرك فى قدر مسبق كتب فى لوح محفوظ منذ الأزل قبل ميلاد البطل .

والبطل حالة آنية مستقبلية تتحرك نحو المضارع لتحقيق الماضى أو ما كتب فى اللوح المحفوظ منذ الأزل .

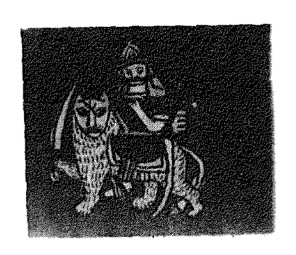
فمستقبل البطل معروف قبل مولده مكتوب عليه أن يمر فى طريقه . غير أن تكوينه الجسمى والنفسي يحتم عليه السير فى هذا الطريق الذى قد يكون مجهولاً له معروفاً لغيره ، وربما يكون الغير هم أعداؤه . وقد يدفع فعل أعدائه لمنع تحقيق ما وجد له أو ما كتب عليه أن يصنعه ، فتتجه الأحداث نحو تحقيق ماهو معروف وحركة الشخصيات تجعل الحدث دينمياً متطوراً ، يدفع هذه الدينمية والتطور صراع لا ينتهى حتى تتحقق الإرادة الكونية .

وحتى إذا تعرفت الشخصية على قدرها فإنها تعيش صراعها وكأنها لا تعرف عن مستقبلها شيئا وحين يحدث المستقبل أى يتحقق القدر يكون ذلك إرادة للحياة نتيجة طبيعية للصراع فى محاولة غير مقصودة لإيقاف القدر .

ومواليد البطل هى المقدمة الأولى للسيرة ، تبنى عليه أحداثها .. وتكشف عن الدور الذى سيلعبه البطل ، أما لماذا يتكشف دور البطل هنا . فذلك لأن جمهور السيرة مساهم فى عملية خلقها . فهو متابع لراويه ومتحكم فيه : يتابع الراوى فى أدائه للنص وفى الوقت نفسه يتصور ما يمكن أن تدور عليه أحداث النص ، وتصرف الشخصية ، والراوى يحاول أن يتفهم رغبات سامعيه وتصوراتهم .. ويتحرك مع هذه الرغبات والتصورات ليرضيهم ، وهو يعلم أن أداءه يفشل حين لا يحاول تحريك هذه الرغبات والتصورات ليرضيها أو يثيرها فى الوقت نفسه ، فإنه كلما أثارهم فإنه يثير قدرته أيضاً .. وإثارتهم تحقق لهم الرضا . كما تحقق للراوى . وحين لا يتحقق الرضا لكليهما ، الراوى والمتلقى ،

فإن عملية الأداء تفشل ويسقط النص لأن الراوى يكون قد خسر أحد معاونيه فى الخلق الفنى للسيرة وبالتالى أحد معاونيه فى الأداء ، وإذا انسحب متلق من عملية الأداء ، فإن معنى ذلك أنه خسر واحداً من معاونيه ، وكلما كثر المنسحبون من حلقة الراوى كلما عد ذلك حكما عليه وعلى أدائه بالفشل ، فأداء الرواية هنا هو عملية متكاملة يتداخل فيها المتلقى مع الراوى تداخلاً تاماً .

ومن هنا تكمن أهمية البداية بمواليد البطل فهى التى تحمل بذور تطور النص وحركته نحو المستقبل متمشيا مع منطق المتلقى . لتكون الوحدة الأولى فى المواليد هى النبوءة .





النبوءة

او قدر البطل

قد لا يوجد بطل لسيرة من السير لم يرتبط ميلاده بالنبوءة فهى ترتبط بوجوده الفعلى ، تحدد له المصير المعد له والدور الذى سيلعبه فى حياته ، وهو دور عليه أن يلعبه ، وليس فى مقدوره أو مقدور أى إنسان ان يعوق هذه النبوءة عن التحقيق ..

وقد كان بيبرس الوحيد من بين أبطال السير الشعبية الذى لم تكن النبوءة بمصيره سابقة لميلاده ، وإنما جاءت بعد أن اختطف من أهله وبيع ، وقد جاءت النبوءة لحظة مرضه فى عبوديته لتنقذه من عذابه وتدخله مرحلة الاعتراف به بطلا ، فكانت بذلك ممثلة لميلاد جديد لابن الملك المريض ..

وتلعب النبوءة دورا كبيرا فى إخراج البطل من حيز الإنسان العادى إلى حيز الإنسان الأسطورى ، أى من الواقعى الى الأسطورى ، وفيها يدخل دائرة الكون الكبير ليصبح مرتبطا به ارتباطا وثيقا .

والنبوءة هى الإخبار بالمستقبل قبل وقوعه ، أى أنها قراءة الغيب وتعرف ما هو مكتوب فى قدر الإنسان . ولقد احتفت السير العربية الشعبية بالنبوءة التى تحدد مصير أبطالها ، وهى ليست فريدة فى ذلك ، فإن النبوءة معروفة فى الآداب العالمية الشعبية ، وقد لعبت دورا كبيرا فى بنيتها القصصية ، وفى الأدب اليونانى كانت النبوءة قاسما مشتركا فى حياة أبطال الملاحم والقصص الشعبى . ولعل من أشهر النبوءات . النبوءة الخاصة بأخيل وكعبه والنبوءة الخاصة بأوديب والتى حملها معبد دلفى إلى والد أوديب بأن ابنا سيولد له يقتله ويتزوج بأمه وحاول الأب ان يتخلص من الابن خوفا من تحقق النبوءة ، وكانت محاولته هذه هى التى أدت الى تحققها .

وكما قامت النبوءة بدور كبير فى القصص الشعبي فإنها قامت بدور مهم فى بعض القصص الدينى ، ولعل من أشهر نبوءات هذه القصص ، النبوءة الخاصة بيوسف وموسى عليهما السلام .

والنبوءة هى رسالة إلى الإنسان ، قد تكون رسالة إلى عدو البطل فيحاول أن يحتاط للأمر ويحاول أن يوقفها فتكون محاولته تحقيقا لها . وقد تكون خبرا يريح صاحبها ، ويمنحه اليقين ويزيل عنه الخوف من نفسه . وقد تكون يقينا للجماعة بدور بطلهم المقدر عليه .

وهذا المبحث يدرس الكيفية التى يتم بها التعرف على النبوءة ، إذ أن هناك عدة وسائل للتعرف عليها . منها الرؤيا أو الحلم ، والإلهام ، ورصد النجوم وقراءتها ، وقراءة الطالع بضرب تخت الرمل ، وهناك النبأ المكتوب فى الكتب القديمة التى تركها أحد الحكماء القدماء ممن ألهموا أو كانوا يرصدون النجوم أو يضربون تخت الرمل .

وترتبط النبوءة فى كثير من الأحيان بالزمان والمكان ، فليس كل وقت أو مكان صالحا للرؤية الصادقة ، كما أن الزمان مرتبط ارتباطا كبيرا بقراءة النجوم ومواعيد ظهورها وعلاقتها بالنجوم الأخرى ، ويلعب الزمان والمكان دورا مهما فى استجابة الدعوة ، فإذا دعيت الدعوة فى الأماكن المقدسة فى الزمان المقدس فإن فرصتها كبيرة فى التحقق ..

• • •

ولقد كتب على الأمير حمزة البهلوان أن يكون « الفارس الذى يرفع نير الفرس عن العرب ويهدم معابد النيران وتقع بينه وبين الدولة الكسروية حروب قوية يفضى بها إلى الخراب والدمار وينشر

دين الله وعبادته بين عبدة الأوثان وناكرى الحق سبحانه وتعالى »
[السيرة ص ٥] ... أما الملك سيف بن ذى يزن فقد كتب عليه أن يحقق دعوة نوح عليه السلام فى ابنه حام . ويحدد الرمال هذه النبوءة قبل أن يولد سيف .

فإن مليكا يملك الأرض كلها
يكن حميريا تبعيا ومسلما
بدعوة نوح داعيا كل أسود
لأولاد سام تابعين وخدَّما
يقاتل أبطال الجيوش بعزمه
وينقذهم من ظلمة الكفر والعما (ص ١٥)

وقد كان دور عنترة المكتوب عليه أن يذل العرب الجبابرة حتى يمهد الأرض لمحمد صلى الله عليه وسلم . وتروى القصة أنه « حدث المحدثون وأخبر المخبرون الذين نقلوا كلام العربان الأولين بما رووا من حديث عربان الجاهلية الشجعات وعبادتهم للأصنام وانعطافهم على الأزلام والأوثان وقد أضلهم وأغواهم الشيطان حتى ابتلاهم الله بالمذلة والحرمان لأنه لم يكن قصدهم من ذلك الزمان إلا أنهم يتفاضلون على بعضهم البعض وكأن كل منهم يريد أن يكون ما مثله أحد على وجه الأرض ويقهر شجعانهم بالطول والعرض .. كانوا لا يخافون الله ولا يخشونه ولا يحترمونه (ولما) أراد الله سبحانه وتعالى هلاك أهل تجبرهم وتكبرهم أذلهم الله تعالى وقهرهم بأقل الاشياء عليه وأحقرهم لديه وكان ذلك غير عسير عليه . وذلك بالعبد الموصوف بأنه حية تطبق الوادى الذكى الفؤاد الطيب الميلاد صاحب الوداد عنترة بن شداد الذى كان فى زمانه شرارة وخرجت من زناد فقمع الله به الجبابرة فى زمن الجاهلية حتى مهد الأرض قبل ظهور سيدنا محمد خير البرية (ﷺ) .

وكذلك تنبأ الإمام الصادق جعفر بن محمد لعبدالوهاب بن ذات الهمة بأنه سيكون ترس قبر النبى صلى الله عليه وسلم . والخليفة الهادى يسمع فى منامه من الرسول بأن عبدالوهاب : « هو من يطلب لعزتى وبه تسير فى الدنيا كلمتى ويبذل نفسه فى طاعة الله وطاعتى » [جـ ٨ مجلد ٢ ص ٢٥٧] .

وفى سيرة المهلهل يذكر التبع اليمانى الأحداث التى ستتبع موته حتى نهاية العالم ويسميها ناسخ السيرة الملحمة الكبرى للتبع حسان ، وفيها يتنبأ بقتل كليب وظهور الزير لينتقم من قاتليه

« ويأتى الزير أبو ليلى المزايل
فيصلى الحرب فى كل البلاد
ويقهر كل جبار عنيد
يضرب السيف فى يوم الجلاد » (ص ٢٥)

ويذكر ايضا أن ابنا لكليب يولد من بعده يثأر له ويقتل خاله :

« ويظهر لك غلام بعد موتك
يسمى الجرو قهار الأعادى
ويقتل على يده جساس خاله » (ص ٢٥) .

وقبل أن تنتهى السيرة تحدد نبوءة لمستقبل ذرية الجرو وهم بنو هلال فتلمح بشتاتهم فى الأرض العربية .

فقد دعت عليهم السيدة فاطمة الزهراء بالشتات والاندحار . وتشرف جدهم هلال بمقابلة النبى صلى الله عليه وسلم وقبله بين عينيه فأمره النبى صلى الله عليه وسلم أن ينزل فى وادى العباس وفى تلك الأيام كان يحارب بعض العشائر فعاونه الأمير هلال وأمده بالعسكر وقاتل معه وكانت فاطمة الزهراء رضى الله عنها راكبة فى هودجها فلما رأت الحرب زجرت جملها لتخرج عن مشاهدة القتال

فشرد بها فى البرارى والفلوات . ولما رجعت دعت على من كان السبب فى البلاء والشتات فقال لها والدها صلى الله عليه وسلم ادعى لهم بالانتصار فإنهم بنو هلال الأخيار وهم لنا من جمله الأحباب والأنصار فنفذت فيهم دعوتها على طول الدهر . (ص ١٦٠)

وأبو زيد الهلالى تحددت النبوءة فيه من كلام جده الشريف قرضة يحادث والده رزق فى رواية عوض الله عبدالجليل :

إذا جابت مولود كبر واتنشا
ابو زيد يطلع فارس يكيد العدا

وقد انجبت بعد زواجها بنتا أسمتها شيحة ثم توقفت عن الإنجاب أحد عشر عاما . تروى سيرة بنى هلال المطبوعة أنها حملت بعد ذلك وتمنت : « **أن يرزقها الله ولدا ذكرا وخرجوا مرة الى بستان فرات غرابا اسود يطرد الغربان ويقهرهم ويفتك بهم فقالت إلهى اسالك ان ترزقنى ولدا ذكرا ولو كان اسود اللون لعله ينشا يغلب الفرسان ويقهرهم مثل هذا الغراب** » (ص ٢٦) .

وقد أجمعت هذه الروايات على أنها توقفت تماما عن الحمل وأن ذلك كان يسبب لها ضيقا .

وفى رواية عبدالرحمن فيقة أنها تصدقت بقصعة من الكسكسى للطيور للتوسل بها إلى الله لعله يرزقها ولدا ووضعت القصعة فى البرية فكان أول طير وقع عليها غراب فدعت ربها :

« اللهم يارب يارباه ياغايت البكماء بدر السحاب ومائه أن ترزقنى بوليد صفته ها الطير وحلاه اللى يضربه بالسيف يسيل دماه » (ص ٥٧)

وتذكر رواية الحاج عبدالظاهر أن نساء الهلايل عايروها لتوقفها عن الإنجاب طيلة هذه المدة أما الرجال فقد ضايقهم ألا يكون لزعيمهم رزق ابن ذكر يحمل اسمه . فطلبوا إليه أن يطلقها غير أن رزق لم يستمع فى زوجته كلاما وأبقاها معه .

وفى يوم من الأيام ذهبت ومعها نساء بنى هلال إلى عين ماء .

وهناك وجدت طيرا أبيض وآخر أخضر ، فتمنت كل امرأة أن تأتى بغلام يشبه الطائر الذى تحب أما هى فقد توقفت حتى جاء طير أسود فاحم السواد أخذ يضرب الطيور ويسيل دماها فتمنت ابنا مثل هذا الطير .

« هى توجهت للكريم وقالت يارب ادينى وليد اسود غطيس وكل اللى ينكشه يسيل دماه .... كان ربنا وباب القدر مفتوح قبل دعاها واقعها رزق بن نايل حبلت ... »

ولم تحدد رواية عبدالسلام حامد المدة التى مكثتها خضرة متوقفة عن الإنجاب بعد شيحة . وإنما تذكر الرواية أن رزق الهلالى كان متألما لعدم إنجابه ابنا من زوجته ، وطلبت منه زوجته أن يتزوج عليها فرفض لأنه صابر على المكتوب .

وذات يوم خرجت مع أربعين امرأة من نساء بنى هلال إلى نهر العرب وكان الطير نازلا يشرب من النهر ، كل واحدة تمنت . زوجة الملك سرحان تمنت على طير ابيض وزوجة غانم تمنت على طير احمر المسمى بدياب » .

ثم أتى طير أسود بشوكة استلم الطيور تشتيتا وهنا أخذت تدعو ربها .

وقالت يارب يا رباب ادينى طير ومحلاه

وكل من يضربه يسيل دماه .. هو السبب والحكاية
وحملت كل النساوين الاربعين كل واحدة جابت رجاله

وفى رواية عوض الله عبدالجليل تفصيل لأزمه الأب وحزنه لعدم إنجابه ابنا وحزن الزوجة حبا فى زوجها متمنية أن يكون له ابن .
فقد جاء إليها باكيا وعندما سألته عن سبب بكائه :

« قال لها يا خضرة حصل لى كلام
ما قرم فارس إلا ابنه بيلعب معاه
ما قرم إلا ابنه بيلعب معاه ع الفراش
بصيت لقيت نفسى بنيتهم بلاش
نزلت دموع خضرة تغنى طشاش
من هرج رزق اللى طراها حداه
من هرج رزق اللى طرى هذا الجواب
كان عند خضره عقل فى الراس وغاب »

وجاءتها شمة بنت الحسب سيد النسب فوجدتها متكدرة وأبلغتها خضرة بسبب حزنها .

فجمعت شمة تسعين سيدة من جميلات بنى هلال وساروا وراء خضرة وكأنهن سعاتها حتى وصلوا إلى النهر وهناك وجدوا الماء الزلال حوله طيور بينها طير أسود شديد السواد .. وهنا طلبت شمة من النسوة أن يتمنين والطائر الأسود يشتت جميع الطيور ثم يطير بمفرده وهنا أخذت خضرة تدعو متمنية من الله أن يرزقها غلام مثله يفتح تونس .

« خضرة تقول ادينى غلام اسود كيف الطير ده

لملكو تونس ووادى حماه
املكو تونس يحدّ الحسام
من لجل يقولوا خضره جابت غلام
من الهلالى ابن نايل رزق موافى الزمام

....

....

أسألك يا مولاى بنور باهى الجمال
لأنى أجيب مولود يكيد العدا
لأنى اجيب مولود يكيد العدا
ابو زيد يزقى العوازل حنضل بكاس الردى

وعادت خضرة إلى منزلها لتلبس أحلى زينة لتلتقى برزق لتحمل وتنجب أبا زيد الهلالى ..

وتختلف قليلا رواية عرب الشوا النيجيرية فى أن هذا الطائر التى تمنته لم يكن متميزا عن غيره بالسواد وإنما كان نسرا قويا .

طلبت أنده من بزله أن تذهب إلى الماء لتغير ملابسها وكانت فى أيام الطهر فحملت كل واحدة منهن أوعيتها وذهبت إلى البحر وهناك وجدا جثة فرس وقد تجمعت الطيور حولها تأكل لحمها ثم جاء نسر وطرد الطيور ومكث يأكل بمفرده فتمنت بزله أن تأتى بغلام مثل هذا النسر .

وجاء نسر آخر طرد هذا النسر وحمل جثة الفرس ورفعها ثم حطها على الأرض ثلاث مرات .

ولما رأت ذلك تمنت أن تأتى فى طهرها بغلام مثل هذا النسر . وتصور الرواية هذه اللحظة :

« أنده شافت قالت لبزله . يا بزله أنا أريد فى طهرى هذا ألقى ولد فحل ومنيع مثل النصر هذا أسميه أبو زيد » Stories of) Abu zeid (النص ص ١) وبعد أن غسلت كل منهما ملابسها وذهبت إلى بيتها لتحمل كل واحدة منهن وتأتى بما تمنت . جاء لبزله دياب ولأنده أبو زيد .

فنبوءة البطل هى مدخله إلى عالم الخير والحق . ففى النبوءة يتحدد الاتجاه الذى يسير فيه مستقبل البطل لتدخله عالم القداسة فى الوقت الذى كتب على البطل أن يسير فيه .

ونبوءة الميلاد لاتتوقف عند النبوءة بالبطل الخير وإنما تتعداه لتتنبأ بالشخص المواجه للبطل anti hero

والبطل لا يواجه نوعا واحدا من الرجال وإنما يواجه نوعين من الرجال :

الأول : وهو البطل المعادى .

الثانى : وهو البطل المضاد .

والبطل المضاد يمكن أن ينقسم إلى نوع محارب ونوع لا يحارب وهو الذى يدخل دائرة شخصية المحتال . وهو هنا المحتال العدو وليس المحتال الصديق .

والبطل المعادى ليس بالضرورة متناقضا فى سلوكه مع البطل ، إذ قد يكون بطلا مثيرا للإعجاب يملك كل مقومات البطولة وله من المعجبين من جمهور المستمعين عدد لايقل عن عدد المعجبين بالبطل كشخصية الزناتى خليفة التى لا تفتأ السيرة تخلع عليه ألقاب الشجاعة والعظمة فهو بطل الغرب الذى يواجه بطل الشرق أبازيد .

فالزناتى ليس مضاداً للبطل من حيث تكوينه الخُلقى والخِلقى وإنما هو مضاد للبطل من حيث وقفة كل منهما فى مواجهة الآخر دفاعا عما يراه كل منهما حقا . فأبوزيد بطل والزناتى خليفة أيضا بطل جعلتهما الظروف أعداء مع إعجاب كل منهما بالآخر فهو ليس مضادا للبطل فى المعنى العام للبطولة وإنما فى وقفته المعادية للبطل .

ولقد عبر عن أحاسيسه بصدق تجاه أبو زيد بإحساس لا يصدر إلا من بطل عظيم . فأبوزيد يقدم عليه ومعه بنى هلال وهو فى سن الثمانين بلا معين من أهل أو أصدقاء فلا أحد يسمع كلماته .

لقد كبر الزناتى وفاح الكبر من عيونه وهذا ما يسبب له الألم . فلو أنهم جاءوا له فى صغره لكان له معهم شأن آخر . وهو يعبر عن هذا الألم لابنته سعدى كما يروى النادى عثمان .

« إلا جـونى فى سن تمـانـين
بعد الكبر ما فاح من عيونى
ولاد عـمـى الـدنـيين
اشور شورتى يخلفونى »

وحين ينظر الى أبى زيد يعجب به ويقارن بينه وبين أبى زيد فى القتال ويصور شدة أبى زيد وقوة حربته التى لا يوصف لها دواء .

أنا جعلت القليد ابو زيد مركب صغيره
تريه يابنتى سفينة انا عمت فى جوارها
هزنى من الزرادية حسيت بروحى ضاعت وقعدت مكانها
هزنى من الزرادية شبه جده تجلع من درارى عيالها
أنا حربتى ناقره فى حجر

اما حربة الأمير ابوزيد متعتعه فى جبالها
انا حربتى وصفوا لها دوا
أما حربة ابوزيد قليلا دوا ليها
أنا حربتى بيضه زي اللبن
أما حربة القليد أبوزيد تشلع نيرانها

هذا الصدق لا يكون إلا من بطل عظيم لذا فليس من السهل أن نطلق مصطلح البطل المضاد على الزناتى خليفة وإنما البطل المعادى ، لأن العداء هو صفة الحالة التى التقى عليها الزناتى مع أبى زيد . فيصبح من الغريب أن يسمى أبو زيد بطلا وهو القادم لغزو تونس ولا يصبح الزناتى خليفة بطلا وهو الذى يدافع عن أرضه ..

فهو البطل المدافع عن أرضه تختلط فى نفسه الأحاسيس تجاه أبى زيد . فهو قادم ليسلبه أرضه ونفسه ومع ذلك فهو يحبه . يحبه فارسا شجاعا بطلا ويكرهه أيضا فهو يقف فى المعسكر المعادى . ولا يفتأ يعبر عن ذلك لأعز الناس لديه ابنته سعدى . فهو رجل لم ينجب ابنا وكان يتمنى أن يكون أبوزيد ابنه أو ابن عمه أو قريبا له فإن الزناتى يستطيع به أن يعارك الدنيا ويقسمها دون خوف .

أنا أحب أبو زيد يابتي واكرهه
كما الحرة متحبش الدنس فى عزالها
انا أحب ابو زيد يابتى وأكرهه
كما الفاجر منكره عوالى رجالها
انا احب ابوزيد يابتي واكرهه
كما الناقه متحبش فراق عيالها
احب ابوزيد يكون اخويا ولا ابن عمى ولا من أعز قرايبى
كنت اقسم الدنيا وأعارك قبالها
محمد نصلى عليه

أما دياب فهناك روايات تجعل منه بطلا معاديا وأخرى تجعل منه بطلا مضادا لأبى زيد ، ومن هنا انقسم جمهور المستمعين إلى قسمين ، وقف قسم مع أبى زيد والقسم الآخر وقف مع دياب ...

ولقد ربط دياب بمولد أبى زيد فقد كانت أمه عند الماء مع أم أبى زيد فهو ابن الدعوة ، والدعوة المستجابة نبوءة .

وهناك روايات تقلل من شأن أبى زيد فلا يظهر بمظهر الفارس ففى حكاية من حكايات ابى زيد فى قلب الجزيرة بعنوان «عليا وأبى زيد » .. تتحدث عنه على أنه محب شريف نظيف وزعيم معروف ومع ذلك يقتل ابن اخته عزيز بن خالد الذى سانده فى رحلته وأستطاع أن يجمعه بحبيبته فقد وجده حكيما وخاف على زعامته منه [أساطير شعبية ص ١٧٧ ـ ١٩٣ـ] وهى قريبة لرواية من روايات التغريبة (ص ٣٠) هذه الرواية لا يستطيع أن يلقيها راوٍ من جنوب مصر على جمهوره فأبوزيد فى الروايات مختلف تماماً . فهذا الرجل ليس أبازيدهم وبالتالى ليس البطل الذى يعرفون .

أما الشخص المضاد للبطل الذى يملك القدرة على الاحتيال فتمثله شخصيات كثيرة : شخصية عقبة بن مصعب من ذات الهمه وجوان فى الظاهر بيبرس .

وكثيرا ما يقف البطل المعادى موقفا متناقضا من وقفة البطل مع العدل والحق .

البطل المضاد	البطل
جســـاس	المهلهل

الحكيم سقرديون	سيف
ظـــالـم	مظلوم
الحـــارث	ذات الهمة
عقبة	عبدالوهاب
دياب	أبو زيد
جوان	بيبرس

وتلتقى شخصية المحتال سقرديون وعقبة وجوان . ويقف سقرديون ضد سيف حتى لاتتحقق دعوة نوح عليه السلام فى أبناء حام .

أما عقبة بن مصعب فهو ممثل إبليس وداعية الكفر وقد رسمت شخصيته في سيرة ذات الهمه مطابقة لشخصية المحتال مطابقة دقيقة . وقد تحدثت السيرة عن النبوءة فى مولده :

« قال الراوى : وكان عقبة قد نشأ في بنى سليم نشوء العرب ، وما كان أحد يقع له على مذهب وقد ذكروا المنام الذى رأته أمه لما أن كانت حاملا به وأنها قد فسرته على الحكماء فقالوا لها يأتى ولد شرانى يلقى الفتن بين الناس من النساء والرجال ويكون سفاكا للدماء كثير الحيل والزنا مفسدا عاصيا لرب العالمين ، فاحفظى سرك ولا تشيعيه واكتميه وإذا رزقته فاهجريه .. فعندها كتمت عالية أمر عقبة ولم يطلع على هذا الكلام أحد ولما أن ولدته لم تجد له في قلبها حلاوة الأولاد لأنها رأت آثار العلامات عليه وظهرت فيه من الصغر لأنه ما يخطى بين يديها إلا ويفسد كل شىء حواليها إلى أن كبر ونشأ فكان يلقى الفتن والشر بين النساء فى الحي وهم لا يؤاخذوه لصغر سنه » (السيرة جـ ٨ مجلد ٢ ص ٢١١) .

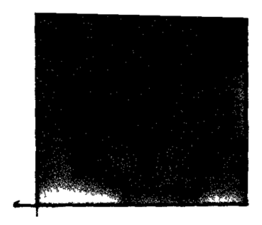
وهنا يرتبط المعادى للبطل أيضا بقوى كونية ، هذه القوى يمثل جانب الدنس فيها إبليس فيصبح البطل وقد تجلى عليه الكون برؤى تكشف الخير فيه فتحيله إلى مقدس بينما يتجلى الكون على المعادى للبطل برؤى تكشف الشر فيه فتحيله إلى دنس وإذا كان البطل قد يلد أبطالا يحملون نزعة الخير فإن الشخص المعادى للبطل قد يلد أشرارا يحملون نزعة الشر . كما حدث للأبطال من سلسلة ربيعة والد كليب والمهلهل ، وكما حدث لسيف بن ذى يزن فقد حدث أن خرج من عقب عقبة هذا شرير رجيم وهو جوان الذى وقف معاديا للبطل بيبرس وقد تنبأ بظهوره قبل ميلاده بمدة طويلة الحكيم يونان الذى سطر تاريخه على صحائف من ذهب . فجوان هو الدنس الذى يعادى الخير .

ويروى عبدالحميد يونس أنه « لولا أن هذه الشخصية هى مدبرة الشر لقلنا إن هذه السيرة أحرى بها أن تكون سيرة جوان لأن حوادث القصة كلها تكاد تكون بتدبيره ووصيته » [الظاهر بيبرس فى القصص الشعبي ص ٧٠] ..

ويمكن أن يقال ذلك على جساس وعلى دياب فهى شخصيات وقفت فى مواجهة الخير فى كل موقف من مواقف السيرة بقوة الشر فيها .

وكثيرا ما يعجز البطل عن مواجهة عدوه دون رفيق . فقوة الدنس مركزة قادرة والخير قد يخدع .. وقد يعجز عن مواجهتها بمفرده لذا فهو يحتاج الى رفيق يسانده ومن هنا فإنه كثيرا ما شملت النبوءة رفيق البطل المصاحب وقد أفرد الرواة له مكانا هاما فى روايتهم للسيرة ولمواليد البطل ...





البطل

المصاحب

وكما كان للبطل أعداء لدودون لعبوا دورا فى بناء السيرة وفى تطوير حياة البطل منذ ميلاده ، فكذلك جعلت له دورا يكبر فيتساوى مع دور البطل وقد يصغر من حيث جوهر فعله فلا يتساوى مع بطله ، ولكن معظم رفقاء البطل كانوا أبطالا ومن هنا كان من الخير أن يسمى بالبطل المصاحب بديلا عن عبارة رفيق البطل ، لأن له دورا بطوليا فى السيرة يرتبط بالبطل الرئيسى للسيرة ويدعم وجوده . وهناك قلة من الأبطال وجدوا بلا رفقاء وإنما كان قدرهم أن يواجهوا العالم بما يحملون من عبء بمفردهم ..

فالزير كان وحيدا فى مواجهة أعدائه . والصديق الوحيد الذى كان نديما له قبل أن يبدأ رحلة الثأر هو همام أخو جساس .

فتحولت الصداقة إلى عداوة وانتهى إلى أن قتله وقتل ابنيه .

لقد كان المهلهل ذاتا بمفرده وكانت ذاتا مرة لا تملك روح السخرية ولا الدعابة .

كما كان الزناتى بطلا فردا بلا صاحب يقف معه ويسنده ساعة الشدة . كان يعيش فى عالم من الأعداء خارج أسوار تونس وداخل أسوارها . يحمل مرارته فى ذاته ، لم ير أحد أسنانه ضاحكا أو مبتسما ، لم يشك فى حياته إلا مرة لابنته فى لحظة مأساوية وقد أدرك أن عرش تونس يسقط ليسلم لبنى هلال ..

لقد كانت بطولة فرد لتحمى جماعة هشة متساقطة ، بينما كانت بطولة عدوه بطولة تقف وراء الجماعة لتحميها ، ليس للزناتى من صديق سوى سيفه وفرسه فى مواجهة واقع ولى بعيدا عنه واقتربت نهايته ومع ذلك فقد ظل يعيش بكبرياءه وعظمته بينما كان لأبطال آخرين رفقة قاموا بدور البطل المصاحب .

البطـل	البطل المصاحب	
عنترة	شيبوب عبد	اخوه
ذات الهمة	مرزوق	عبد
ابو زيد	قمصان	عبد
عبد الوهاب	محمد البطال	حر
بيبرس	جمال شيحه	حر
سيف	عاقصة جنية ـ اخته فى الرضاع	

والبطل المصاحب قد يكون إنسيا وقد يكون جنيا . فقد لعبت الجنية عاقصة أخت سيف فى الرضاع دور البطل المصاحب له ..

وقد أثار وجود الجنية عاقصة اختا لسيف فى الرضاعة خيال المتلقى، فقد كان وجودها مسليا ومثيرا وقد برر الراوي هذه العلاقة :

« وكان فى ذلك الزمان وذلك العصر والأوان الأنس يصحبون الجن ، والجن يصحبون الإنس ويتحدثون معهم ولا يفزعون منهم ولا يمنعون بعضهم عن بعض ويظهرون على وجه الأرض إلى زمن ظهور سيد الملاح ورسول الملك الفتاح سيد الأنام ورسول الملك العلام الذى ظهر من بين زمزم والمقام وأبطل السحر والكهانة ببركة الشفيع فى العصاة يوم القيامة محمد « صلى الله عليه وسلم »(السيرة م . ١ ص ٤٧)

كانت عاقصة بقوتها الكونية قادرة على إنقاذه وإنفاذ أوامره ، وهى مختلفة فى تكوينها عن شخصية الجن المعروفة لدينا فى خاتم سليمان أو القمقم فإنها شخصيات فاقدة للحس قوية قادرة كانت فى الخاتم تؤمر فتطيع وفى القمقم شخصية مرة تؤمر فتطيع ولكنها حاقدة ، أما شخصية عاقصة فهى تملك قدرة كونية كما أنها صاحبة مشاعر يمكن أن نطلق عليها مجازا مشاعر إنسانية .

أما شخصية البطل من الإنس فهى تنقسم إلى قسمين . عبد وحر !

أما العبد فهو شيبوب ومرزوق وقمصان وقد لعب وضعهم الاجتماعى دورا فى تقليل شأنهم فى السيرة فكان شيبوب تابعا لأخيه عنترة لم يرتفع ليكون بطلا . كان يفكر ويدبر ويساعد أخاه ولكنه لم يرتفع لدور محمد البطال أو دور شيحة فى السيرة .

أما مرزوق فقد لعب دور الخادم . لم يكن صاحب فكر ولا حيلة ولا قوة لقد ولد معها وربتها أمه فكان بذلك أخاها فى الرضاعة ولكنه تحول إلى عبء عليها ، ويساعد الحارث عدوها وزوجها وابن عمها فى النيل منها فقد سقاها منوما أدى إلى أن يدخل الحارث عليها .

ولم يكن حظ قمصان كبيرا مع بطله أبى زيد . لقد كان أبوه عبدا لرزق . ولقد ولد معه وصحبت أمه والدته فى رحلة غربتها لذا فقد تربى معه وولد ابنه مع الأيتام في غربتهم ولكن حظه فى السيرة لم يكن كبيرا فلم يرتفع فيها ليكون بطلا حقيقيا . ولقد ولد قمصان فى يوم ميلاد أبى زيد ولم يخرج عن الدور الذى حدد له من أن يكون العبدالمخلص لسيده حتى إنه كثيرا ما يختفي ولا يظهر ا أثر فى النص . وكثيرا ما يبرز فجاءة .

كأن ينادى أبو زيد .

« ياقمصان هات لى الشحتان » أى الفرس

ولم يكن جمهور الراوى الشعبى فى حاجة إلى أن يتقبلوا تطويرا لشخصية قمصان . ولقد ذكر النادى عثمان أنه كان يغنى السيرة فى قرية « المطاعنة » جنوب الأقصر فى منتصف الطريق بين أرمنت وإسنا وكثير من أهل هذه المنطقة يرون أن لهم علاقة بالزناتى خليفة فهم زغابى . أخذ النادى عثمان يتغنى بخروج أبى القمصان لملاقاة الزناتى خليفة ومنازلته فى ميدان القتال

خليفة نادم ياقمصان
سود الليالى تعيبك
يافطيس يا شراية المال
راح فين أبوزيد سيدك
ورد علـيه قمصـان
أبو زيد سيدى مالك بيه
يابو العمامة النضيفة
إن كان ع الحرب خليه
أنا كفوكم يا خليفة

وإذ بواحد من المستمعين يقترب منه وقد ظهر على وجهه الغضب وبان فى عينيه عدم الرضا وقال له

يا أخى قبلنا أن ينازل أبوزيد الزناتى خليفة فهو ابن الشريفة خضرة وبعدها تترك عبدا ينازله .

وهنا استمر النادى عثمان فى غنائه معلنا رفض الزناتي خليفة أن ينازل العبد قمصان ويعود قمصان ليصر على ملاقاته وهو يقول : « العبد بيحارب على حس سيده »

وضعه النادى فى حجمه الذى يريده له الجمهور . من هنا امتزجت فى شخصية أبى زيد شخصيتان . شخصية البطل المقاتل وشخصية المحتال .. امتزجتا امتزاجا كاملا فكان أبـو زيد بطـلا داخله محتـال أو محتـالا داخله بطل فكان البطل :

ذات + ذات = أبوزيد .

فهو صاحب جراب الحيلة المتنكر فى أكثر من ثوب وهو يحمل معه منطقة جابل المتحكمة فى الجان وهو أيضا الإنسان البطل : ولقد عبر عن أزمته فى حديثه عن نفسه أمام الزناتى خليفة !

أنا من يوم ما خضرة جابتنى
مرضعت لبن الهمايل (لم يرضع لبنا غير لبن أمه)
ولا يوم هيه نططتنى
ولا بت ع الفرش نايم
من يومى ما بزرع زرع
ولا غزّ النقيلة بإيدى
ولا حيلتى إلا الشر
سوق الغفاليق عيدى

لقد عاش شيبوب مع عنترة وعاش مرزوق مع ذات الهمة وعاش قمصان مع أبى زيد ولكن الجمهور حكم عليهم ألا يتجاوزوا الدور الذى حدد لهم عبيدا ، يعيش كل منهم مع سيد هصور .

وإن كان شيبوب أكثر حياة منه فى نص سيرة عنترة فهو أخوه من أمه وصاحب العقل المدبر لحركة عنترة يوجهه للدفاع عن حقه مع قبيلته ويدبر له حين ينقاد عنترة وراء عواطفه .

أما عمر العيار ومحمد البطال وجمال شيحة فقد لعب كل منهم دورا خطيرا لا يقل عن دور البطل الأصيل للسيرة .
ولقد ولد عمر العيار فى يوم مولد الأمير حمزة ، مع ثمانمائة طفل آخر ، من أب عبد ولكنه خص بنبوءة بزرجمهر التى تجعل منه أقرب المقربين لحمزة فقد قال للأمير ابراهيم والد حمزة :

« ليكتب هذا الغلام من رفاق ابنك حمزة ويكون له ساعدا قويا عند ضيقانه ويخلصه على الدوام عند وقوعه فى الشدائد والمصاعب فخذه وربه مع ابنك واعتن به كل الاعتناء فهو عصا ابنك يتوكأ عليها فى حياته ويحتاجه فى كل أوقاته وكان وجه هذا الغلام صغيرا مستديرا . صغيرة جدا مستديرة كأنها الثقوب ويديه ورجليه صغيرة دقيقة أشبه بالخيطان

لأنه لم يكن كامل البنية فأجاب الأمير طلب الوزير ودفع الغلام الى المراضع ليكون على الدوام مع ولده وقد سماه عمر وهو عمر العيار ويكون عيار الأمير » .

وقد لعب دورا خطيرا فى حياة حمزة البهلوان كان ساعده الأيمن وصاحب الحركة السريع الواقف بجوار سيده فى كل خطوة يصاحبهم الأطفال الذين ولدوا يوم مولد الأمير .

أما محمد البطال فقد أضيف أسمه على نص سيرة ذات سيرة ذات الهمة على أنه أحد أبطالها فى إحدى طبعاتها ، فيكتب العنوان هكذا .

« سيرة الأميرة ذات الهمة وولدها الأمير عبد الوهاب والأمير محمد البطال وعقبة شيخ الضلال وشو مدرس المحتال » .

لم يذكر أن محمداً البطال ولد مع الأمير .. وإنما ذكر أنه كتب فى ديوان المجاهدين دون أن يكون مجاهدا ، فهو لم يحضر قط حربا ولا طعنا ولا ضربا لأنه كثير الفزع والهلع زائد القذارة والكسل ، مقعد لا يقدر أن يقوم على قدميه وإن أكل يكسل أن يحرك فمه وشفتيه وإن بال بال على أذياله وإن تكلم سال رياله يفزع من الماء إذا سر ومن الثور إذا ثار ، وكلما زقزق الفار فى الدار يهرب فى ثياب أمه ويقول هذا من العار . ومن جملة كسله أنه إن كان نصفه فى الظل والنصف الآخر فى الشمس وهو نائم يكسل أن يزحف من الشمس إلى الظل .. [السيرة م ٢ ، جـ ٨ ، ص ٣٠٠] .

ولقد فقد والده الأمل من أن يصبح فارسا فوجهه إلى القاضى عقبة رأس أهل الشقاء ليتعلم منه .

فكان أن عنى به عقبة واجتهد فى تعليمه وإتقانه والاعتناء به ليل

نهار فكان كلما لقنه الفقيه عقبة شيئا يحفظه .. وما يحفظه الأولاد فى شهر يحفظه فى يوم واحد والقى الله فى ذهنه الفهم والفطنة .

وكأن الحق أمات نفسه الحيوانية وأحيا نفسه الروحانية [ص ٣٠١] تم له ذلك على يد عقبة ليتعلم من عالمه فيكون عليما بالشر ويكون هو الشخص المختار ليواجه شرور الشيطان المتمثلة فى عقبة ..

ولقد ذهب إلى القتال فإذا به يخشى عليه وصار لا يعرف ما بين يديه من شدة الخوف والفزع ثم تمالك البطال نفسه بعد أن انقذ من سهم أصاب ثعبانا عظيما فلما رأى ذلك زال منه الخوف والحذر وتحرك فى المعركة شخصية جديدة ليصبح أحد أبطال المسلمين يمدهم بمشورته ويساعدهم .

فكان ذلك يومه الأول صاحب قوة وصاحب خيل وهنا قام الأمير عبدالوهاب وقال ياسادات العرب وذوى الرتب اشهدوا علىّ أننى خاويت أبا محمد البطال وأنه أخى فى الدنيا والآخرة بعدما تصافحا وانني أولى به من غيرى [ص ٣١٧] ولقد اصبح منذ هذه اللحظة فى السيرة مزاوجا لشخصية عبدالوهاب ومقابلا لشخصية عقبة .

يواجه الأمير القوة إذا احتاج وبالدهاء الذى تعلمه من عقبة يرد على عقبة مطاعنه وشروره ويصبح دوره فى هذه السيرة لا يقل عن دور عبدالوهاب وعقبة مجتمعين إلا أنه تظل لعبدالوهاب تلك القوة البدنية التى لم تكن تستغنى قط عن عقل البطال ودهائه .

ويرث جمال شيحة فى سيرة بيبرس شخصية البطال فى سيرة ذات الهمة ويرث نفس دوره فيها فتصبح علاقة جمال ببيبرس موازية لعلاقة البطال بعبدالوهاب وكما كان البطال واقفا لعقبة

بالمرصاد مبطلا ألاعيبه الشيطانية ، فإن جمال لعب نفس الدور مع حفيد عقبة جوان .. كان ذلك هو قدره الذى سجله إينان بن يونان على صحائف من فضة .

وهكذا فإن ثلاث شخصيات كل منها ترتد إلى الآخر وتتطور عنه ؛ عمر العيار ومحمد البطال وجمال شيحة وكل شخصية من هذه الشخصيات تعيش ببطل آخر تخدمه ولا تستغنى عنه ولا يستغنى عنها لتكتمل صورة البطولة . وإذا كان البطل حين يوجد كثيرا ما كان يصاحبه فى ميلاده رفيق فى رحلة بطولته فإن السيرة اهتمت اهتماما كبيرا بالحديث عن نسب البطل قبل مولده لتحقيق نقاء نسبه .. فالبطل الأول للسيرة لابد أن يكون كريم النسب ..





نسب

البطل

يدخل نسب البطل فى النسيج العام لبنية السيرة الشعبية فى فصلها الأول :

ولاتكاد تخلو سيرة من السير الشعبية العربية من الاهتمام بنسب البطل ، فقبل أن تتكلم عن البطل ترسم صورة لميراثه العرقى والنفسى من خلال العناصر المكونة لهذا التراث ، فالبطل لا يقود جماعته من هامشها العرقى ، وإنما يقودها وهو من صلبها ومن أعرق أعراقها .

وهذه ليست قاعدة تفردت بها السيرة الشعبية وحدها ، فأقدم نص لسير من السيرة العربية معروف لدينا هو سيرة ابن هشام التى تروى سيرة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم . ويستغرق الحديث عن نسبه (ﷺ) وآله من الصفحة الأولى حتى الصفحة الثامنة والخمسين بعد المائة (١٥٨) ، وهى الصفحة التى تتحدث فيها السيرة بالتفصيل عن مولد الرسول الكريم (ﷺ) فتروى رواية ابن اسحاق ورواية قيس بن مخرمة ، ورواية حسان بن ثابت (السيرة ص ٥٩) ، ثم فى الصفحة التالية لها نسب حليمة ونسب أبيها ، ونسب والد الرسول (ﷺ) فى الرضاع فالدم الزكى المتوارث لرسول الله صلى الله عليه وسلم يجب ألا يدخله لبن غير زكى .

ولو تركنا سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى سورة سيدنا يوسف عليه السلام لوجدنا إنها تحكى سيرةَ حياته .. ومع أن السورة كانت تهدف إلى توضيح العلاقة بين يوسف عليه السلام وإخوته (لقد كان فى يوسف وإخوته آيات للسائلين) (١٢ ك ٧) إلا أن الآيات عرضت لقصة يوسف عليه السلام كاملة ، وفى الآيات الأولى تحدثت عن نسبه عليه السلام بايجاز وإحكام دون إطناب أو تفصيل ، وكشفت عن نسبه الطاهر من حديث والده إليه (وكذلك

يجتبيك ربك ، ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم واسحق . إن ربك عليم حكيم) (١٢ ك ٦) . وبعد أن كشفت الآيات عن نسبه وميلاده الطاهرين حكت بعد ذلك الأحداث التى تقود يوسف عليه السلام نحو تحقيق الحلم ، وجميعها رسم ليوضح سيرته .

لقد اتخذت السيرة الشعبية مسارا واضحا يحدد نسب أبطالها ، فهى تارة توجز ، وتارة أخرى تسهب ، فهناك أبطال لم تتحدث السيرة الا عن آبائهم مثل الأمير حمزة البهلوان والأمير سيف والظاهر بيبرس . وقد تفصل فى الحديث عن نسب البطل كما حدث للمهلهل وعنترة وذات الهمة وأبى زيد الهلالى سلامة .

والإيجاز والإسهاب فى ذكر نسب البطل يرجعان إلى الظروف التى وضع فيها ، فإن كان البطل ابن ملك فى حاضره لا يحتاج إلى تناول نسبه بالتفصيل ، فحمزة وسيف وبيبرس أبناء ملوك .

أما إذا كانُ البطل قبليا فإن السيرة تكشف عن نسبه وقد تستمر فى سرد النسب إذا خرج من صلبه أبطال تمتد بهم السيرة ..

تذكر سيرة حمزة أن والده هو الملك إبراهيم حاكم مكة . وليس هناك مكان أشرف لدى المسلمين من مكة ، ففيها بيت الله الحرام ، وهى مهبط الوحى ومهد الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم . ولذلك لم تفض السيرة فى الحديث عن هذا النسب إذ يكفى أنه ابن أمير مكة ليكون من أشرف الناس نسبا وأعلاهم حسبا .

أما سيف بن ذى يزن فقد تحدثت السيرة عن والده كثيرا حتى قتل قبل أن يولد سيف ، فهو ابن يزن ملك اليمن وأكبر ملوك الأرض

طرا ، وليس راوى السيرة فى حاجة إلى أن يتحدث عن نسبه بأكثر من ذلك . ويذكر فى عنوان نسخة السيرة أنه من سلالة التبع حسان ، وقد ذكر فى الملحمة الكبرى للتبع حسان وهو يخاطب كليبا :

« وسيف ذو يزن سيظهر وتصحبه السعادة فى العباد »
(قصة الزير ص ٢٥) .

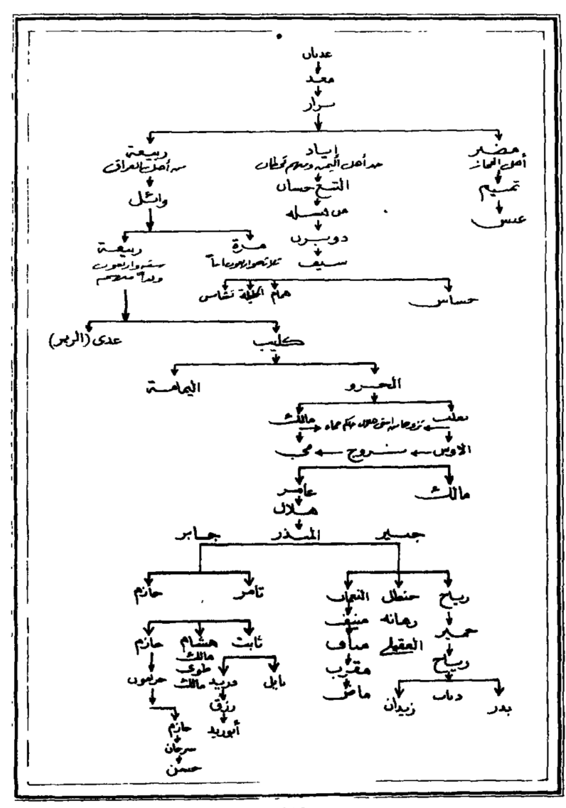
وذكر القاص الشعبى أن بيبرس ابن ملك خوارزم القاف شاه جمك . وأمه الأميرة أبق . فهؤلاء الأبطال أبناء الملوك .

أما الابطال من غير أبناء الملوك فإن نسبهم قد امتد ، ليؤكد نقاء دمائهم وصفاء شرفهم ، فعنترة المختلطة دماؤه بين الرجل العربى السيد وبين المرأة الحبشية المستعبدة ما كان يمكن أن يتركه الراوى دون أن يغوص فى نسب أبيه ونسب أمه ، فأبوه سيد من سيد سادات عبس . وقد بدأ حديثه عن العرب منذ جدهم الأول إبراهيم عليه السلام وانساق بعد ذلك ليتحدث عن ابنه اسماعيل عليه السلام ، وكيف تناسل العرب من أولاد قيدار حتى عدنان ثم معد فنزار ، وأنمار (ص ٥٣) وجعل من نزار والدا للعرب جميعا دون استثناء فهو أبو إياد جد العرب . كما أنه أبو ربيعة ومضر وأنمار . وهو جد النبى صلى الله عليه وسلم وقد جعل نور سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بين عينيه ، وانتهى إلى الحديث عن نسب ملكهم وهو أحد ابناء عمومة شداد بن قراد والد عنترة ، فهو زهير بن جذيمة بن رواحة بن قطيعة بن عبس بن غفلان بن معد ابن عدنان وقد سقط اسم نزار فى هذه السلسلة ، وربما يكون ذلك خطأ مطبعيا أو إغفالا من الناسخ للاسم لذكره قبل ذلك ، فعنترة يلتقى مع الملك فى الجد الرابع وهو عبس أما والدته فهى أميرة من أميرات الأحباش سبيت فأصبحت أمة حتى سباها والده .. وأنجبت منه بشهادته وشهادة أصحابه عنترة .

وقد استغرق الحديث عن نسب ذات الهمة وتاريخ آبائها الأجزاء الستة التى يتكون منها المجلد الأول الذى ينتهى قبل أن تولد ذات الهمة ، ويبدأ الحديث عن والدها وعنها فى الجزء السابع فى المجلد الثانى .

وذات الهمة ، كما يوضح نص السيرة من بنى كلاب ، فهى ابنة أبطال مغاوير مشهورين من بنى كلاب ، فجدها الأكبر : الحارث الكلابى الذى أنجب البطل جندبة ، والأخير أنجب الصحصاح ملك العرب ، وأنجب الصحصاح مظلوما ، وأنجب مظلوم ظالما وفاطمة ، فأنجب ظالم الحارث ، وأنجبت فاطمة عبدالوهاب .

ونسب أبى زيد الهلالى سلامة يجمع عدة حلقات من حلقات النسب ، حلقة تمثل اتصال نسبه بالجد الأكبر للهلالية وهو هلال ، وحلقة أخرى تمثل اتصاله بجد هلال الأكبر الجرو بن كليب وابن أخى المهلهل ، وحلقة ثالثة تصل هذا النسب بعدنان ، الجد الأكبر للعرب .. وجزء من سلسلة النسب هذه يؤخذ من رواية سيرة الزير سالم المطبوعة . والجزء الباقى يؤخذ من سيرة بنى هلال المطبوعة .. وقد استند عليها عبدالحميد يونس فى إيراده للنسب الشعبى لبنى هلال (الهلالية ص ١٠٢ ـ ١٠٣) كما استند إليها شوقى عبدالحكيم (سيرة بنى هلال ص ٧٦) وفيما يلى محاولة لوضع خريطة توضح نسب أبى زيد وأجداده حتى عدنان :



عدنان
معد
نزار
مضر
أهل الحجاز
تميم
عبس
إياد
التبع حسان
دوبن
سيف
حساس
همام
تشاس
ربيعة
من أهل العراق
وائل
مرة
ربيعة
عدى (الزير)
كليب
اليمامة
الجرو
ثعلب
مالك
الاوس
سروج
محب
مالك
عامر
هلال
جابر
المنذر
جبير
حازم
تامر
رياح
حنظل
النعمان
منيف
ريحانة
حميد
مناف
العقيلي
ثابت
هشام
حازم
مالك
طوق
مالك
مايل
دريد
ذياب
زيدان
بدر
ماضي
رزق
أبو زيد
حازم
سرحان
حسن

ونسب أبى زيد فى هذه الرواية يختلف إلى حد كبير عن نسبه فى الروايات الشفهية ، فالحلقة التى تربطه بكليب لم أسمع راويا من الرواة الشعبيين الذين استمعت اليهم من رواة الوجه القبلى يتحدث عن هذه العلاقة . فهى علاقة مرتبطة ارتباطا كبيرا بمدون واحد . هو الذى دون سيرة المهلهل المتداولة فى العالم العربى دون غيرها من السير التى تناولت المهلهل . ونفس الناسخ الذى دون سيرة بنى هلال إذ تبدأ عبارتها الأولى بالعبارة التى ختمت بها سيرة المهلهل واستمرت فى الحديث عن أخبار الأمير هلال وأبنائه من بعده ، بما يوضح أنه يعتمد على رواية واحدة للسيرتين ، فهما تبدوان وكأنهما سيرة واحدة دونت فى جزئين ، الأول سيرة الآباء والثانى سيرة الأبناء ، وهى الرواية التى تلتقى مع رواة الوجه البحرى الشاعر فتحى سليمان والشاعر على الوهيدى .

ويخالف النص الشفوى النص المكتوب فى تحديد نسب أبى زيد الهلالى . فهو فى الأخيرة لا يتعدى ذكر الجد الثانى ، فهو أبو زيد بن رزق بن نايل بن جرامون من بنى هلال .

وتتفق روايات عبدالظاهر وعوض الله وعبدالسلام حامد على أن سرحان أخو رزق ، كما تتفق على أن القاضى فايد ابن عمهم فهو ابن بدير ، ومن هؤلاء الثلاثة تتكون قيادة الجماعة الهلالية ، ويخرج من أصلابهم حسن بن سرحان أمير بنى هلال وأبو زيد بن رزق الزعيم وبدير بن فايد القاضى .

ولا تشير السيرة الشفوية لعلاقة بين أسرة أبى زيد وأسرة دياب ، فدياب من الزعابى والزغابى من حمر اليمن . وتذكر الروايات الشفهية أن غانما والد دياب ترك قومه وقد طرده أحد أبناء عمومته وهو الزناتى خليفة عندما كان فى اليمن قبل أن يرحل إلى تونس ، فخرج بمن معه والتجأ إلى بنى هلال واستقبلوه بترحاب ، وأصبح حليفا لهم له حقوق الهلاليين وواجباتهم وتربى ابنه دياب

وتذكر سيرة بني هلال المطبوعة أن ديابا تزوج بنت القاضى فايد فأنجبت له ثلاثة أبناء : بدرا وديابا ، وزيدان (السيرة : ٣٩) كما تذكر التغريبة أن الأمير حسن تزوج بأخته .. وتجمع الروايات الشفوية التى معى لاتذكر له ابنا يسمى بدرا كما يذكر الحاج عبد الظاهر أن زيدان ليس أخا دياب . وإنما ابن عمه ، فهو زغابى ، وأنه ابن أخت أبى زيد فى الرضاعة أى أن شيحة أخت أبى زيد قد أرضعته وكان يناديه بالخال وحاول أن يدافع عنه أمام دياب فى فصل السيرة الأخيرة (الأيتام) .

ونتيجة لاختلاف نسب الهلالية عن نسب دياب ، فالهلالية عرب حجازية والزغابى عرب يمنية ، فقد خشى الهلالية أن ينضم دياب إلى الزناتى خليفة فى حربهم معه ، فتركوه يرعى الإبل ثم طلبوه عندما تبين لهم أنه حانت لحظة مقتل الزناتى خليفة بعد أربع وعشرين سنة من المعركة فرفض فدفعت الجاذ بحليفه عامر الخفاجى لأن يدخل المعركة ليقاتل الزناتى خليفة وهى تعرف أنه ليس كفؤا له وأن الزناتى لاشك قاتله ... وفعلا قتله .. فلما سمع دياب بذلك عاد لينتقم من قاتلى خليفة ، عاد وقد أصبح هناك ثأر جديد بينه وبين الزناتى خليفة .

أما أم أبى زيد فهى خضرة الشريفة بنت الشريف قرضة حاكم مكة ، فقد اقامت السيرة المطبوعة علاقة نسب بين والدها الشريف قرضة بنى هلال فجعلته هلاليا ، فعندما سأل الأبشع عن حاكم مكة « قالوا له : قرضاب الشريف بن هاشم وهو من بنى هلال » (ص ٢ السيرة) وتختلف جميع الروايات الشفهية التى بين يدى فى هذا فلا تجعل علاقة نسب بين بنى هلال وبين الشريف قرضة ، فهو من نسل الرسول عليه الصلاة والسلام . ولقد اكتسب أبو زيد علاقته بالرسول من خلال والدته .

ولقد اختلف فى الطريقة التى تزوج بها رزق الشريفة خضرة أم أبى زيد فقد ذكرت سيرة بنى هلال المطبوعة أن قرضابا استنجد ببنى هلال ليقفوا معه ضد الأبشع ملك الروم الذى ينوى غزو مكة . فذهب بنو هلال وعلى رأسهم رزق بن نايل حتى تقابل الفريقان فأعلن الشريف قرضة جائزة لمن يقتل الأبشع الزواج من ابنته خضرة فطمع رزق فى الزواج منها فنزل لملاقاة الأبشع فقتله وهزم الروم وتشتتوا فى البرارى ورجع الأحياء منهم إلى بلادهم .

وتتفق رواية عبدالسلام حامد مع هذه الرواية وهو يبدأ السيرة بفصل يسميه من نجد إلى مكة ، وفيه يذكر أنه ذهب إلى مكة مع مئتى فارس ليصلى هناك فرض الإله . وهناك وجد الأعادى يحيطون بالمدينة يطلبون من حاكمها الشريف قرضة الجزية ، فحاربهم رزق وهزمهم ومكث ضيفا عند الشريف لعدة أيام وحين عودته أعطاه ابنته الشريفة خضرة ففرح بها كثيرا وعاد بها إلى أهله . ولا تخرج رواية عبدالرحمن فيقة كثيرا عن ذلك إلا أنها لا تجعل الحرب فى مكة نفسها وإنما تنقلها إلى الشام ؛ فقد ثار أهلها على شريف مكة ، فأرسل إلى ابى على أمير بنى هلال لينجده ، فبعث إليه برزق الهلالى ومعه ثلاثون فارسا من بنى هلال ، وزوج الشريف ابنته من الأمير رزق ..

وتختلف بقية الروايات الشفهية عن هذه الرواية فلا تذكر أن رزقا حارب فى مكة . تبدأ رواية عرب الشوا بلحظة أُمْنية أنده (خضرة) أم أبى زيد ، أى أن زواج رزق تم عن طريق الصدفة ، وليس عن طريق تدبير سابق . ورواية الحاج عبدالظاهر فى جملتها الأولى بعد التعريف بزعامة رزق بن نايل لقبيلته تتحدث عن زواجه من خضرة الشريفة .

وبدأت كذلك رواية عوض الله عبدالجليل برغبة رزق فى أن يتزوج حتى ينجب ، فحدد له الهلايل الزوجة .

« قالوا الهلايل هم فرسان تمام
بنت الشريف قرضه من الناس التمام
نسبة نبينا المصطفى عليه السلام
بنت الشريف قرضه ملك فى حماه

وقد فصلت رواية عوض الله بهذا الزواج تفصيلا دقيقا يكشف مكانة الشريف قرضة ومدى إعزازه لابنته . وقد وقعت الرواية هذا الحديث توقيعا شعريا مثيرا ، فقد قسمت مطالبه الى قسمين : قسم يقدم للخدم والسعاة ، ثم خزنة ذهب مهرا لهذه الشريفة يماثل مهر أمها :

« قال الشريف قرضه انا عاوز اربع تلوف
وخمسميت هايج وميتين كلاه
وخمسميه من خيار الخيول
وربعميه لجل شيل الحمول
دوله ودوله يا ذوات العقول
كلوا طميعه للخدم والسعاة
كلو طميعه للخدم والعبيد
فى مهر خضره اللى لقاها سعيد
وميتين حبشيه من ارض الصعيد
وميتين مملوك يجبنا هناك
وميتين مملوك تاجى تسد الطلب
تخدم الامارة عالية الرتب
ومهر خضرة فى المال خزنة ذهب

لو كان بدك ياهلالى دايرع النسب
انا ليلة الدخله على العشا
فى مهر خضره اللى جات م الحشا »

وإذا كانت سلسلة نسب البطل قد كشفت عن رؤية للعالم المحيط به والعالم الذى خرج معه والعالم الذى يمكن أن يواجهه ، فإن لحظة ميلاد البطل فريدة فى الزمان ، فالكون يستقبل بطلا ويحتفى به فى عدة مظاهر غريبة توضح أنه مرتبط بقوى ما وراء الطبيعة منذ اللحظة الأولى التى يواجه فيها هذا العالم ، فساعة الميلاد جزء مهم فى بنية السيرة وفى بنية البطل ..





الميلاد

هناك كثير من النظريات التى تتحدث عن البطل وميلاده ، وجميع هذه النظريات تربطه بالأسطورة برباط وثيق ، وكثيرا ما تربطه هذه النظريات بالشمس فتعد "الميلاد الجديد للبطل هو الشمس الشابة المشرقة من السماء ، تواجه أولا بالسحب المنخفضة ولكنها فى النهاية تنتصر على جميع العقبات (The Myth of The Birth of The Hero, "P.7.") . وهناك من يعترض على هذا التفسير فيربط جميع الأساطير فى أصولها بالقمر . وفكرة ارتباط الأساطير بالقمر قد أخذت فى الشيوع (Ibid.) . ولقد ربطت جميع الشعوب الأولية والمتحضرة فى العصور القديمة والوسطى وبعض الأمم فى العصر الحديث ميلاد أبطالها بالأسطورة "فتاريخ الميلاد والحياة المبكرة لهذه الشخصيات غلفت بوجه خاص بملامح وهمية" (P.3.) . وكل ذلك لا ينطبق على شخصية البطل فى السيرة الشعبية العربية ولا على تفسير مولده عند عامة المتلقين للسيرة . وبطل السيرة الشعبية ارتبط بكثير من المعتقدات الشعبية ولكنه لم يصبح جزءا من عقيدة العامة ، هذا إذا استثنينا الأبطال الدينيين الذين يميزهم عامة الشعب عن غيرهم من الأبطال من أولياء وقديسين . وهؤلاء لا يمكن تفسير الأساطير المتعلقة بهم بالشمس أو القمر ، فقد حددت القوى الكونية المتصلة بالبطل سواء أكانت معه أو ضده ، فأصبح الخضر عليه السلام يقوم بدور من أهم الأدوار الكونية فى بعض السير ، كما استبدلت الآلهة اليونانية بقوى الجن . وتدخل السحر ليلعب دورا هاما فى أحداثها . ومع كل ذلك فلم يخرج البطل عن دائرة البشرية والتزيدات الأسطورية التى قبلها العامة ، هاجمها كثير من العقلانيين من علماء المسلمين . مما جعل علاقة البطل بالأسطورة لا تخرجه عن دائرة بشريته .

ولقد حدد لورد راجلان نمطاً للبطل يتمثل فى اثنين وعشرين عنصرا يرتبط البطل بها أو بمعظمها . وقد طبق هذا النمط على

واحد وعشرين بطلا من حضارات مختلفة ، وكان أكمل بطل انطبق عليه هذا النموذج هو أوديب وكان أقل الأبطال الذين طبق عليهم هذا النموذج قد تحقق فيه أحد عشر عنصرا . ولا يمكن تطبيق هذا النموذج كاملا على أى بطل من أبطال السيرة الشعبية العربية ، فهناك عناصر لا يقبلها المعتقد العام للإنسان العربى كأن يكون البطل من أم عذراء أو أن يعد ابنا للإله ، فهذا يخرج عن دائرة العقيدة الى الكفر كما أنه فى البناء العام كثيرا مالا تذكر وفاة البطل ، وبالتالى فالعنصر الخاص بوفاته من فوق تل غير متحقق وكذلك العنصر الخاص بوفاته . وهناك عنصر آخر يذكره راجلان وهو أن أبناءه لا يخلفونه ، وهذا متضاد مع واقع بطل السيرة الشعبية العربية ، فأبناؤه فى حالة وفاته يحلون محله وفى حالة عدم وفاته يظهرون كمن يحتلون مكانته .

وهذه الاختلافات الكثيرة بين العناصر التى ذكرها راجلان فى نموذجه وبين بطل السيرة العربية ، لا تنفى أن هناك أوجه اتفاق جديرة بالتسجيل ؛ ومن أهمها الظروف الخاصة بميلاد البطل ، فهى ظروف غير عادية ، وهذا ينطبق على جميع أبطال السير العربية دون استثناء .

ولقد حاول شكرى عياد أن يطبق هذا النموذج على أبطال من العرب وغير العرب (أنظر ، البطل ص ١٢٠ ـ ١٢٧) .

وعلى كل فإن هناك الكثير من التفسيرات الاجتماعية والنفسية والأسطورية التى تفسر البطل وميلاده . وأرى أن البطل الشعبى فى أدب أمة من الأمم هو نتاج لواقعها الاجتماعى ومن أهم عناصره السياسة ، وواقعها الثقافى ومن أهم عناصره الدين ، فالبطل هو نتاج لهذه الخلطة ممتزجة امتزاجا تاما . وليس البطل الشعبى فى السيرة الشعبية العربية بدعا بين أبطال السير فهو تعبير عن الجماعة التى أبدعتها . ولما كانت ظروف الأمم تختلف

من أمة لأخرى فإن الخلافات بين أبطال السير فى الأمم المختلفة يرد الى هذه الظروف الاجتماعية والثقافية . كما أن التشابه بين بنية هؤلاء الأبطال يرد الى عناصر التشابه فى البنية الاجتماعية والثقافية . وهذا يفسر لنا عناصر التشابه فى بنية البطل بين الأمم المختلفة دون وجود أخذ مباشر أو غير مباشر .

وعلى كل فهذا البحث محاولة لاستقصاء لحظة ميلاد البطل فى السيرة الشعبية العربية ، فهى لحظة هامة فى حياته وحياة الجماعة التى ينتمى إليها ، فلحظة الميلاد تفصل مابين مرحلتين من مراحل حياة البطل ؛ مرحلة ماقبل ميلاده ، ومرحلة مابعد ميلاده . ومرحلة ماقبل الميلاد تتجمع كلها لتتمركز فى لحظة الميلاد لتصبح جميع أحداث السيرة قبل الميلاد (الإنارة) التى تتحرك لترسم صورة عالم البطل قبل مولده . وبعد الميلاد تأتى مرحلة جديدة يصبح فيها البطل مركز الأحداث . ويتطور الحدث العام للسيرة للأمام ، وقد أخذ شكله الطبيعى مستقرا عند ذات البطل ، ليكون صانع الفعل منمى الأحداث . وفى لحظة ميلاد البطل يتأكد تفرده فى عالمه وغالبا ما يكون هذا الميلاد غريبا على المحيطين به مصاحبا بمظاهر عجيبة .

وليس هناك سوى قلة من الأبطال لم تذكر السيرة شيئا عن ميلادهم ، وهؤلاء الأبطال هم الزير سالم والزناتى خليفة والظاهر بيبرس . وقد ظهر الزير سالم فى السيرة وهو ابن العاشرة ، واهتمت السيرة بطفولته أكثر من اهتمامها بميلاده ، وربما يرجع هذا الى أن السيرة المطبوعة هى بقية لسيرة أكبر ، أى أن السيرة التى لدينا مفتتة عن سيرة كانت أشمل منها .

وروايات السيرة الشفوية للزير سالم تهتم به منذ أن وقف ضد مؤامرات زوجة أخيه الجليلة وأهلها لمحاولة قتله . أما الزناتى خليفة فقد برز دوره منذ اللحظة التى هاجم فيها الأشراف وقتلهم

فى تونس ، لتبدأ رحلة جبر القريشى حاكم تونس السابق إلى بنى هلال ليساعدوه على الثأر من الزناتى خليفة . وهنا يبدأ دوره فى مواجهة أبى زيد الهلالى وجميع أبطال بنى هلال وحلفائهم .

ومع أن السيرة المروية التى بين أيدينا لا تهتم به قبل ذلك فهى تذكر أشياء عنه فى صلب مواجهته مع الهلالية ، تستعيد بها لحظة ميلاده الأولى بأنه ولد بضلع واحد كاللوح ، وأن جرحه يطيب على الندى . ويروى النادى عثمان عنه أنه :

ابو ضلع واحد كما اللوح

جرحه يطيب ع الندى

وهذه العبارة نفسها تدور عند عوض الله عبدالجليل وعند معظم رواة السيرة ، لكن كيف ولد وكيف كان حاله وحال أمه وإن ذكرت رواية أنها جنية غير أن هذا لا يهتم به الراوى كثيرا ، وربما كان لمولده فصل مستقل من فصول السيرة ، ولكن الروايات التى بين أيدينا لا تفرد له هذا الفصل ، هذا مع ضرورة التنبيه ألا يغيب عن ذهننا أننا نتعامل مع روايات الهلالية فى آخر مراحل تطورها .

أما الظاهر بيبرس ، فلم يظهر فى السيرة إلا مع نهاية مرحلة طفولته وبداية مرحلة المراهقة ليكون ذلك ميلاداً جديداً يبدأ بذكر الملك الصالح أيوب له .

ويمكن تقسيم الأبطال ساعة مولدهم إلى ثلاثة أقسام :

قسم يولد بين أهله "الميلاد الغريب" دون أن ينزعج أهله به وبالمظاهر المحيطة به .

والثانى تحدث ولادته ومافيها من مظاهر غريبة أو ظروف محيطة به تؤدى إلى اغترابه أو غربته عن عالمه .

والثالث يولد فى الأصل غريباً بعيداً عن أهله .

يضم القسم الأول حمزة البهلوان ورجاله وكذلك الزناتي خليفة .

ولد الأمير حمزة والوزير بزرجمهر ينتظر ولادته خمسة عشر يوماً ، فمد وصل إلى مكة ليشهد ميلاد البطل فالتقى بأبيه وقال له : "امرأتك حامل قال : نعم وهي في الشهر الأخير قال إني بإلهامه تعالى أتيت لأخبرك أنها تأتي بولد ذكر كأنه القمر يرتفع مقامه ويعلو شأنه ويخرج أشجع من كل من حمل القنا ونقل الحسام وركب الجواد" (السيرة ص ٦) .

وانتظر خمسة عشر يوماً فولد حمزة وكان وليدا متميزاً بين الأطفال حتى إن والده : "تعجب من كبر جسمه وحسن طلعته وبهاء جبهته لأنه كان بديع الصورة جداً لا يوجد أجمل منه في رجال زمانه وبعد أن قبله قدمه للوزير بزرجمهر فأخذه وأمعن النظر في وجهه وجعل يسبح الله سبحانه وتعالى على مايخلق ويفعل وتأكد كل التأكيد سعادة ذاك الغلام وحسن استقباله وثبت عنده أنه هو الأسد الذي رآه سيده في حلمه" . (جـ ١ ، ص ٧) .

وكان من الأشياء الغريبة التي صاحبت ميلاده ؛ أنه في نفس اليوم ولد ثمانمائة غلام وقد أمر بزرجمهر أن يربى كل غلام منهم على نفقة كسرى إكراما لحمزة وليكونوا أعوانه في مستقبل الأيام . ولقد تبع ولادة حمزة ولادة عمر فقد كان أبوه عبدا متزوجا من جارية سوداء وكانت حاملاً في الشهر السابع أي لم يتم حملها بعد ، فحين رأى ما يحدث للأطفال الذين يولدون مع حمزة من كرم والده ؛ لعب به الطمع فسأل زوجته أن تلد عساها تأتي بولد ذكر فيكون لهما الخير العظيم ولما تعجبت المرأة من مطلبه "أخذ ذقن الباب وضربها به على ظهرها وهي تصيح وهو يضربها ويعذبها حتى سقط الولد وإذا هو ذكر أسود" (ص ٨) . وترك زوجته مغمى عليها وذهب بالطفل إلى الأمير الذي علم بفعلته من أحد جيرانه . فغضب الأمير إبراهيم على الرجل لفعلته لكن الوزير نظر إلى الطفل وتمعن فيه وطلب أن يخلي سبيل الأب ليكتب المولود مع

رفاق حمزة ويكون أقربهم إليه .

ولاتذكر السيرة شيئا غريبا عن مولد الزناتى خليفة ، غير أن بعض الروايات تروى أن أمة كانت جنية ولاتذكر أى رواية من الروايات تفصيلا لذلك .

أما النوع الثانى من الميلاد الذى ارتبط باغتراب صاحبه وغربته غربة غير بعيدة عن الأهل هو ميلاد عنتره وعبدالوهاب وكذلك كان ميلاد سيف بن ذى يزن وأمه ذات الهمة . فلقد ولد عنترة أسود أدغم مثل الفيل أفطس المنخر واسع المناكب واسع المحاجر صنعه الملك الجليل معبس الوجه مفلفل الشعر كبير الأشداق مكدر المنافس متسع الظهر صلب الدغائم والعظام كبير الرأس (جـ ١ ، ص ٧٧) .

كان يشبه أباه فى الخلقه وكان إذا منعته الرضاع همهم وصرخ ودمدم ويزوم كما تزوم السباع وتحمر عيناه حتى تصير كأنها الجمر إذا أضرم وكل يوم يلبسونه قماطاً جديداً لأنه يقطعه ولو كان من حديد ولما أن صار له من العمر عامان بالتمام صار يدرج ويلعب بين الخيام ويمسك الأوتاد ويقلعها فتقع البيوت على أصحابها ويعافر مع الكلاب ومن أذنابها يمسكها ويخنق صغارها ويقتلها ويضرب الصبيان وإذا رأى ولداً صغيراً هبشه فى وجهه ورماه على ظهره وبلغ منه المراد وإن كان ولدا كبيراً يعافر معه حتى يفتت منه الأكباد ولم يزل على ذلك الحال حتى خرج عن حد الرضاع" . (السيرة ص ٧٨) .

ولقد كان ميلاد ذات الهمة يمثل أزمة لوالديها فلقد كان ميلادها يمثل خيبة أمل لهما فلم يودا أن يأتيا بأنثى ، كانا يرغبان فى ولد ذكر فولدت ذات الهمة "جارية قوية السواعد والأطراف هائلة الأكتاف" . (السيرة ح ٧ مجلد ٢ ص ١١١) .

أصاب أمها الحزن الشديد وفكر والدها فى قتلها . تروى السيرة أنه :

"وقعت على أمها الخمدة والهموم والغموم ولقد فزعت من زوجها مظلوم فقال لها عسى أتخلى عن الإمارة بحسن عبارة وإن شئت قتلتها ونقول للعرب والسادات قد جاءنا ولدٌ ومات" . (السيرة)

فقد كان مظلوم على خلاف مع أخيه ظالم الذى قال له : أعلم أن زوجتك وزوجتى حاملتين ، وأنت أمير وأنا أمير ، فاجعل الشرط بيننا ويشهد هؤلاء علينا من جابت زوجته ولداً ذكرا كان الملك له والأمارة من دون الآخر ويكون الأمر والنهى فى العرب له" . (ص ١١٠) .

ورضى مظلوم بقول ظالم فإنه إن أنجب كل منهما ولدا تصبح الإمارة مشتركة بينهما .

وكان ميلاد ابنهما أيضا غريبا يمثل أزمة شديدة لهما ، ولقد ولد أسود اللون لأم وأب أبيضين ، أخفت أمه "الوجع وتجالدت . وأعانها على الولادة صاحب الإرادة فولدت غلاماً عند السحر ولونه مثل الليل المتعكر ، أسود أغبر مفتول الذراعين أزج الحاجبين" (السيرة ح ٨ مجلد ٢ ص ٢١٥) . تسبب هذا الميلاد الغريب فى اغتراب عبدالوهاب اغترابا مرا .

وكان ميلاد أبى زيد مقارباً لمولده فهو أسود لأبوين أبيضين وإن كان من الطبيعى ألا تجعل رواية عرب الشوا السواد موضوعا فى السيرة . فإن ولادة أبى زيد تتعدد بتعدد الرواة والروايات التى تتحدث عن هذا الميلاد ، ففى إحداها يشبه مولد عنترة وفى الأخرى يشبه ولادة عبد الوهاب ، ففى رواية عرب الشوا عنه أن والده ذهب فى اليوم السابع ليراه عند أمه فأمسك الطفل بيد والده وعجز الأب عن أن يخرجها ثانية وكانت خادمته سعيدة تقتل سبعة أفيال وتطبخهم لتطعمهم للطفل حتى وصل إلى سن البلوغ . (النص ص ٢ Stories Aabu Zeid) .

أما فى سير بنى هلال المطبوعة فقد حضر الأمراء بعد سبعة أيام من مولده لينقطوه فوجدوه أسود مثل العبيد . (السيرة ص ٢٧) . وتتشابه الروايات بعد ذلك فالحاج عبدالظاهر يروى أن من عادة السلاطين "يودواطست من دهب ينزلوا بيه المولود وسط الديوان عشان يشوفوا إيه يباركوا له .. لرزق بن نايل . ودوا الطست الدهب ده ينزلوا فيه المولود ، نزلوه وسط العرب لقيوه عبد أسود يعنى غطيس عبد" .

ولا تختلف رواية عبدالسلام حامد عن ذلك إلا بزيادة أن الذى كشف وجه الغلام كان أخا رزق السلطان حسن ، ويضيف فيه على سواد الطفل أن "ضمايله ضمايل حر (ص ٥٨) . أى أن خلقته خلقه حر .

ورواية عوض الله عبدالجليل تصور لحظة كشف الطفل يوم السابع ، وهو اليوم الذى أجمعت السير على أنه يوم كشف القناع عن وجه الطفل . وفيه وجدوا الهلالى بلون العبيد ولكن بوجه جميل حدده بأنه أحلى من العنب والزبيب :

واندقت الأفراح فى ليلة السبوع
قربوا على البطل أبوزيد وكشفوا القلوع
لقيوا الهلالى اسمر ولا جا لباه
لقيوا الهلالى اسود بلون العبيد
لكن وجهه أحلى من العنب والزبيب"

ولقد ولد سيف وعلامة الملك على وجهه فإنه بعد أن اكتملت مدة حمل أمه قمرية "جاء الطلق بإذن خالق الخلق فولدت غلاما ذكرا كأنه البدر إذا بدر فى ليلة أربعة عشر على خده شامة كما كانت على خد أبيه لأن ملوك التبابعة تعرف بها من قديم الزمان" .

كانت هذه الشامة هى التى حددت مصير الغلام فى غربةٍ واغتراب .

● ● ●

والنوع الثالث من الأبطال الذين ولدوا مغتربين الهجرس والأيتام .

فلقد ولد الهجرس يتيما غريبا بعيدا عن أهله فحين طردت الجليلة بعد مقتل كليب كانت حاملا بطفلها فسكنت عند أخيها جساس وهناك أنجبت الهجرس ، فتربى دون أن يعرف حقيقته .

أما أيتام بنى هلال فقد ولد كثير منهم فى المهجر بعيداً عن أهلهم ، إذ أن ديابا قرر أن يقتل أطفال بنى هلال ويبقر بطون الحوامل حتى لا يأتين بفرسان يحاربونه ، فكان أن هربت الجازية بالأطفال وبالحوامل من نساء قبيلتها وفى الطريق توقفت الناعسة زوجة أبى زيد فقد جاءها الطلق فتركتها الجارية فى الطريق لتسرع بإنقاذ من يسيرون معها من أطفال ونساء .

وبعد رحيلها ولدت الناعسة مخيمر دون أن تعلم الجاز التى وصلت إلى مستقرها ، وهناك ولدت النسوة مجموعة من أبطال بنى هلال . تروى بعض الروايات أن عليا أبا القمصان بن أبى زيد الهلالى وبريقع ابن حسن السلطان قد ولدا فى الغربة .

هذا الميلاد الغريب لم يأت عفوا وإنما وجه أحداث السيرة وشخصياتها توجيها فنياً ، فقد خلق صراعا امتد فى نفس البطل وولد دافعا لتحقيق البطولة . وكثيرا ما أدى هذا الميلاد إلى الحكم عليه بغربة أو اغتراب أو بهما معا .

الغربة

والاغتراب

منذ اللحظة الأولى لميلاد البطل وهو يعانى داخله من فقدان التوازن بينه وبين مجتمعه ، ولعل البطلين الوحيدين اللذين لم يواجها هذه المعاناة هما حمزة البهلوان وفيروز شاه اللذين عاشا بين أحضان والديهما وأحضان مجتمعهما دون أن يعيشا صراعاً يذكر وهما يسيران نحو هدفهما . ومع ذلك فقد عاش حمزة وفيروز شاه غربة واغتراباً .

وما يقصده هذا البحث بالغربة هو البعد الجسدى للبطل عن عالمه ومجتمعه ، وقد يسمى باسم غير اسمه الحقيقى منتسباً لغير أبيه مبتعداً عن عالمه ابتعاداً كبيراً حتى أنه حين يلتقى به لا يتعرف أحدهما على الآخر ، وقد يقف كل منهما فى طرف معادٍ للآخر . وفى هذه الغربة يفقد البطل تناغمه مع العالم ومع نفسه ، فهو يعيش وجوداً زائفاً يبحث من خلاله عن وجوده الحقيقى ؛ أى عن إيقاف الغربة والعودة للأهل والوطن أى للتناغم مع الجماعة .

وما أقصده بالاغتراب هو الغربة الروحية والنفسية عن الجماعة . فقد يكون البطل بين الجماعة ولكنه ليس متسقاً معها ، فهو يقف معها فى مواجهة كما حدث لعنترة ، فالمجتمع يسلبه حقه فى الحياة ويقف ضد رغباته . ولا يمكن أن يتحقق له وجوده إلا برفض الاستلاب باسترداد حريته فى أن يكون ، ففى الغربة قهر وفى الاغتراب قهر . وهنا كانت مواجهة البطل للتصدى لكل ما يعوق وجوده واستلابه . وهى لحظة لابد من مواجهتها قبل أن يحقق عبوره وتعرف الجماعة عليه واعترافها به .

وقد تكون الغربة بعداً اختيارياً عن الجماعة بمحض إرادة البطل ، كما حدث للمهلهل ، أو أنه اغتراب يتم بإرادة الأم كما حدث للجرو بن كليب ولسيف بن ذى يزن . وقد يتم الإبعاد برغبة الأم والأب لأن المولود أنثى ، وقد يكون الإبعاد برغبة الأخ لأنه غير شقيق فقد يسلبه السلطة ويشاركه الميراث الذى ورثاه عن أبيهما

كما حدث لظالم بن الصحصاح . وقد يتسبب اللون فى غربة البطل واغترابه كما حدث لعنترة ولعبدالوهاب بن ذات الهمة ولأبى زيد والهلالى سلامة .

ورحلة غربة البطل فى طفولته تمثل مرحلة هامة من مراحل المواليد ومكوناً هاماً من أهم مكونات بطولته .

ويعد الزير أقدم أبطال السيرة الشعبية ، فقد جعلت السيرة المسماة باسمه تاريخه أسبق منهم جميعاً . نشأ الزير يتيماً بعد أن قتل التبع والده فتآمر عليه أبناء عمه ليقتلوه وهو فى العاشرة من عمره ، فقد "ضربوا تختاً من الرمل ليروا ما حل بهم ويجرى عليهم وما يصيبهم فأبان الرمل لهم أن الأمير (جساس) يقتل الأمير كليب ويظهر الزير ويأخذ ثأره ويقتل معهم كل أمير وجبار بعد وقائع تستحق الاعتبار" . (قصة الزير سالم . ص٣٤) .

فالقدر هنا قد حدد المصير الذى سيواجهه البطل ، وأهل جساس يحاولون أن يقفوا ضد القدر بقتله . وهم لم يفكروا فى الوقوف ضد القدر بمنع جساس من قتل كليب وإنما وجهوا أختهم الجليلة لتدفع أخاه كليباً ليتخلص منه ، فأرسله أول مرة ليرعى النوق والجمال . وفى المرة الثانية أرسله أخوه إلى وادى العباس وهو مكان منقطع عن الناس كثير النمور والأسود وإذا بأسد يهاجم كليبا فيخرج له الزير وهو طفل فيطعن الأسد بخنجر فيقسمه قسمين ويخرج قلبه ويأكله ، وهنا صفا قلب كليب لأخيه ولكن الزوجة أخذت توغر صدره ليقتله واستطاعت أن تقنعه أن يأخذه إلى بئر السباع ويدليه بحبل على نية أن ينشل الماء وحينئذ يقطع الحبل فيسقط فى البئر ويموت .

وهناك جفلت الخيل وهى تشرب من ماء البئر فسمعها الزير وهو فى قاعه فصرخ على الخيول صرخة ارتجت لها الوديان واضطربت

لها الفرسان وجفلت منها الخيل وتأخرت وانفصل بعضها عن بعض فندم كليب على مافعل بأخيه فأخرجه من البئر وعاد به إلى الديار .

وقال كليب محددا لزوجته رأيه فى أخيه :

تقولى اقتله وارتاح منه

فقولك جهل ماهو قول عاقل

فإنى لا ابيعه بألف مثلك

ولو مهما جرى منه فعايل (ص ٤٠)

ولكن جليله لا تيأس فتطلب من زوجها كأسين من حليب السباع لأنه يقوى الأعصاب علاجاً لمرضها حتى تأتى بولد ذكر وذهب الزير دون سيف وجاء بلبن السباع بعد قتل اللبوة وساق ابناءها أمامه . ثم وقف الزير أمام أخيه مدركاً ما تريد زوجة أخيه وهو يوجه إليه نصحاً :

فأهل العقل لا تسمع لأنثى

لأن كلامها لاشك كاذب (ص ٤٢)

ولكن الجليلة لم تتوقف عن التآمر ضده ولم يتوقف أخوه عن الاستماع إليها وكانت آخر مؤامراتها أن يطلب أخوه منه شربة من بئر السباع لتشفيه من مرضه .

أخذ الزير حماراً وذهب إلى بئر السباع وكانت السباع فى ذلك الوقت سارحة فى البرية سوى سبع واحد كان راقداً على حافة البئر فرأى الزير أن من العار أن يقتله وهو نائم فترك حماره بجوار البئر وأخذ القرب ونزل البئر فاستيقظ الأسد وأكل الحمار وحين خرج الزير من البئر لم يجد حماره ووجد الأسد فأصر على أن يحمل الأسد القرب فضربه ضربة شديدة وأوقعه على الأرض فنهض الأسدُ بعدها كالسكران فوضع القرب على ظهره وركبه وساقه إلى أخيه وأمام أخيه قتل الأسد ثأراً لحماره . وعبر كليب عن ندمه وطلب منه أن يبقى معه ولكن غربة الزير تحولت فى داخله

إلى اغتراب عن واقع أخيه فقد أصابه إحساس بالمرارة بما صنعت زوجة أخيه وتألم من تقبل أخيه لكلامها ، فعبر عن هذا الحس المغترب بأنه يريد أن ينفرد عن الناس ويكون وحده بعيداً عنهم . فاختار بمحض إرادته البعد لتكون غربة واغترابا اختياريين وقد صمم على الارتحال "لأن العزلة أفضل للرجال الأحرار" . (ص ٦٦) .

وقد برر ذلك بأن له ثأراً على السباع فقد قتلوا حماره ولابد من قتل جميع الأسود ، وذهب إلى بئر السباع ليقاتلها ويبنى من جماجمها قصراً ، ولقد طال عليه الزمان فى هذه العزلة لتبنى فى داخله القدرة على مواجهة المصير المكتوب عليه ؛ أن يقاتل فى حرب للثأر اربعين عاماً دون أن يمل أو يستسلم ، فقد بقى فى عزلته لا يربطه بالعالم غير صديقه همام بن مرة وكانا يشربان المدام ويتناشدان الأشعار ، حتى أحس كليب بريح المأساة فذهب إلى أخيه فى أول لقاء له منذ اغترابه ، وطلب منه أن يعود ليكون ملكاً على القبيلة ورفض الزير فأخبره بمخاوفه ومن توقعه للشر من جساس وأهله فضحك الزير ورفض أن يعود معه وطلب إليه أن ينظر إلى القصر الذى بناه بجماجم السباع . فإنه إذا كان قادراً أن يبنى قصراً من رءوس السباع ثأراً لحماره فإنه أيضا قادر "أن يبنى من رءوس الأعادى مدائن و"ضياعا" و"حصونا" و"قلاعا" . (ص ٥٢) . وهنا طلب من أخيه أن يذهب دون أن يخشى شيئاً ، أما هو فإن مهمته لم تنته ثأراً لحماره فمازال هناك أسدان أو ثلاثة لم تقتل بعد . وبقى الزير فى مكانه حتى علم بمقتل أخيه لتبدأ رحلة عذاب جديدة ورحلة ثأر طويلة لرجل تمكنت الغربة والاغتراب من نفسه .

عاد إلى انتمائه لقبيلته وليجعل اغترابه القديم ثأراً يعذب به قبيلة جساس وكل من يقف معهم وتدور رحى الحرب أربعين عاماً ولا يريد أن يهدأ حتى يفنى آل جساس جميعا إلى أن دبر جساس

أن يلتقى الزير فى نزال مع ابن أخيه فإن قتل أحدهما بيد الآخر فإن المنتصر يعيش عذابا لا ينتهى .

وإذا كانت غربة الزير اختيارية ، سببها إحساس بالاغتراب عن أخيه وكانت زوجة أخيه الجليلة وقومها السبب فى ذلك ، فإن هذه المرأة نفسها سببت غربة لطفل آخر هو الجرو ابن أخى الزير ، وكانت هذه الغربة سبباً فى اغترابه .

فإنها حين خرجت بعد مقتل زوجها إلى منازل أهلها كانت حاملاً فى ابنها هجرس الملقب بالجرو فربى مع أخواله وأبنائهم فهو ربيب قتلة أبيه وأعدائه وظل بينهم ينادى خاله جساسا بأبيه وينسب إلى خاله شاليش الذى قتله الزير .

ولكن خاله خاف منه عندما رآه فى سن الخامسة عشرة من عمره "وقد برع واشتهر وعلى فرسان القبيلة افتخر" . (السيرة ص ١٣٣) .

فكان يبدو كالليث والشرر طائر من عينيه ولايقدر عليه أحد ، فالخال يدرك أنه قاتل أبيه وصانع يتمه وأن بينهما ثأراً لا يعرفه الغلام . واتفق ذات يوم أن تلاعب مع عجيب بن جساس بالجريدة فطعنه الجرو بالجريدة طعنة أسقطته عن ظهر الجواد إلى الأرض "فنهض غضباناً وشتم الجرو وأهانه بالكلام وقال له أهكذا تفعل يا ابن اللئام بأبناء السادات الكرام" . (ص ١٣٤) . ثم لمز عجيب الجرو فى نسبه وحين جاء عمه سلطان وقف معه وأهان الجرو وقد غضب وتألم لما حدث له وأخذته نخوة الفارس فقرر الرحيل عن هذا الوطن ليبدأ غربة جديدة يعرفها تختلف عن غربته التى لا يعرفها . فهو قد عاش غريبا دون أن يعرف واختار بعد هذه الحادثة البعد عن عالمه فخرج منه رافضاً له وقد تحقق له الاغتراب عن هذا العالم . وكان خروجه فى الليل خروج هارب تحت جنح الظلام ليس خوفاً من أحد ولكن عدم تقدير لأحد .

قطع الجرو مع أمه وعبيده وخدامه البرارى والآكام مسافة عشرة أيام ، وفى اليوم الحادى عشر التقى الجرو بشيخ كبير مع أبنائه العشرة يطلبون الصيد فى البر الأقفر فكان هذا الشيخ هو خال والده منجد بن الأمير وائل فعاش معه دون أن يعرف العلاقة الوثيقة التى تربطه به فقد كتمت أمه عنه ذلك حقداً على عمه الزير فهو يتصور أنه قاتل أبيه وقد حدد فى حديثه مع الملك منجد أزمة اليتم والغربة والحقد حتى إنه يتمنى أن يأخذ بثأره منه .

انا اسمى اليتيم أيا مسمى
ولا اعرف ابى ولا خوالى
وإنى قد سالت امى مراراً
فتسكت ولا ترد لى سؤالى
تقول ابوك شاليش بن مرة
قتله الزير فى يوم النزال
فاطلب من إله العرش ربى
لأخذ الثار منه بالقتال - ص ١٣٧

وقد ساند الجرو خال والده فى حربه مع أحد ملوك العربان وانتصر عليه بفضل الجرو مما رفع مكانته واقامه ملكاً على تلك الديار . وهنا احتاجه أخواله طامعين أن يقوم بقتل عمه الزير فعاد إليهم ليبدأ حرباً مع أمه تكون هذه الحرب بداية جديدة له .

وإذا كانت هذه الأم قد سببت لابنها غربته واغترابه ، فإن أم سيف قد تسببت أيضاً فى غربته واغترابه مع الفارق بين موقف المرأتين من الابن والهدف من تغريبه .

لقد قصدت الملكة قمرية أن تتخلص من ابنها سيف لتحرمه من ملكه ، فلقد كانت هذه المرأة دسيسة على والده حتى وهى حامل بابنه سيف وحين ولدته "ورأته على هذا الحسن والجمال أخذتها

الغيرة الشديدة وقالت فى نفسها إن قعد هذا الغلام وعاش أخذ منى المملكة واحتوى على ما تحت يدى من المال والشجعان والأبطال" . (السيرة ، حـ ١ ، ص ٢٢)

وهنا أخذت تستعين بإلهها "زحل" وتدعوه أن يميت الطفل وقد امتلأ قلبها قسوة وتنكرت لأمومتها وبدأت لا تشبعه من الرضاع ولا تهتم بغدائه حتى يموت . ولكن أمر الله أراد غير ما تريد .. "فصار الغلام كل يوم فى زيادة وكمال وحسن وجمال ولم تعلم الملعونة أن الله خلاف الظنون وهو يحيى ويميت وهو على كل شىء قدير الذى خلق آدم من طين وأولاده من ماء مهين" . ص ٢٦ .

ولما كمل الطفل أربعين يوماً ورآه أهل مملكته وعبروا له عن ولائهم له ازداد الحقد فى قلبها وقررت التخلص منه بأن تقتله وأخذت قطعة سلاح بيدها وقد منع الله من قلبها الفزع والخوف وأمسكت رأسه بيدها الشمال وأرادت أن تنزع الرأس عن الجسد "وإذا يدها قد يبست بأمر الله تعالى لأمر يريده الله وهو طول عمره وبقاؤه" (ص ٢٧) . وهنا دخلت الداية واتفقت معها أن ترسله مع أحد الخدم ليرميه "فى البرارى والآكام ويكون بعيدا عن الأوطان ، فإن عاش عاش لأجله ، وإن مات مات لأجله" . (ص ٢٧ ـ ٢٨)

وحين أقبل الليل بالظلام طلبتا البرارى والتلال والسهول والجبال مدة أربعة أيام وليال . وفى اليوم الخامس أقبلتا على واد فسيح ، فوجدت الأم شجرة شوك ، وقد نزع الله الشفقة منها والرأفة . فأقبلت نحو الشجرة ووضعت الطفل ، وقد نصحتها الداية أن تضع عقدا من الجوهر فى رقبته وكيسا به ألف دينار تحت رأسه وبعد أن تركته أمه وعادت إلى ديارها مرت عليه ملكة من ملوك الجان وكان معها ابنتها الوحيدة التى رزقت بها بعد مدة طويلة من التوقف عن الانجاب وأسمتها عاقصة ، وقد أخذت ابنتها وسارت

لبعض أشغالها إلى أن جاءت البرارى فجلست تحت شجرة الشوك وأرادت أن تنام هناك وإذا بها تسمع صوت ذلك الطفل الصغير ساعة الهجير فأتت إليه وحنت عليه وأرضعته من لبنها فشرب حتى اكتفى ، ثم تركته وأخذت ابنتها وذهبت إلى منازلها فى جبل القمر ومنابع النيل . وأتت إلى الموضع الذى وضع فيه المولود سيف غزالة والدة حديثا أخذ الصياد أولادها ، وحين عادت كان الصياد يترقبها فجرت منه فوجد الغلام ، فأخذه وذهب إلى بيته ليبدأ الوليد غربته بعيدا عن عالمه .

أخذ الصياد العقد والمال ، وحمل الطفل إلى الملك أفراح ، فلما رآه ألقى الله محبة الغلام فى قلبه ، وهنا يظهر سقرديون وزير الملك سيف أرعد عدو يزن الأب ، فيخاف من ترك الغلام حيا ، لأنه هو الذى سينفذ دعوة نوح فى أبناء حام وكان من رأيه "أن الصواب أنك تقتله وعلى الأرض تجندله وهذا ما عندى من الرأى السديد والأمر المفيد لأنى أخاف أيها الملك الهمام من تربية هذا الغلام فيكون على يديه إنفاذ دعوة نوح عليه السلام فيبدل من وجودنا إلى إعدام ويسقينا كئوس الحمام لأنه مستجاب الدعوة بين الأنام" . (ص ٣١)

وصادف فى تلك الساعة أن أنجبت الملكة دهشانة زوجة الملك بنتاً ذات حسن وجمال كأنها بدر التمام على خدها خال مثل الذى على خد الغلام . وجيء بالفتاة ووضعت بجوار الفتى فلما رأى الوزير سقرديون الشامتين على الخدين "لطم على رأسه ومزق جميع ملابسه وثيابه ورمى عمامته على الأرض واختبط بعضه ببعض ونتف لحيته ورمى نفسه إلى الأرض وشخر ونخر وسب الشمس والقمر وصار يخبط رأسه حتى تتعتعت أضراسه وهو يصيح بأعلى صوته ويقول يالزحل وحق زحل فى علاه والنجم وما سواه فإنى خائف من هاتين الشامتين واجتماعهما مع بعضهما"

(ص ٣٥) . ثم خير سقرديون الملك بأن يقتل سيف أو يقتل ابنته ، فرفض الملك وقرر أن يفرق بينهما فى المنازل والأوطان حتى لا يجتمعا وأفرد لسيف مراضع ودادات يخدمونه صباحا ومساء . وهنا جاءت ملكة الجن وطلبت من الحاضنة أن تعطيها الغلام ليبقى عندها وتحتضنه ثلاث سنوات فخافت الجارية وتركته لها .

أخذت ملكة الجن سيف وأرضعته مع ابنتها عاقصة لتكون غربة سيف الأولى غربة كونية فى عالم ما وراء الطبيعة ليدرب دربة غير عادية فى مواجهة عالمه وقد قضى تربيته الأولى فى عالم الجن ثلاث سنوات لتعود به الجنية إلى الملك أفراح ، أى إلى عالم الإنس بعد أن اكتسب أما وأختا من عالم ما وراء الطبيعة .

كبر الفتى حتى صار له من العمر سبع سنوات فى حجر الملك أفراح واشتاق لركوب الخيل فجاءوا له بمهر صغير فلم يعجبه ولم يرض ركوبه فأتوا له بجواد أدهم وطلب رمحاً وسيفا طويلاً ونزل الميدان يلاعب الشجعان وينكس الفرسان فاشتهر بالفروسية . علم سقرديون بوجوده فهدد الملك بحرب طويلة إن أبقى هذا الغلام عدوهم فى أرضه فأرسله إلى حصن بعيد وادعى أن الجنية أخذته .

ذهب سيف إلى منفاه : حصن عطمطم خراق الشجر ليعيش غربة جديدة ، غربة يعرفها تخلق فى ذاته اغتراباً عن العالم الذى يعيش فيه وليدرب ليكون الفارس الذى يتحمل مسئولية "ماهو مكتوب عليه" فقد أخذ عطمطم يعلمه كيف يخرق الشجر فكان يركب على ظهر جواده ويحمل على الشجرة ويطعنها بالقنطارية فيخرقها ويميل عليها فيمزقها ولهذا لقب خراق الشجر . وأخذ يعلم سيف كيف يخرق الشجر وجاء إلى شجرة مقدارها عشرة أشجار فطلب منه أن يطعنها فطعن الشجرة بكل قوته بالقنطارية فنفذت منها ،

وجاءت سور الحصن وخرجت منه إلى الفلا وهي كأنها حجر منجنيق قد وقع من حجر السور . ولما نظر عطمطم إلى صنيع سيف "أخذته الحيرة والانذهال وتعجب من هذه الأعمال فرمى تاجه من علي رأسه وقلع نعليه من رجليه ولطم على رأسه حتى تقعقعت جملة أضراسه ولطم بيده على خديه حتى برز الدم من عينيه" (ص ٤١) . فقد أدرك أن في يد هذا الغلام تحقيق دعوة نوح عليه السلام . فقال له وقد امتلأ بالغضب الشديد : "ما أدراك لعلك تكون أنت الذى على يدك إنفاذ دعوة نوح عليه السلام ، واعلم ياغلام أن هذه الأرض ماهي أرضك ولا أرض أبيك ولا جدودك من قبلك ياغلام ، بل هى أرضنا وبلادنا من قديم الأيام من مدة جدنا حام ، وأما أنت فاخرج من أرضنا ياابن اللئام وفى أى وقت وجدناك أو أدركناك فيه قتلناك" (ص ٤١ ـ ٤٢) . فهو يعيش فى أرض غير مرغوب فيه فيها ، وكلما نزل مكاناً ووجه بالنبوءة فيطارده أهل هذه الأرض فسار مدة يومين يبحث لنفسه عن مستقر وهو يقطع البرارى والقفار والسهول والأوعار بالليل والنهار متألما لنفسه وما حدث له من تحول بعد العز والدلال إلى حال التشرد فى الآفاق حتى أشرف على غار فقصده فسمع صوت إنسان فتقدم نحو الصوت فوجد رجلاً أعجمياً يسمى عبد لهب شنيع المنظر يطير من عينيه الشرر وبعد أن تعارفا ذكر له الرجل أنه ينتظر فى هذا الغار منذ سنين ففيه "كنز عليه خدام من الجان وفيه سوط مطلسم وعليه الخدم فى ذلك البر والآكام ولا يستطيع أحد أن يأخذ ذلك السوط من دون الملأ إلا غلام يقال له وحش الفلا غريب يأتى من ذلك البر والخلا" (ص ٤٣) .

حصل سيف على السوط المطلسم وخرج ليجد إنسية خطفها جنى ليتزوجها فأنقذها سيف وتكشف له أنها شامة بنت الملك أفراح فأحبها وحين خطبها من أبيها فرح الأب إلا أن سقرديون خاف أن تقترن الشامتان ؛ شامة سيف مع شامة شامة ؛ ففى

اقترانهما خراب بلاد الأحباش . لذا طلب منه سقرديون رأس سعدون الزنجي مهرا لها متصوراً أن سعدون سيقتل سيفاً ولكنه عاد بسعدون الزنجي نفسه . لذا شعر بخيبة أمل فطلب المطلب المستحيل في نظره ؛ وهو أن يأتي بكتاب تاريخ النيل ، لتبدأ رحلة البطل في محاولة ليقضي على اغترابه وليحقق انتماءه في العالم الذى ألقته أمه فيه منذ أن رمته في الفلاة .

● ● ●

ولم يكن حظ ذات الهمة بخير من حظ سيف فقد ألقى بها والدها في رحلة الغربة والاغتراب واشتركت أمها معه فهي لم تحاول أن تقف دون إبعادها ، فقد كان والد ذات الهمة يتمناها غلاماً وعندما تكشف أنها بنت وقعت عليها "الخمدة والهموم وفكر والدها في قتلها فإن بقاءها معناه أن يسلم بإمارة العرب لابن أخيه ظالم وقد تدخلت الداية وكان رأيها أن يعطوها لبعض إمائهم وأن يهبوها شيئاً من أموالهم حتى تربيها لهم وسمعا كلامها وأعطياها لأمة تسمى سعدى لترضعها مع ابنها مرزوق وأعلنت الداية بعد ذلك أن زوجة مظلوم أنجبت ولداً ومات ودفن يوم ميلاده .

كانت الداية ترضع البنت في النهار "وفي المساء تأتي بها لوالدتها أي أنها تغترب عن بيتها نهاراً لتعود إليه ليلاً والأب لا يقربها ولا يشتهي أن يراها إلى "أن صار لها من العمر خمس سنين في قدر من لها عشر سنين وقد أعطيت من الذكاء والأفضال مايزيد عن الحسن والجمال فسبحان من خلقها على هذا المثال" (ح ٧ مجلد ٢ ص ١١٢) . وحين بلغت السادسة من عمرها ذهب مظلوم وأخوه مع بني كلاب لقتال قبيلة طيء وفي غيبتهم أغارت طيء على مضاربهم وسبوا سعدى وابنها مرزوق وذات الهمة ووقعوا في قسم أمير يقال له الحارث بن مشير وهو يظن أن ذات الهمة ابنة سعدى وسار بهم الأمير إلى أرضه لتبدأ ذات الهمة غربة جديدة قطع فيها ذلك الخيط "رفيع الذى كان يربطها بوالدتها

ووالدها لتعيش أمة فى عالمها الجديد . وأخذت ترعى الجمال والخيل .

كانت فاطمة تدرك أن هذا ليس عالمها وأنها غريبة فيه وعجزت عن التواؤم مع هذا العالم ، فلم يكن لها صبر على الذل وكانت تشد البرقع على وجهها بخلاف زى الإماء فما كانت الشمس تراها فهى مازالت مرتبطة بعالمها الأول عالم مظلوم الذى ظلم وجودها كامرأة من عالم بنى كلاب ، تنتظر منهم العودة ليخلصوها من العبودية ، وطالت المدة ولم يأت بنو كلاب فكانت تخلو لنفسها وتتعلم الكر والفر والنزال والطراد وتقطع ورق الشجر والقصب وتتعلم المرافعة والممانعة" (ص ١١٥) . لم تتوقف ذات الهمة عند تدريباتها الجسدية وإنما قامت بتدريبات روحية أخرى فقد قامت لحب ربها وألقت بالدنيا وراء ظهرها وصارت تصوم نهارها ، كل ذلك وقد اكتمل لها من العمر سبع سنين .

وقد راودها فارس من فرسان طىء يقال له فريج بن قابوس الطائى ، وكان فارساً شجاعاً لا يبالى بالرجال ولا كثرة الأبطال ، فاشتكت لسيدها الذى اشتكى لملكهم ولكن الفارس لم يتوقف عن مراودتها عن نفسها وجرى خلفها فوق فرسه فى عرض البرية ، فهربت منه وهو يلاحقها حتى انتهى الأمر بأن قتلته واضطر سيدها أن يدفع دية القتيل ألف بعير وعشرين رأساً من الخيل وعشرة دروع وعشرة سيوف وعشرة رماح ولم يبق لهذا السيد ساعية ولا راعية . أيقن القوم بعد ذلك أن السيد سيقتلها ، وقد دخل عليها وهى مقيدة بالسلاسل وبيده سوط من جلد بعير مدبوغ وهو مملوء غيظا فقد أصابه الهم والفقر وهم أن يضربها فسألته أن يعطيها جواداً وسيفاً ورمحاً وأنها ستعوضه عما خسر . خرجت وقد تبعها عبدها مرزوق وسارت سبعة أيام وفى اليوم الثامن استولت على أموال ضرغام السعدى وعادت بها إلى سيدها ، وأخذت تقوم بقطع الطريق ، حتى جاءت فى طريقها أربعة آلاف ناقة من نوق والدها ؛

حمر الوبر كثيرة اللحم . موسوقة الشحم فاستولت عليها ذات الهمة لتلتقى مع أبيها وجهاً لوجه وتبدأ رحلة جديدة من رحلات حياتها .

● ● ●

وتختلف غربة مظلوم واغترابه عن بقية أبطال السير الشعبية فقد كان الأخ هو صانع غربة واغتراب البطل . فلقد مات والدهما البطل الصحصاح وهو فى ريعان شبابه ، مخلفا ابنين الأكبر ظالم والأصغر مظلوم ، وربى مظلوم عند أهل أمه فقد جلس ظالم مكان أبيه الصحصاح بعد وفاته ، وقد اجتمعت إليه العربان من كل مكان ليعزوه فى أبيه ويهنوه بما هو فيه . كان ظالم جباراً من الجبابرة تلوح علامات الشجاعة بين عينيه ظاهرة والشرر يقدح منهما وهيبته تقع فى قلب كل من ينظر إليه . جلس ظالم فى عز وشأن يحكم بين سادات القبائل والعربان وكان جباراً من الجبابرة وعندما علم أنها ستحضر ابنها إليه أنكره وأنكر أن يكون أخوه فهو لم ينجب سواه ولم يتزوج غير أمه وتوعد من يشهد بغير ذلك أن يضرب رقبته وعندما علم أن الأم ستأتى بابنها إليه غضب وطار الشرر من عينيه لأنها تطالبه بإرث أخيه وقد ورث أموالاً تعجز الجمال عن حملها وأعلن أنها إن أتت به سيهتك سترها وسيذبحه على صدرها .

وعندما بلغ الخبر بنى الوحيد خافوا وتفرقوا عن أم مظلوم فقل صبرها وخافت من ظالم واحتسبت أمرها لله .

وأخذت تربى ابنها فى اليتم بعيداً عن قومه ولا تنقطع عن البكاء ليل نهار ، وعندما كتب الخليفة لظالم بمنشور الولاية والامارة على العرب ذهب أهلها بنو الوحيد لتهنئته وقد أشار عليها مشايخ الحلة أن تذهب إليه وتهنيه لعله يحن على أخيه ويعطيه حقه فلما دخلت على ظالم بأخيه وعمره خمس سنوات ووضعته أمامه وسألته بحق النبى المنتسب ألا يقطع ما بينهما من النسب متبعاً فى ذلك السنة والإجماع والشريعة .

كان رد ظالم قاسيا عليها وعلى طفلها وسلك سلوكاً لا يليق بأمير فى مثل موقعه فقد قامت عيناه فى رأسه ولطم الصبى على رأسه حتى كاد يطير أسنانه . خرجت المرأة باكية من عنده وقد حدد موقفه بإعلانه رفض الاعتراف بأخيه حتى لا يقاسمه فى حقه :

الا يابنة الصياح عودى بخيبة
ولا تطمعى مظلوم فى مال ظالم
فهيهات اين الاعتراف بمثله
يرجى رجاء أن يكون مقاسم
(ذات الهمة ، ج ٧ مجلد ٢ ص ١٣٠)

ثم حاول ظالم أن يطلبها ليقتلها فمنعه مشايخ بنى كلاب وقد رقت قلوبهم للصغير . عادت الأم إلى اهلها لتربى ابنها بعيدا عن قومه ليقضى طفولته غريبا ومغترباً ضائع الحق منكر النسب والأم تحاول أن تنشئه تنشئة طيبة إلى أن مشى فنبغ فى الفعل والعقل والبلاغة والملاحة والشارة والفروسية والنجدة والبأس والقوة وهى الصفات التى يتحلى بها الأبطال فكان لا ينزل عن جواده ليلاً أو نهاراً ، ولكن ذلك لم يزل غربته فالطريق طويل للعودة إلى ديار أبيه إذ لابد من المواجهة .

● ● ●

وكما عانى مظلوم من الغربة والاغتراب ومن قبله المهلهل وهجرس وسيف ، فقد عانى أبطال ثلاثة الغربة والاغتراب بعامل مشترك جمعهم معاً : عنترة وعبدالوهاب وأبو زيد الهلالى .

كان هذا العامل المشترك هو اللون فالأبطال الثلاثة هم أغربة السير الشعبية العربية لكل واحد منهم قصة تختلف عن قصة الآخر تفسر حقيقة ألوانهم . وقد حدد اللون عقدة البطل وعقدة الأحداث ووجه اغتراب البطل عن جماعته وجعل طريقه وعراً بينها .

كان لكل واحد من هذه الأغربة (الأبطال) سبب مختلف فى سواد لونه ورحلة اغتراب مختلفة أيضاً . فلقد كان عنترة من الطبيعى أن يكون أسود اللون فأمه أميرة حبشية اختطفت وسبيت ثم وقعت فى يد الفرقة الزائفة من بنى عبس وكانوا عشرة أعضاء يمثلون أقوى فرسان عبس وكان شداد واحداً منهم وكانوا كثيراً ما يقومون بالغزو والإغارة ونهب أموال العربان .

وفى إحدى غاراتهم وقعت زبيبة وابناها جرير وشيبوب وقد راقت فى عينى شداد فأخذها بعيداً عن أنظار أصحابه وحاول أن يغشاها فرفضت لأنها كما يقول الراوى من بيت كبير فقال لها : "ويلك أنت بقيت زوجتى وأولادك عندى وأنا أكرمك طاقتى" (ص ٧٦) . وهنا استسلمت له ، وحين عاد أصحابه وحاولوا أن يفعلوا مثله رفضت الأمة رفضاً قاطعاً ، وهربت من بين أيديهم وغارت نفس الأمير شداد عليها ، وردهم عنها ، وقد ذكرت السيرة أنه : "قال لهم إنى جعلتها فى عصمتى ورضيت أن آخذها فى قسمتى فرضوا بذلك الحال ثم عادوا عنها راجعين ومما أملوه خائفين ولم ينالوا منها أربا سوى الأمير شداد" (ص ٧٦) .

كانت محاولتهم نيلها ورفضها لهم ووقوف شداد منهم هذا الموقف شهادة بأن مافى بطنها إنما هو ابن شداد . ولم ينكر شداد بنوته لابنه ، ولكنه حين كبر وأصبح ابن اربع سنوات كان قوياً يقارب أبناء العشرين ، ولما سمع به فرسان هذه الفرقة تمنى كل واحد منهم أن يكون هذا الطفل له فاختصموا شدادا بأنهم حين اقتسموا غنيمتهم كان لهذه المرأة ابنان ولم يدخل هذا الطفل فى القسمة فاختلفوا وكاد يقع بينهم ضرب الحسام .

فذهبوا إلى الملك زهير لينظر ظلامتهم . نظر الملك إلى صورة الطفل فتعجب غاية العجب منه ومن قوته وأدرك أنه سيكون أشجع الشجعان . ولم يحكم الملك زهير فى القضية وإنما وجههم إلى

القاضى بشارة ابن قطبة الفزارى الذى حكم وحين تأكد لديه أن أحداً لم ينل منها سوى شداد "فهو الذى افترسها فقال لهم : إذا كانت هذه شهادتكم على أنفسكم وهى بإرادتكم وما أرى أحداً منكم بمجدها فكيف آخذ ولد الرجل وأعطيه لكم . وإنى قد لاح لى وجه آخر وهو أن هذا الغلام أشبه الخلق بشداد وأنا قد حكمت أن يكون له من جملة الأولاد فكفوا عن الشر والعناد وارجعوا إلى طريق الصلح والرشاد" (ص ٨٠) . وقد تصالح الجميع ورضوا حكم قاضيهم ليعيش عنترة ابنا بالدم لشداد لا يعترف ببنوته اعترافا اجتماعياً وليعيش على هامش القبيلة يغترب يومياً فى رحلته راعياً لإبل سيده الذى لم يناده بأبى وإنما كان يناديه بسيدى .

كانت رحلة الرعى غربة . فالفتى ينمو مختلفاً متميزاً عن الآخرين حتى إن والده وأعمامه خافوا أن يسبب لهم مشكلات مع الأحرار ففكروا فى قتله إلا أن الأب تراجع فى اللحظة الأخيرة وقد رأى ابنه يقتل أسدا وبعد ذلك أتى شجرة يستظل بظلها وقد جعل من رأس الأسد وسادة . ولم يغير ذلك من الوضع الاجتماعى لعنتره فهو مازال عبدا .

ويذهب الأحرار للغزو ويبقى عنترة فإذا بالأعداء يأتون الدور يحاولون استرقاق فتيات القبيلة ، فيحمى الفتيات وينقذ شرف القبيلة ، وحين يقع فى الحب لا يحترم أحد قلبه لأنه مختلط الدم غير معترف به . والقبيلة لا تعترف بأن له قلبا مثل الأحرار ولا تعترف بأن قوته الجسدية لها ما يقابلها فى قلبه من حب شديد لفتاة الحى عبلة ، وكان يقابل ذلك الألم الشديد من قبيلته بالتمرد على عالمها الذى يضعه فى قاع مجتمع القبيلة ، فهو حين يعود إلى مضاربها يظل غريباً ومغترباً عنها .

تحتاج إليه القبيلة ليحميها فيعطيها الحماية ويحتاج إليها لتمنحه الحب والانتماء فترفض القبيلة عليه ذلك وتتركه يعيش بينها

غريباً ومغترباً . ويزداد ألم الإحساس بالاغتراب والقبيلة لا تحرك ساكناً لتزيل اغترابه .

تختلف أزمة عبدالوهاب عن أزمة عنترة اختلافاً كبيراً . فلقد ولد عبدالوهاب بن ذات الهمة من ابن عمها الحارث بن ظالم مختلف اللون عن أمه وأبيه . إذ جاء أسود اللون .

لقد أحب الحارث بن ظالم ابنة عمه ذات الهمة حباً قوياً وحاول جاهداً أن يتزوجها ، وفى مجلس الخليفة المنصور وفى وجود ذات الهمة عرض أمره على الخليفة فكانت ترفض وقد أخبرت الخليفة انها لا تحب قرب الرجال وقد بغض الله إليها أخبية النساء وربات الجمال وقد أحبت القتال والتقلد بالسيوف الصقال والرماح الطوال ولا تعد نفسها من جملة النسوان .

وقد قالت صراحة للخليفة "إن سيفى حجلى والغبار كحلى والحصان أهلى فما الذى أصنع ياأمير المؤمنين بالحارث وبغيره من العالمين" (السيرة ج ٧ مجلد ٢ ص ١٧٩) . ولم يقنع قولها الخليفة ، ففى رأيه أنه ليس للمرأة إلا بعلها حتى يسترها عمن يراها ، ووجه الخليفة لها أمراً أن ترجع إلى ما يأمرها به إمامها . "فأمره فرض الله على الأمة فقال تعالى : (ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) ثم قال المنصور للقاضى ابن حفضه السلمى : "أيها القاضى اعقد عقد النكاح بابنة عمه ذات الهمة فاعزم وتوكل فأجابه بالسمع والطاعة" (ص ١٨٠) . وتم العقد والأميرة ذات الهمة دموعها كوابل المطر إذا انهمل وظهر واضحاً أن المنصور قد أكرهها على عقد النكاح ، لذا لم تمكن ذات الهمة الحارث من نفسها وفى قلبه منها نار لا تنطفىء ولا يشفى ولا يستطيع أن يقترب منها فوجهه أحد أبناء بنى سليم إلى عقبه بن مصعب ليجد له حيلة ليدخل عليها فأعطاه دواء من بنج طيار إقريطش مطحون بالكبريت الأزرق ، لوطعم حبة منه

لجمل لغاب عن الوجود جميعه ، ولم يكن هناك شخص يستطيع أن يقدم لها هذا البنج سوى أخيها فى الرضاع مرزوق الذى تربى معها على ثدى واحد . وقد استطاع الحارث أن يقنعه أن يعاونه فى أن يقضى منها وطراً ، فهى زوجته على سنة الله ورسوله ، فأخذ مرزوق منه الدواء ، ولما عادت ذات الهمة من تجوالها فى البر تجرى خلف الوحش فى الهجير قدم لها مرزوق الشراب ، وقد وضع البنج فيه ، وما إن استقر الشراب فى جوفها حتى مالت على فراشها لا تعلم الليل من النهار وهنا جاء الحارث ليقضى منها وطراً كان ذلك كما يقول الراوى : "بقدرة الله لما يريده من إظهار ترس قبر النبى محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه الأنجاب وهو الليث المهاب والأسد الوثاب والبطل المهاب الأمير عبدالوهاب" (ص ٢١٤) . ولقد بدأت رحلة "عبدالوهاب مع الغربة منذ مولده ، فإن ذلك الميلاد الغريب أدى إلى تعجب النسوة فقد وقعت على النسوة المصاحبات لها فى الولادة الخمدة فالولد أسود والأم والأب أبيضان ، وكانت ذات الهمة قوية قادرة مؤمنة واجهت الموقف بثبات وكان رأيها أن "هذا الولد صنعة الملك القادر الذى يصنع الأكابر ويرفع الأصاغر وهو الأول والآخر يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ويخرج الأبيض من الأسود ويخرج الأسود من الأبيض ، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد" (ج ٨ مجلد ٢ ص ٢١٦) .

وقد طلبت منها بعض النسوة أن تقطع سرة الغلام وتقتله وتخفى أمره لئلا يبقى معيرة وتفضح بين الأعداء . ورفضت ذات الهمة أن تقتل ابنها أو أن تترك أحدا من النسوة يقتلنه وودعته ذات الهمة وقد سلمته إلى حاضنة تربيه وشاع بين الناس انها انجبت ولداً ومات .

وقد عاش عبدالوهاب غريباً ينشأ وأمره مكتوم غير معلوم إلى أن صار له من العمر ست سنين وهو يظن أن أمه هى التى تربيه حتى طلب فرساً فلجأت الحاضنة إلى ذات الهمة التى

التقت بابنها لأول مرة فلما رأته حنت إليه وأخذت الحاضنة تحضره ليلاً وتأخذه نهاراً . ولكن الأمر افتضح فقد أخبرت جارية لها عبدا من عبيد الحارث بالغلام المخفى أمره لتبدأ رحلة طويلة من رحلات اغتراب الغلام ، إذ كان عليه أن يواجه والده الحارث وجده ظالماً وكل من وقف معهما إذ إن ابنا أسود يولد لهما يعد أمرا عجيبا حقاً .

ولقد كان موقف الغلام أبوزيد مختلفا عن عبدالوهاب . فأمه لم تكن تستطيع أن تخفيه عن الناس ، فهى زوجة غريبة لأمير من أمراء بنى هلال وتقف الروايات من سواده موقفين : روايات تفسر سواده تفسيراً مقبولاً بمنطق الجمهور الشعبى وبمنطق الدراسات العلمية الحديثة ، وروايات تفسرها تفسيراً مقبولاً للجمهور ولكنه تفسير كونى . وقد تجاوزت رواية عرب الشوا عن سواد أبى زيد ، فهو ليس موضوعاً من موضوعات السيرة وهذا متسق مع الرواة ، فأبو زيد الهلالى هناك هو فعلاً عربى ولكنه من العرب الأفارقة ، والعرب الأفارقة من منطقة جنوب الصحراء الكبرى قد اكتسبوا السواد ، ومن الصعب فصل ألوانهم عن غيرهم من الأفارقة ، وقد حدث تحول درامى من مشكلة سواد الطفل إلى مشكلة قدرة الطفل الفائقة حتى خاف منه الأب ، فهو يخشى أن يكون ابنه سعلاة من السعالى أى غولاً يأكل لحوم البشر ، فيأكله ويأكل أبناءه حين يكبر ، لذا طلب من بنى هلال أن يغادروا المكان الذى يعيشون فيه ليتركوا الغلام مع أمه وخادمته ، فالغربة هنا قد تمت للطفل دون أن يغادر مكانه ، تمت بحركة القبيلة للهجرة وترك الغلام مغترباً بلا أهل .

وتقوم سيرة بنى هلال المطبوعة بتفسير سواد لون أبى زيد

تفسيرا علميا يركز على عوامل الوراثة ، فقد كانت جدة خضرة لأمها سوداء ، كما كان جدها كذلك ، وقد أوصى الشريف قرضة رزقا أنه إذا جاءها ابن أسمر لا يظن فيها السوء :

ترى ستها سودا كان لونها
وجدها كان أسود كالعبيد (ص ٢٢)

وحين جاء أبوزيد أسود اللون بلون العبيد نسيت هذه الكلمات فى أمرها وأمره . أما الروايات الشفهية فقد قامت بتفسير سواد لون أبى زيد تفسيرا كونيا ، فقد جاء أسود اللون لأن دعوة أمه قد استجيبت . وحين أتضح لرجال القبيلة أنه أسود واجهوا الموقف بقوة ، فتذكر رواية عبدالرحمن قيقة أن الأمير رزقا لم يكن موجودا ، وأنه طلب من سلطان بنى هلال أن يطردها ويرسلها إلى أهلها .

وفى السيرة المطبوعة أن سرحان مزح معه :

يامير رزق ليس هذا خليفتك
هذا ابوه عبد اسود (السيرة ص ٢٧)

وهنا تعجل الأب فطلق زوجته وطلب أن ترحل غدوة إلى أهلها . ورواية الحاج عبدالظاهر تجعل الأب أكثر حربا على ابنه ، فهو لا يشك فى زوجته ، ولكنه مضطر إلى أن يخضع لموقف القبيلة التى ترفض أن تضم هذا الابن إليها وتحكم عليه بالحرمان من حقه فى البقاء فيها ، فقد توجه شيوخ بنى هلال نحو الطفل الماثل أمامهم ، يرون قتله إلا أن رزقا يحمى ابنه بجسده حتى لا يقتل . وفى رواية عبدالسلام حامد أن الذى أراد قتله هو أخو رزق السلطان سرحان ، غير أن القاضى بدير طلب منهم أن يرفعوا أيديهم عن الغلام ، ولقد واجهت خضره أزمة ، فلقد كرهها جميع العرايب لأنها أنجبت

فرخا من عبيد الجلايب . وفى رواية عوض الله عبدالجليل أن الأمير سرحان أظهر دهشته من هذا الغلام وهو يحدد من البداية أن قتل الطفل حلال وقد حكم ، وكان حكمه قاسيا ، ولكنه متسق مع تقاليد القبيلة :

ابن الزنا قتله وموته حلال
لا خيرة فى مولود ميجيش لباه
لا خيرة فى مولود بييجى من الزنا

وأخذ سرحان يدفع رزقا ليطلق خضرة وبرغبته فى تزويجه من زغبية جميلة منعمة :

طلق خضره يارزق تنول المنى
طلقها ياهلالى فى هذا السنا
واديك زغبية عليها كلام
واديك زغبية عليها القول عجب
شواطع من فضة والمناطق دهب .

طلقها رزق الهلالى تحت هذا الضغط الاجتماعى ، فالطفل يجىء غريباً عنه وعن زوجته فى لونه ولا يجد له وسيلة ليواجه قومه به ، فكان بطلاقه من خضرة قد ترك ابنه لرحلة الغربة والاغتراب ليربى بعيداً عن قومه لتأخذ السيرة طريقها الذى تعودته حين يغترب البطل ليعيش بعيداً عن عالم يصارع الواقع بحثاً عن الانتماء .

وفى رواية فيقة أعطيت ما أتت به من بيت أبيها من مال "ويزيدها قدو من حر ماله" (من أقاصيص بنى هلال ص ٥٨)

وفى رواية عبدالسلام حامد أن قاضى العرب ضرب دبوسه في العراء فكان جميع ما وصل إليه الدبوس يعطى لخضرة فأخذت خضرة ثلثى مال رزق .

أما الحاج عبدالظاهر فقد روى أن مشايخ العرب حكموا أن جميع من ولد مع خضرة الشريفة وفيهم حسن ودياب وجميع الإبل والماشية التى ولدت فى هذا اليوم تذهب معها فى رحلة غربة ابنها البطل الطفل .

وتذكر رواية عوض الله عبدالجليل أن رزقا طلب من عبده نجاح أن يرمى الدبوس ومحل سقوطه يكون حدا لما يعطى لخضرة من ماشية وأغنام فى رحلتها حتى لا يصبح ابنه معرة بين العرب .

محل ما يحط الدبوس وعينك تشوفه من بعيد
إديه لخضره ياعبد وليها جباه
ولا يصير ابنى البطل أبوزيد
وسط الفوارس (الهلايل ـ العرب) معيبه

وحين أراد نجاح أن يرمى الدبوس أخذه منه الخضر ورماه فسار فى الجبل يقسم مال سرحان ورزق نصفين . وخرجت خضرة مع ابنها لتذهب إلى ديار أبيها والقاضى فايد يسير معها ولكن المرأة بعد مسيرة ثلاثة أيام ترفض أن تتجه إلى منازل أبيها .

وفى رواية الحاج عبدالظاهر أن عشرة فرسان ذهبوا معها ليأخذوها إلى ديارها وأنها طلبت منهم أن يعودوا من حيث أتوا وأن يقولوا لرزق إنها ذهبت لأبيها وأن يتركوها والعيال والمال ورزقها على الكريم .

ولقد أبرزت رواية عوض الله عبدالجليل تقدير المرأة لزوجها فهى لا تستطيع أن تتجه نحو والدها حتى لا تضع زوجها فى مأزق ولا يظهر بمظهر المستهين بها :

قربت على القاضى خضره .. باست يداه
قالت له انا مقدرش اصوب يم ابوى فى هذى السنا
إن قلتم رزق الهلالى هون فينا
ماقدرش اقول القول ولا اتكلموا

وهنا غلب الألم على المرأة فأخذت تدعو الله أن يجازى من ظلمها :

ياما الزمن حكام على ناس كتير
اللى امر بافتراق شملنا ياامير
يفقد من الهلايل وتطفش نساه

تبين القاضى فايد بن مناع انهم وصلوا إلى أرض الزحلان فتركها خوفاً منه فهو من أعدى أعداء بنى هلال .

يذكر الحاج عبدالظاهر أنه بعد أن تركها الفرسان أتت إلى بلد الزحالين وسلطانها أبو الفضل الزحلان الذى رحب بها وبابنها ومن معها ، وفى هذه الأرض الغريبة ربى الطفل أبوزيد وكل من ولد معه وحكم عليه بالنفى .

وفى رواية عبدالسلام حامد أن قاطع طريق من بنى عقيل اسمه الضباع وقف فى طريقها . وجدها جميلة فأراد أن يهتك سترها ، سألت الله أن ينقذها فخلق الله لها رسولاً من تحت الأرض شتت الضباع ، وشتت رجاله ، وفى الصباح كان المال قد وصل إلى أرض ملك الزحلان ، فاتجه نحو أصحاب المال فوجدها ، فاستجارت به . فأجارها ومكثت ليتربى أبوزيد

فى غربته عنده . أما رواية عوض الله عبدالجليل فتذكر أنه تصدى لخضرة فى الطريق قبل أن تصل إلى الأمير أبو الفضل الزحلان عطوان وعربه ، فخرجت إليهم ملثمة تبكى دون أن تفقد شجاعتها ، فأخذت تسبهم لأنهم معرة للفرسان .

جوها عرب عطوان يهزوا القنا
قال ادخلوا الصيوان مادالّلى هنا
طلعت خضرة الشريفة ومِتْلَتّمَه
تبكى لكن دموعها دمـا
عيب على فرسان تعر الحريم
الفعل ده ميفعلوش إلا اللئيم
اللى يكون طاهر وجسمه سليم
لم يفعل المكروه لطول المدى
لم يفعل المكروه لطول الدوام

وقد وصفت خضره عرب عطوان بانهم أراذل حفاة وأراذل طموش ، وعندما سمع قولها زعيمهم داغر امتلأ بالغيظ وسأل رجاله أن ينهبوا أموالها ويسلبوا الأطفال وأن يتركوها فى الفلاة وحيدة تقاسى الذل والمهانة . وفى قمة الأزمة جاءها إنقاذ كونى من الإمام الخضر عليه السلام ؛ جاء فى صورة سبع ليشتت عرب عطوان وتبدأ علاقة كونية بين طفلها أبى زيد وبين الخضر عليه السلام ليدخل عالم البطولة متصلا بالعالم الغيبى .

"إلا وسبع اضرع عليه السلام
ياتى من الخلا يمشى ويسرع بالعجل بخطاه
راح ليها لقيها تبكى وجنبها ابنها
شتت نياهم بإذن واحد احد"

بعد هذا حزم الخضر أبا زيد وباركه ليواجه غربته قويا . ثم اختفى فجأة عن الأعين . وبعدها قدم مباشرة أمير الزحلان فاستقبلها الرجل أحسن استقبال ليبدأ الطفل حياة الغربة فى كنف هذا الأمير وقد منحهما الأمان والسلام .

"ربى وليدك ابو زيد فى هنا وأمان"

وسارت طفولة أبوزيد معبرة عن البطل الطفل . وإذا كان الأمر قد استقر للطفل عند الزحلان بعيداً عن أبيه فإن الأب أيضاً عاش غربة واغتراباً فرضهما على نفسه منذ رحيل ابنه عنه . ففى رواية الحاج عبد الظاهر أن رزق بن نايل حلف يمينا الا يقعد فى نجع هلال ، ولقد أخذ ابنته شيحة وذهب إلى الجبل الأخضر ليعيش بعيدا عن أهله وعن كل ما يربطه بهم متوحشاً هناك . وقد اختصرت رواية عوض الله عبدالجليل الموقف فى تعبيرها عن الاغتراب الإرادى للرجل بأنه حلف يمينا ليطلق فراش السلطان مع طلاقه لامرأته .

"حلف يمين واتق وباع واشترى
طلق فراش السلطنه والمره"

كبر أبوزيد ، تربيه أمه ويهتم به أبو الفضل الزحلان . ويروى الحاج عبدالظاهر أنه "رحب بيهم وأداهم منازل وأداهم كل حاجة وعمل لهم مدرسة لأولادهم وكل حاجة تمام" . وفى الكتاب نبغ أبوزيد حتى وصل من العمر سبع سنين ليكشف عن وجه الطفل البطل .

وفى رواية عبدالسلام انه اختلف مع عريف الكتاب فقتله . وتتفق رواية عوض الله عبدالجليل فى أنه قتل العريف وتذكر الرواية أن المعلم كان مخطئا .

طلع الفقى عايب وعيبه جزاه
طلع الفقى عايب وعيبه غلب
رحلوا الكتاب ابوزيد ده اللى كتب
وانتهى الأمر به إلى قتل العريف .

ويروى عبدالسلام أنه قتل اثنين من عرفاء المكتب . وتجمع الروايات التى بين يدى أن أبا زيد الهلالى درب على الحرب مع رفقاء طفولته ؛ كان يسبقهم ويبرز من بينهم على أنه الطفل البطل ، وقد بدا من علاقته بأمه أنها ملاذه الوحيد وأنه ينمو محترماً لها مقدراً تربيتها له ، ومع أن مربيه فضل الزحلان لم يكن يقترب من مساكن خضرة وابنها إلا أن الطفل ربى معتقداً أنه أبوه وهنا جاء أحد أعداء القبيلة ليأخذ منها الجزية .

تختلف الروايات فى تحديد هذا العدو . فالسيرة المطبوعة تروى أنه ربى مع نعم ونعيم أبناء فضل الزحلان وأن عريف المكتب بعد أن أخطأ مع أبى زيد حاول أن يرضيه بتعليمه علوم الحياة وعلوم الحرب فعلمه اللغات كما علمه علم الصباغات وهى العلوم التى ساعدته على القدرة على التخفى .

سامحنى يابركات واجبر بخاطرى
لأنى ندمت على ضربك كتير
وانا أعلمك لسان الترك والكرد
ولغة الطليان ولغة البربر
ولسان فارسى واجنبى ينفعك
ولسان سريانى تصير مشير

واعلمك علم الصياغات كلها

فتصير مثلى فاهما وخبير" (السيرة ص ٣٠)

كما علمه لعب الرمح وأبواب الحرب ليل نهار مدة خمس سنوات ، حتى تعلم جميع العلوم ، وقد جازى أبو زيد معلمه بإعطائه كل يوم ديناراً . وبعد أن اكتمل فارساً وصل كتاب لحد أعداء الملك ـ وتسميه الرواية هنا أبا الجود ـ يطلب أموالا من الزحلان . أخذ أبو زيد الرسالة ورد عليه ردا مهينا ، فغضب أبو الجود من الملك الزحلان غضبا شديداً ، وأرسل وزيره فطعنه أبوزيد فى صدره فوقع قتيلا . وحين علم أبو الجود بمقتل وزيره خرج للحرب فطعنه أبوزيد بالرمح فى صدره فطلع يلمع من ظهره . تسامعت أخبار أبى زيد لبنى هلال وقد أمحلت أرضهم فى تلك الأيام .

يروى عبدالظاهر أن العدو الذى جاء لحرب الزحلان كان اسمه جايل صاحب المنطقة السحرية التى تتحكم فى الجان وقد استولى عليها منه أبوزيد فى هذه المعركة كما قتله أيضاً .

ويروى عبدالسلام حامد أنه بعد أن قتل العريفين أرسل أهلهما إلى الملك الضباع يخبرونه بغنى الملك فضل الزحلان ويطلبان منه أن يأخذ من الملك الجزية وعشر المال ، فقتل أبوزيد الملك الضباع فجاء للثأر أخوه الملك سنان ملك القطيفين فقتله الملك فاضل ، ثم جاء الأخ الثالث وهو الملك مرهف ليثأر لأخويه فقتله أبوزيد فجاء جايل . أى أن أبازيد قتل ثلاثة ملوك قبل أن يلتقى بجايل . وطالت الحرب بينه وبين أبى زيد إلا أن أبازيد هزمه ، واستولى على منطقته بواسطة الخضر عليه السلام ثم قتله

وتذكر رواية عوض الله عبدالجليل أن أعداء طغاة نزلوا أرض الزحلان واسم قائدهم عطوان ، وهو ابن داغر الذى تصدى لها فى رحلتها من أرض الهلالية إلى أرض الزحلان . واستولى عطوان عنوة على عشرة آلاف جمل والزحلان غائب . كان هذا المعتدى عطوان وقومه قد جاءوا بالعديد والعدد :

"نزلت على الزحلان اعادى طغاه
نزلت على الزحلان اعادى فجور
من لجل عشر المال على من يكون
عطوان وابوه يحكم على الف سور
ماليين قلاعهم من الحرب العسير"

وأرسل رسولاً إلى الزحلان الذى جاء بالعجل فاستدعى الغلام الذى أقسم بحياته للأمير أن يعيد المال .

"وحياة دراعى انا
لو راح جمل منهم دراعى فداه
لكنت اموت ولا يكسبوه العدا"

ركب الأمير أبوزيد فرسه ومعه أبو القمصان وركبت معه الفرسان ليواجه عطوان . وصرخ الزحلان على عرب عطوان يهددهم بألا يفرحوا بالمال فقد أتى أبو زيد . والتقى بعطوان فضربه بحربة خرجت من قفاه وما إن قتل عطوان حتى هرب جيشه مختفياً . وتوجه سريعاً إلى فضل الزحلان الذى كان يتصوره والده .

خبلـوا بحـربـه عـودهـا تمـر
طل الخشب غير الحديد من قفاه
طل الخشب غير الحديد من القفا
وشال دراعه من ع الجواد واكتفى

لما كتل عطوان وجيشه اختفى
راحوا لأبوه الكل وقالوا له النجى

وهنا هب داغر غاضبا فدق طبول الحرب فتقدمت الألوف إليه مستعدة للقتال بجانبه :

نبه طبول الحرب وجولوا غفاه
نبه طبول الحرب وجولوا الوف
زرد يمانى والدروع ع الكتوف .

تصف الرواية أبا زيد بأنه مازال ولدا . فالرواية تذكر حربه بحرب الولد كما تذكر أيضا أن داغراً استهتر بعلم الولد البطل :

واتمنعوا اللى شافوا حرب الولد
ع اللى راوه محدش جاى له جلد
استهتر داغر بعلم الولد

وتدور رحى المعركة بين الرجل المدرب على القتال والطفل . وقد ظهر واضحا أن أبا زيد يحاربه وهو يعرف أنه تصدى لوالدته حين كانت فى البرارى تحمله . فضربه ثلاث ضربات فألقاه على الأرض قتيلا ، وعاد الفارس الطفل بصحبة الرجال وخلفه مائة حرة تزغرد وراءه . ولم تنته المعركة عند هذا الحد ، وإنما ذهب عرب عطوان إلى الأمير جابل الذى تصفه الرواية بأنه صاحب ألاعيب وحيل :

بلد الأمير جابل وصاحب لعب
ليه شواطح من فضه والمناطق دهب

وجميع الروايات الشفوية التى استمعت إليها - من محافظة قنا وأسوان - تجعل أبا زيد يحصل فى هذه المعركة

.ى المنطقة ذات القدرة الكونية بمساعدة الخضر عليه السلام ويقتل جابل ليعود الطفل الغريب إلى بنى الزحلان ليرتبط اسمه باسمهم طيلة حياته . ولكن غربة البطل لا تنتهى إلا حين يتم التعرف على عالمه .

وكانت أسباب اغتراب الأيتام عن قبيلتهم مختلفة عن أسباب اغتراب غيرهم من الأبطال ، إذ لم يكن ذلك غضبا عليهم من القبيلة وإنما كانت بإرادة قيادة الجماعة حرصا عليهم من أعدائهم .

والأيتام مصطلح يطلق على الجيل الذى ترك أهله ووطنه ـ من بنى هلال ـ وله من العمر سنتان ، وكذلك الأطفال الذين ولدوا فى هذه الغربة . ويتناول الأيتام فى فصل كامل روايات ثلاثاً : للحاج عبدالظاهر ، والنادى عثمان وعوض الله عبدالجليل . وتجمع الروايات الثلاث على أن رحلة الغربة قد بدأت حين استولى دياب على الحكم ، وفقد أبوزيد بصره حزنا على موت حسن السلطان وحكم عليه دياب أن يعمل على بير خليفة سبالا ، يملأ للنسوة دلاعهن ، وقد قرر أن يقتل الأطفال وأن يبقر بطون الحوامل حتى لا يظهر من بنى هلال فرسان يحاولون أن يثأروا لأهلهم وينازعوه السلطة . علم أبوزيد بما ينوى أن يفعله دياب فاستدعى الجاز زوجته السابقة وابنة عمه وبنت السلطان سرحان من شمة بنت الحسب سيد النسب .

وتلعب الجاز فى هذا الجزء الدور الرئيسى فى حماية الأيتام فى غربتهم . ولقد حازت هذه المرأة إعجاب الجمهور من مستمعين ودارسين حتى إن شوقى عبدالحكيم يراها فى موقع الكاهنة القمرية ، والأم لهذا التحالف القمرى (سيرة بن هلال ص ٢١) . وقد وصفت الجاز بأوصاف كثيرة ، ولكن الشيء الواضح للباحث

ان أجزاء كاملة من أحداث السيرة بنيت وفق تصرفاتها ، فهى التى اقترحت توجيه أبى زيد ليرود الغرب .

وكانت القوة التى تجمع الهلاليين فى معركة الغرب ، وتراقب معنوياتهم وترفعها حتى لا تسقط فى معركة كبيرة كهذه ، وهى التى أوحت إلى أهلها بإبعاد دياب عن المعركة حتى تحين اللحظة الحاسمة . وحين تحتاجه توحى بإخراج الخفاجى لملاقاة الزناتى خليفة . وكانت وراء كل التدابير الحاسمة فى السيرة منذ أن بدأت التغريبة . ومن هنا كان طبيعيا أن يجمع بنو هلال بأن لها حق إرث أبيها فى الملك بوصية والدها ، فيكون لها الثلث فى المشورة لا يقضى أمر دونها . ولا يفتأ يذكرها الراوى الشعبى النادى عثمان .

ست العيون الرياشى
كلامها وسط العرب جاز
كلامها مصدق وماشى

وعند التغنى بها لا تنسى الرواية أن تذكر دائما انها امرأة . وهى نفسها لم تنس أنوثتها ، فهى الفتاة الجميلة صاحبة المشورة :

بعتوا للجاز اربع مراسيل
قال ياعزك يخبروك
إحضرى ياست الخلاخيل
ولاد عمك عازوك .

ولكنها كانت تتخلى عن أنوثتها وتتناسى عشقها للرجل وتترك كل ما يتصل بوجودها فى سبيل القبيلة ، فقد تركت زوجها الأمير شكر الذى تحبه لتصحب بنى هلال فى رحلة التغريبة ، وكانت علاقتها بأبى زيد فريدة ، فلقد كانت المرأة المقابلة له والمساوية له فى وقت واحد . كما كانت هى المرأة الوحيدة التى لجأ إليها أبوزيد فى

محنته بعد أن فقد بصره وحكم عليه أن يكون سبالا على بئر خليفة . فاستدعاها أبوزيد ، فهى أقدر النساء وأقواهن ، إنها الوجه الآخر له . ولو تحول أبوزيد إلى امرأة لكان الجاز ولو تحولت الجاز إلى رجل لكانت أبا زيد . فبعد أن أنزل دياب غضبه على بنى هلال وقرر أن يقتل الأطفال فى الفجر وأن يبقر بطون الحوامل ، سرى الخبر إلى الجاز واستدعاها أبوزيد إليه .

تصور السيرة حكمة كل منهما ، وماتزال الرواية تصف الجاز بأم العيون الكحايل والحزن يطغى على أبى زيد ويرهقه :

ولا عقدة ان ما كان اتحلت
وعلى يد ولد الشريفه
وفاح الخبر للجاز
وام العيون الكحايل
ولمت بنات الهلاليل
ولمت بنات دريد .. ودى مافى الهم حجاز
وبحياة طرقه لمانه
وراحت للهلالى سلامة
وراحت لرئيس نجد
يدوس الأراضى المخيفة
وعميان وصايبه الوجد
ياخساره وليد الشريفه
ياخسارة البطل ابوزيد
يكون على البير سبال
يكون سبال ع البير

ويتفق النادى عثمان وعبدالظاهر فى اسم البير بينما تسمى فى رواية عوض الله عبدالجليل "عين توزه" . وتذكر رواية النادى عثمان اللقاء الذى تم بين دياب وأبى زيد بعد أن عرف أنه قد فقد بصره ، فتنمر وأخذ يسب أبا زيد وقد تدخل والده متشفعا فيه :

دياب قال له غور من وشي ياقوار
واحكم وارسم بكيفى
لحسن اقوم حمقان آخذ راسك بحد سيفى
وقال غور من وشي ياقوار
انا ابو سؤال ع الكل راضي
لحسن اقوم حمقان القحك غَ الأراضى
تعالى ، قال له أيا عبد ياكير
تبقى العواقب سلامة
ومعاك غلضت الصراصير
نفخوك بقولة سلامه

انتظرت الجاز رأى أبى زيد . إنها اللحظة الحاسمة التى يتحدد فيها مصير بنى هلال ومستقبلهم . ويتغير الموقف فى السيرة ، فبعد أن كانت المشورة للجاز والفعل لأبى زيد صارت المشورة لأبى زيد والفعل للجاز ، فيطلب منها أن تذهب إلى محمود البياضى ، وتخبره أن أبا زيد يرسلهم إليه ـ كما فى رواية الحاج عبدالظاهر أيضا . وفى رواية النادى عثمان تذهب الجاز إلى أبى زيد للمشورة :

قالت له تعالي أيا بركات
دياب قايم بركات
راح يفقع كل التقيله

فيوصيها أبوزيد أن تذهب إلى محمود البياض ولا تخبره أنها من بنى هلال وإنما تخبره أنها بنت الزناتى خليفة ؛ ابن عمه .

لم يعش الأيتام كلهم مع الجاز ، ففى احدى الروايات ربى مخيمر بعيدا عنها فى الغربة ، كما ربى صبرة بعيدا . وفى رواية عوض الله أن المخاض جاء الناعسة فى الطريق فتركتها الجاز فأخذت تربى ابنها زيد فى هذه البرية . أما رواية النادى عثمان

فتجعل الجاز مربية لجميع اليتامى ، أى أنهم ربوا جميعا عند محمود البياضى . كما أجمعت الروايات على أن الجاز قامت بتربية الأبناء خير تربية وفى ذهنها أن تعيدهم إلى أرض الوطن وإلى الهلالى المنتظر عند بير خليفة .

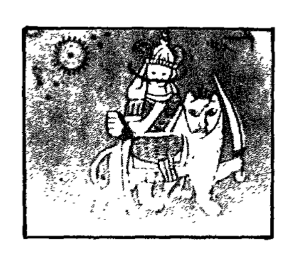
ولا تذكر رواية عوض الله عبدالجليل شيئا عن معتد جاء إلى أرض البياضى قبل رحيل الأيتام . غير أن رواية الحاج عبدالظاهر تذكر أن عدوا للبياضى جاء يطلب الجزية واسمه جرامون ، وهو نفس اسم الجد الثانى للجاز ولأبى زيد . فهل كان ذلك من عبدالظاهر مجرد اسم لعدو أى عدو ؟ أو أنه تعود أن يرويه هكذا فى كل مرة عندما يتحدث عن الأيتام . والرواية تقص قصة جرامون مكررة نفس الأحداث التى مرت فى طفولة أبى زيد عندما التقى بالعقيليين . وتحدد الرواية أن عمر الأيتام كان بين ستة عشر عاما وسبعة عشر عاما ، أما رواية النادى فتحدده بين العاشرة والثانية عشرة ، حين جاء عدو البياضى ، وتحدد هويته بأنه يهودى ، فيخرج له على أبو القمصان وريث أبى زيد فى الشجاعة فى رواية النادى .

ولقد كانت لحظة حاسمة للجاز لاختبار قوة أبنائها من بنى هلال وهم يواجهون عدو محمود البياضى اليهودى ، فلقد امتلك أرض البياضى وأخذ يخرب فيها فهدم رجاله الجنان وهدموا السواقى ، وجعلوا أعاليها أسافلها . فتصدى له على ومعه أبناء بنى هلال ، ولم تكن المعركة بينهما هينة . والرواية تصورها تصويرا دقيقا يوضح شدة مجاهدة المتحاربين فقد كانا سبعين متوحشين من سباع الجبال .

تحلف وتقول سبعين
نازلين من قرى الاجيال
داق الحلق وسع الملق

هلف الرجال فروطار
قلعوا لها بالعبابيس
فى نهار بلا السلامة
تسمع رطن الدبابيس
تارت هوال القيامة
ياما نسوان نوحت
ياما خليقة اطوحت
ياما خيل روحت
بعددهامن غير سجعان
آدى السوق إزاط واتراط
آدى اليهودى ضنينه لقاته
على سطه بمزراق
كسر أربعه من ضلوعه

سقط اليهودى ميتا . وبموته كانت نهاية المعتدين وبداية جديدة للأيتام ، لتبدأ رحلة العودة ، ومرحلة التعرف والاعتراف .



التصرف

والاعتراف

يعد التعرف هنا تتويجا للصراع الذى يعيشه الطفل البطل . ويمثل بداية الطريق لوضع اسمه فى عالم البطولة ولايتم التعرف به بطلا إلا بعد عبوره من اغترابه وغربته فهو اعتراف بعبوره ، فالبطل الذى يغترب عن قومه فى السيرة الشعبية لابد أن يعود اليهم مرة ثانية لتتم المواجهة . فالغربة يتبعها لقاء . واللقاء تتبعه مواجهة حربية ، ويكون البطل الأقدر والأقوى ساعة المواجهة ، فهو صاحب الحق المظلوم ، وهو الطريد المغترب .

وغربة البطل ضرورة ، ليدرب بعيدا عن أهله ، وليملك الدافع الذى يحركه لتحقيق ذاته بأعماله البطولية ، وهو المصقول بتجاربه . وربما لو ربى بين أهله وفى رعايتهم لكان الغلام الهش المدلل ، ولفقد الدافع المحرك لبطولته ، ذلك الدافع الذى يجعله متسيدا عليهم ، فهو فى مواجهته لقبيلته يقف موازيا لها . فقومه يواجهونه بكل رجالاتهم ويستعدون عليه حلفاءهم ، ليقف فى هذا اللقاء ، ويثبت تفوقه وتتأكد فهو هنا يكون قد حقق شعيرة العبور .

وتتعدد صور الصراع لتحقيق هذا العبور ، فقد تتباعد وقد تتقارب وفق طبيعة المواجهة وطبيعة الأزمة التى يعيشها البطل ، فأزمة أبى زيد تختلف تماما عن ازمة عبد الوهاب . وتتغاير صور هذا الصراع عند الجرو وعند جيل الأيتام ، فالجرو لايصارع قومه لظلمهم إياه وإنما لجهله بعلاقته بهم والأيتام فى اغترابهم ليس عن ظلم أهلهم ، وإنما عن ظلم أعدائهم لهم ، فهم يعودون لا ليواجهوا أهلهم ، وإنما ليواجهوا أعداءهم . وكذلك بيبرس ، لايعود الى أهله فى خوارزم وإنما يعود الى مصر ليحارب أعداء الاسلام .

أما حمزة البهلوان الأمير ابن الملك ، فهو الذى يعد الاستثناء الوحيد من بين أبطال السير الشعبية الذى لم يغترب ولم يعد محاربا لأهله . وكان دوره أن يربى بينهم ليعمق إحساسه بعروبته حتى يتعرف دوره ليثبت وجودهم ضد الفرس .

لقد كتب على حمزة البهلوان ان يرفع نير الفرس عن العرب ..

وكتب عليه أن يهدم معابد النيران . وقد عرف والده ذلك ، واهتم به . ولم يكن فى حاجة إلى مواجهته مع قومه ولا حاجة لإثبات أنه أقواهم ، فهو الأمير ابن الملك ، ولد سيدا ، وتكشفت بطولته دون منافس ولم يبق إلا أن يتعرف هو نفسه على دوره فى هذا الكون .

وقد درب الأمير حمزة على كل فنون القتال ، وبرع فيها وهزم كل من لاعبه بالسنان ، وكان يخرج ومعه قرينه عمر العيار للصيد فى البرارى ، وكعادة الأبطال اصطاد أسدا . ومثله مثل المهلهل وعنترة احتقر صنيعه ، وكره ان يباهى بقتله «هر البر» .

كان حمزة قد بلغ العاشرة عندما تعرف على دوره الكونى ليبدأ بعد ذلك الرحلة المقدرة عليه قبل ميلاده ، فقد ذهب إلى البر للصيد مع رفيقه عمر العيار . وقد حمى البر واشتد الحر ، فظمأ فطلب الماء فلم يجده ، فازداد ظمؤه ، وتحول العطش إلى لهيب نار فى جوفه ، ولم تعد له طاقة على الصبر ، فذهب عمر ليبحث له عن الماء . وسار حمزة نحو شجرة كبيرة يستظل بظلها ، وقبل أن يصل اليها لاح له فارس عن بعد ، فاتجه اليه ليطلب منه شربة ماء فوجده بلحية بيضاء كالثلج يتدفق منها النور ، وعليه من الهيبة والوقار والعظمة والجلال مالم يره فى غيره من البشر ، فسأله شربة ماء ، فطلب منه ان يقف مكانه ويتعرف على من أمامه ، وقدم له الماء . وبدا واضحا أن الرجل يحمل الماء خصيصا له ، فنظر حمزة اليه مبهوتا وسأله عمن هو؟ ومن أين عرف أنه عطش حتى يأتى بالماء ؟ .

كشف الرجل عن نفسه ، إنه الخضر الأخضر أبو العباس عليه السلام (جـ ١ ، ص٧) وأنه يعرف ماحدث ويحدث ، وقدم له قربة الماء ليشرب ، فماؤها لذيذ جدا . وبعد ان يروى عطشه يحدثه حديثا جاء ليخبره به .

وارتاح حمزة حين أدرك أنه أمام الإمام الأعظم ، وهنا نزل حمزة عن جواده ، وتقدم بأدب جم ، فشرب من القربة ، واكتفى ورجع الى الوراء . وسأل الإمام الخضر أن يكون مساعده ومعينه وعونه عند ضيقه . وهنا قام الخضر عليه السلام بتعريفه بالدور الذى سيلعبه فى خدمة أمته ، وقد أتاه اليوم ليخبره أنه هو الرجل الذى يترفع به شأن العرب فى هذه الأيام لأن الله لايحب أن يذل هذه الأمة لمقاصد له فيها ، وسوف يعززها ويكرمها ويرفع مقامها فى الأيام المقبلة ، وأن البداية أن يكون معينا لكسرى ويرفع منه الشدة ، ثم حكى له الخضر حلم كسرى .

وبعد أن تم تعرف حمزة لدوره نصحه الخضر عليه السلام بأن يرجع إلى أبيه ويطلب منه أن يسلمه الثمانمائة غلام الذين ولدوا يوم ولادته ويجعل منهم رجاله المقربين وأن يعتنى بهم ويعلمهم بنفسه كل فنون الحرب التى تنقصهم ويجعل قيامهم وقعودهم بين يديه ، فهم قد وجدوا لمساعدته فإذا غزا قبيلة عاصية أو قاتل ملكا على غير دين الله ، فيكونون رفاقه .

وكان حمزة مطرقا حين كان الامام يتكلم . وبعد أن انتهى من كلامه رفع رأسه ، ليدنو منه ويقبل يديه ، فوجده قد غاب عن عينيه ، ولم يعد له أثر ، وضاعت رائحة البخور التى كانت تلازمه ، وكان لابد أن يبدأ الساعة فى المسير فى الطريق الذى عرفه وهو مازال طفلا امرد ، وخاصته مازالوا أطفالا مردا . (انظر السيرة من ١٤ ـ ١٦) .

وإذا كان الخضر قد قام بدور الموجه ليعرفه دوره فقد استبدل فى سيرة سيف بن ذى يزن بالشيخ جياد ، إذ كان هو القائم بتعريفه دوره . أما فى سيرة المهلهل فقد كان دور العابد هامشيا .

ويتم تعرف سيف على نفسه ودوره وهو فى غربته ، فهو منذ

طفولته يتحرك فى دائرة «القدر» . والصراع الذى يدور حوله صراع ضد القدر ، فقد بدأت المواجهة بينه وبين أهل أمه الذين حكم عليه أن يحقق دعوة نوح فيهم ، فهو أداة القدر ، وأعداؤه يقفون فى مواجهة القدر ومحاولتهم التخلص منه إنما هى محاولة للوقوف ضد حركة القدر ، حتى لا تتحقق النبوءة ، وقد كانت محاولتهم الجادة للتخلص من والد سيف ثم من سيف هى التى أسهمت فى تحقيق النبوءة ، فقد كانوا الأيدى التى وجهت سيف ليساعد فى تحقيق مايخشون منه وهو تحقيق النبوءة .

لقد أرسلوا أمه لتكون دسيسة على الملك ، ومنذ هذه الساعة والنبوءة تأخذ فى التحقيق . وكان الرحم الذى يحمل ابن ذى يزن محقق النبوءة هو رحم بنت دسوها عليه . لقد كانت الوعاء الذى حمل الطفل تسعة أشهر ليخرج الى البرية لترضعه الجنية . ويتعرف عليه الملك أفراح وهناك يلتقى بسقر ديون الذى يطلب منه المطلب الصعب ليدفعه للمسير نحو تحقيق «القدر» والصراع كله هنا صراع ضد القدر وليس ضد سيف ، فسيف هذا أداة القدر .

وتأتى اللحظة التى يجب أن يتعرف فيها سيف على نفسه فإن أعداءه يعرفون من هو ؟ أما هو فيعيش طفولته دون أن يعرف حقيقته .

لقد لعب دور المعلم الكاشف له نفسه ، ودور من يعرفه حقيقته ، الشيخ جياد . قام جياد هنا بدور البديل للخضر عليه السلام . فقد ذهب سيف ليأتى بكتاب النيل وحبيبته تثنيه عن عزمه فإن بإمكانهما أن ينزلا فى أى مكان يقيمان فيه حتى تدركهما الوفاة ، ولكن سيف يرفض وقد وجه اليه كلمات تعبر عن اعتزازه بفروسيته وأخلاقه العربية ، فقد قال لها : « نحن قوم عرب ، إذا وعدنا

وفينا ، وإذا قدرنا عفونا ، وإذا قلنا : نعم لانقول : لا . وإذا قلنا : لا ، لانقول : نعم » .

(السيرة ص : ٦٨)

ولو توقف عند رأى شامة ماتم له أن يحقق قدره وماتم له أن يتعرف على حقيقته ، وقد عرفها دون أن يسعى اليها ، لقد جاءت إليه الحقيقة ، لأن معرفته توجهه نحو تحقيق قدره .

لقد خرج سيف يقطع البرارى والآكام مدة سبعين يوما بالتمام وهو لايرى فى طريقه أحدا من المخلوقات حتى أشرف على جبل عال ، وحوله روضة ونزهة للناظرين ، بها أشجار باسقة وأنهار دافقة ، وأغصان مورقة ، ومياه متدفقة ، والطير ناطق يسبح الإله الخالق ، وفى جانب ذلك الجبل من أعلاه صومعة ، فسار حتى وصل إليها ، ولما وقف بباب الصومعة سمع صوت انسان يذكر الرحمن الرحيم وهو يقول : ياحنان يامنان ، ارحم عبدك الفانى ، أنت الباقى وكل من عليها فان . فتقدم إلى باب الصومعة ، وقد تأثر بما سمع فنزلت دموعه متتابعة ، ودخل مطمئن القلب دون أن يعلم إن كان هذا انسيا أو جنيا ، وسلم عليه ، وقد وجده أسمر اللون ، طويل القامة .

وكان لابد للرجل أن يكسب ثقته حتى يخبره مايجب عليه أن يعرف ، فطلب إليه أن يريح نفسه من كرب السفر فهو يعلم أنه سائر شهرين بالتمام ، ثم أبلغه أنه المختار الذى ينفذ دعوة نوح عليه السلام . وأخذ يعرفه بالله ، ويعرف سيف أنه يعيش مع قوم يعبدون زحل ، ويدرك بفهمه أن المعبود هو الله ، ولكنه لم يجد من يعلمه شيئا عن الله حتى يتبعه وهنا يتعرف سيف من الشيخ جياد على الله وعلى الاسلام فأخبره بأن المعبود الحق إنما هو الله عز وجل الذى خلق الأرض والسماء وأجرى بقدرته البحار ، وفجر الأنهار ، وهو الله الواحد القهار . وطلب اليه أن يعتمد على عبادته

ولايركن إلى سواه ، وسأله أن يقول الشهادة : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن إبراهيم خليل الله ، وأن محمدا رسول الله وهو آخر الأنبياء وخاتمهم الذى يبعث فى آخر الزمان . من نسل معد بن عدنان ، صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه الكرام أولى الفضل والإحسان . ومد يده ووضعها فى يد الشيخ جياد ، ونطق الشهادتين .

قضى سيف مع الشيخ ليلتين ، علمه فيهما الآداب الاسلامية ، الا يأكل إلا بعد أن يسمى بسم الله الرحمن الرحيم ، وعلمه الوضوء ، والذكر والاستغفار ، وباتا يستذكران ويستغفران حتى الصباح . وفى الليلة الثانية علمه قواعد الاسلام وعبادة الملك العلام ، حتى مضى الليل بالظلام ، وأقبل النهار .

وأخبره أنه سيقابل الكفار ، فإذا وقع فى قتال ، فعليه أن يذكر اسم الله الملك المتعال حتى ينصره ببركة اسمه على أهل الضلال . وعندما سأله عما يقول عند الضيق ، أجابه الشيخ . قل : الله أكبر ، الله أكبر ، وألا يفتر عن قوله : الله أكبر ، ليضرب فى الكفار بالحسام البتار ، ويطلب النصر من العزيز الجبار ، فإنه لاشك ناصره وحاميه ، فلا يصيبه فى الحرب دمار ، وودعه الشيخ ولم يتوقف عن تذكيره بالله .

ولقد لعبت شخصية العابد النعمان دورا مختلفا فى سيرة المهلهل ، فهو لم يقم بتعريفه بنفسه ، وبالدور الملقى على عاتقه فى هذا الوجود ، وإنما حل له ولأخيه بعض المشكلات إذ قصده كليب وهو متجه لقتل التبع حسان ، ووضح له ضرورة ان يأخذ حذره من الرصد الذى يحمى التبع ، فعلى الباب الأكبر تعلق سلسلة من النحاس الاصفر وهى مرصدة من سحر ذلك الزمان لهلاك من أراد ضررا بالتبع ، فتقع عليه بالحال ، وتذيقه الوبال . وأعطاه سيفا خشبيا ، ثم نصحه بما يصنع ليواجه التبع .

لقد استمع كليب لنصيحته ، ونفذها تنفيذا دقيقا . ونجحت الخطة ، وقتل التبع . ولم يذكر النعمان بعد ذلك إلا وهو يبلغ المهلهل بأن يتوقف عن الحرب مدة من الزمن ويخبره بقدوم سبع سنوات منحوسة عليه وأيامها عليه معكوسة ، ويحذره من أن يحارب أجدا فى هذه الأيام ، فاستجاب له .

ولايمثل صنيع العابد النعمان تعرفا لدوره ، فشخصية العابد الذى يتحدث عن المستقبل فى فترات من حياة البطل كثيرة الورود فى السير الشعبية . والنعمان لم يقم بدور المعرف للمهلهل دوره ، ذلك الدور الذى يوجه مسيرة حياته ، وانما قام بهذا الدور أخوه .

● ● ●

لقد ذهب كليب الى أخيه الزير ليعيده من منفاه الاختيارى الى القبيلة ، ويقيمه ملكا عليها ، فهو قد طعن فى السن ولا طاقة له بمعاطاة الأحكام . وقد وقع النزاع بين قبيلته وقبيلة بكر فعرف قلبه الهم ، وامتلأ بالخوف :

« بنو قيس وقعوا بحلف
وجساس نوى يركب عليا
فقم وشد عزمك يامهلهل
لأنك انت جبار عتيا
وإلا راحت البلدان منى
وصرنا معيره عند البريا

(قصة المهلهل ص ٥١)

تعجب المهلهل أن يكون أخاه خائفا ، فهو قد بنى قصرا من السباع ثأرا لحماره :

« سباع الغاب خافت من نزالى
وتخشانى ولم تقدر عليا
فاذهب يا كليب ولاتبالى
واحكم فى القبائل بالسويا

فـإن جـارت بنـو بكـر وخـــانت

فـلا اتــرك ، أخــى ، منهـم بقيا »

(ص : ٥٢)

بقي المهلهل مكانه ، وذهب كليب ليواجه جساساً وقد ملأت قلبه بالحقد سعاد أخت التبع حسان . وذهب جساس قاصدا كليبا ليقتله ، وأخذ يلاعبه بالجريدة ، فأصاب كليب ظهره فناداه كليب : ياابن العم . وسأله إن كان لايريد إن يلعب غير هذه الجريدة فليسرع ويضربه بها فينتهي الحال . ونزل كليب عن ظهر جواده .. ومشى نحوه ـ وقد تألم جساس من الضربة حتى إنه لم يعد يستطيع القيام ، وإذا بعبد العجوز سعاد يقدم ويجذبه من يديه ويرفعه ويدعوه لقتله ، فيتقدم نحو كليب والرمح فى يده ويطعنه فى ظهره فيخرج الرمح يلمع من صدره ، فيقع كليب وهو يتخبط على الأرض ويقف جساس أمام كليب وهو مضرج فى دمائه ، فيأخذه الندم ، ويعترف أنه ارتكب جرما جسيما بلا عقل ولاتمييز .

وتعد لحظة موت كليب من اللحظات المأساوية فى السيرة ، تمثل لقاء بين نبيل مترفع ، وخسيس يضرب فى الظهر . وكليب وهو مضرج بدمائه يعلن لجساس أنه ليس من أقرانه فى الميدان ، ولا فى ملتقى الفرسان ، ويسأله أن يذهب الى مساكنهم ليقرى الأيتام السلام ، ثم يطلب شربة ماء فيسقيه ، ثم يمضى . ويتقدم من كليب عبد سعاد ليجر رأسه فيطلب منه قبل أن يذبحه أن يلقيه بجوار بلاطة قرب الغدير ليكتب وصيته لأخيه سالم الزير .

كان كليب يقوم فى هذه الوصية التى كتبها بدمه بتعريف اخيه بدوره فى حياته ، ويحدد له فيها قاتله ، ويوصيه باليتامى ، ويحدد له عشر وصايا تكون دستور المهلهل فى حياته :

يقول كليب : اسمع يامهلهل
مذل الخيل ، قهار الأسود
على ما حل من جساس فيا
طعنى طعنة منها بعود
ايا سالم توصى باليتامى
صغار وبعدهم وسط المهود
واسمع ما اقلك يامهلهل
وصايا عشر افهم المقصود
فاول شرط اخوى لاتصالح
ولو اعطوك زينات النهود
وثانى شرط اخوى لاتصالح
ولو اعطوك مالا مع عقود
وثالث شرط اخوى لاتصالح
ولو اعطوك نوقا مع قعود
ورابع شرط اخوى لاتصالح
واحفظ لى زمامى مع عهود
وخامس شرط اخوى لاتصالح
وقد زادت نيرانى وقود
وسادس شرط اخوى لاتصالح
فإن صالحت لست اخى اكيد
وسابع شرط اخوى لاتصالح
واسفك دمهم فى وسط بيد
وثامن شرط اخوى لاتصالح
واحصد جمعهم مثل الحصيد
وتاسع شرط اخوى لاتصالح
فإنى اليوم فى الم شديد

وعاشر شرط اخوى لاتصالح

وإلا قد شكوتك للمجيد

(انظر : السيرة ص ٦١)

عرف المهلهل أن أخاه قد قتل ، فاشتعل قلبه بلهيب النار واعتراه الاصفرار ، فصار يلطم على وجهه بيديه وقد عظم الأمر عليه حتى رقصت شعرات شاربيه ، ومع ذلك لم تنزل منه دمعة واحدة ، فالسيرة تعده واحدا من الجبابرة السبعة ولا تذكر بقيتهم .

لقد أخرجته هذه الحادثة من عزلته ليبدأ طريق العودة الى قبيلته ، واتجه حيث يرقد جسد أخيه ، فوجده مطروحا والدماء من جسده تقطر وتسوح ، والناس واقفة حواليه ، فألقى نفسه عليه ، وهو يبكى ، ملء عينيه ، فقد أحرق بفقد أخيه . ولما اشتد عليه الأمر أرته اليمامة وصية أخيه المكتوبة على الصخر ، فالفتاة لاتريد أحزانا ، ولكنها تريد فعلا من عمها ، أن يتعرف طريقه ، ليس بين الأسود والتلهى بالخمر فى الفلاة ، وإنما بسماع كلمات أبيها ، فقرأها المهلهل وأقسم بالله المتعال ألا يصالح إلى الأبد مادامت روحه فى جسده .

(السيرة : ص ٥١ ـ ٦٩)

وابتدأ المهلهل بعد هذا التعرف طريقا جديدا . وإذا كان كليب قد قام بتعريف أخيه بدوره ، فلقد لعب شيبوب دورا مهما فى حياة أخيه ، وهو دور مختلف إلى حد كبير عن دور كليب ، لاختلاف وضعهما الاجتماعى ومكانة كل منهما فى القبيلة . فقد لعب الدور الرئيسى فى توجيه أخيه إلى الكيفية التى يدفع بها القبيلة إلى الإعلان عن معرفتهم لدور عنترة مدافعا عنها والاعتراف به سيدا من ساداتها وكفئا للزواج بابنة عمه (عبلة) .

● ● ●

وفى سيرة عنترة يعيش البطل اغترابه عن قومه ، مع أنه المدافع عن القبيلة ، فكان بعض أبنائها يقف ضده . فشاس ابن الملك والربيع بن زياد متحالفان ضده ، ويتآمران عليه ويرسلان له عبيدهما فيكمنان له فى الطريق ليقتلاه . وقد التقى العبيد فى طريقهم لقتله ، ببنى المصطلق الذين يطلبون رأس عنترة ، فاتفق الغرماء والتقى بهم عنترة ، وهم يتعرضون له ولابنة عمه عبلة ، فطلب من أخيه شيبوب أن يحمى ظهره بالنبال ، وخرج يقاتلهم فحمل عليهم فى ساحة القتال ، وصار يبددهم يمينا وشمالا ، وشيبوب من خلفه يحميه بالنبال ، هذا والغبار قد طلع وملأ جنبات البر والفلا والخيل تخرج من تحته خالية وأصحابها قتلى ، وسروجها تقطر بالدماء . والنساء قد أيقن بالنصر والحمى . (السيرة : ص ١١٧) . وعاش عنترة بين الرعى والقتال ، قتال أعداء القبيلة ، وقتال أعدائه من القبيلة . لايعرف له مكانا بينها . وقد أحب أجمل فتياتها وأنكروا عليه هذا الحب ، كما أنكروا عليه نسبه من قبل .

وقد وقف منه ابوه موقفا صعبا عليه ، فقد منعه من ركوب الخيل ، وأشهد بذلك سادات العرب . وفى إحدى الليالى باح عنترة بحب عبلة وذكرها فى شعره بين الفرسان فاحتدمت معركة بينه وبين عمارة بن زياد وقد كان ينافسه فى حبها . تدخلت العبيد بينهما ، وعلا الصياح حتى وصل الى سمع عمه مالك فخرج من صمته ، وتقدم الى عنترة ولطمه على رأسه وأهانه لمطاولته أبناء السادات وجرأته على عمارة . وطلب منه أن يعود إلى رعى الجمال فلما رأى العبيد ذلك تجرءوا على عنترة وأخذوا يضربونه بالعصى والحجارة حتى أشرف على الهلاك .

وجاء الملك زهير فتوقفت المعركة ، وبعد ذهابه جاء الربيع أخو عمارة وحرص على قتال عنترة ، وأتى مالك بن الملك زهير ووقف فى

جانب عنترة ، وكانت معركة حامية . وعنترة فى كل ذلك واقف يحفظ نفسه من عداه ، لايحاول قتل أحد منهم ، وانقسم أبناء القبيلة منه الى قسمين : قسم ضده ويتزعمه شاس بن زهير والثانى معه ويتزعمه مالك بن زهير أخو شاس .

يرى شاس أنه عبد ابن زنا ، فيطلب من أبيه الإذن بقتله ، ويؤيده فى ذلك مالك والد عبلة وعم عنترة ، فهو يرى أن العبد قد طغى وتعدى أطواره ، وسأل الملك أشراف قبيلته عما يريدون من عنترة ، فطلبوا إبعاده أو قتله ، فهو عبد ابن زنا .

نظر مالك بن زهير فإذا به يعجز عن الكلام ولايدرى مايفعل ، فقد وجد مبغضى عنترة اكثر من محبيه ، وكان على الملك ان يحكم فى الأمر فهو يحب عنترة ويرفض أن يقتله ، لقد دخل بيته وأكل زاده وله عنده حرمة ، أما إبعاده فهذا متروك لشداد والده ، فاستدعى الملك شداد ، وترك له أمر الحكم على عنترة .

وقف شداد متحيرا ، فمالك أخوه ولايحب إغضابه ، وعنترة لايستحق الضرب والقتل فهو فارس من الفرسان المعدودين ، فما بقى فى نظر شداد إلا ان يعود الى رعى الإبل ، ولبس الصوف ، لباس العبيد ، ومنعه من إنشاد الشعر ومن أن يتكلم كلام الفرسان فإن صنع ذلك فإنه قاتله . واستدعى زهير عنترة ليسمع قول أبيه فأبلغه الأب بحكمه ، وكان ذلك حكما قاسيا من الأب ، فهو قد أذله أمام أبناء قبيلته ، وصغره وحقر من شأنه وفتح جراح الاغتراب فى قلبه .

استجاب عنترة لحكم والده ، وحنى راسه للأزمة ، وهو مطحون ، فهو يكلم سيده لا والده . وكان رده ردا فيه إحساس بعمق المأساة وهو يرى والده يحوله الى عبد لكل القبيلة مهانا منهم جميعا :

« يامولاى : افعل بى ماتريد ، واحكم على حكم الموالى على

العبيد ، والعبد ماله غير مولاه ، إن أبعده أو أدناه . وأنا أشهد على نفسي أني من الآن فصاعدا قد امتثلت أمرك ، ولا أقصر عن خدمتك ولاأفارق رعى الجمال ، وأكون على حفظ أموالك واعيا ، ولا أركب جوادا ، ولا أجرد حساما مع الأبطال ، ولا أنطق بالشعر أبدا ولو شربت كاسات الردى مع الأنذال » .

(السيرة حـ ٢ مجلد ١ ص : ١٨٧)

كانت لحظة حاسمة فى حياة عنترة ، وقد شهدها عدد كبير من الحاضرين من القبيلة ، كما علم بها الغائبون بعد ذلك . وشمت كل أعدائه والحاقدين عليه . فعاد عنترة الى غربته فى الفلاة يرعى نوق شداد وإبله ، حتى أقبلت ذات يوم قبيلة طيىء تقتحم مضارب القبيلة وتنال من فرسانها وعنترة ينظر اليهم ويسأل أخاه شيبوبا عما يفعل فينصحه أن يبتعد عن محاربتهم ، وأن يأخذ قطعة من النوق والجمال ويقصد بها قطعة من التلال حتى يرى مايكون من الفعال ، ولايزال على الجبل حتى ينظر مايقع بينهم .

كان شيبوب يريد من أخيه أن يعرف دوره بين أبناء القبيلة ويثق فى ذاته ، فبدونه لن يكون هناك نصر لها ، وتضيع القبيلة وتفقد كينونتها ويتملكها أعداؤها . وتعرف عنترة لذلك لايكفى وإنما يجب أن تعرف القبيلة كلها ذلك . ومعرفة القبيلة لاتكفى أيضا فالكثيرون يعرفون قيمة عنترة ويدركون دوره فى حمايتها . ولكن التعرف هنا يجب أن يصحبه اعتراف به ، فالاعتراف به وهو صاحب الحق المنكور هو المعنى العملى للتعرف . وشيبوب يدرك ذلك فقد كان العقل المدبر لعنترة ، وهو يعلم أنهم إليه محتاجون ويجب عليه ألا يركب جوادا حتى يلحقه أبوه بالنسب ويشهد بذلك على نفسه أن عنترة ابنه وفلذة كبده . وأوحى اليه أن يرفض المحاربة لو سأله شداد ذلك فما هو إلا من جملة العبيد والعبيد لايحاربون الأسياد ،

وليس له ان يخالف أمره ويخلع عن بدنه ثياب الخدمة ولبس الصوف فهو بين يديه عبد .

وسمع عنترة كلام شيبوب ، ورآه صوابا ، وأخذ العصا بيده وساق الإبل قدامه حتى تعلق فى ذيل الجبل ، ووقف على رأسه ، وشيبوب يقود له فرسه الأبجر .

ودارت رحى الحرب ، وثبت الكرام ، وفر اللئام ، وزاد الكرب على الفرسان ، وجرح قيس بن الملك زهير ، وأعطى بنو عبس للأعداء أكتافهم ، وأيقنوا بالهلاك ، وخرجت من البيوت الكواعب الأتراب ، وانكشف عنهن الستر والحجاب ، وأكثرن الانتحاب وشققن الأثواب ، وصحن فى الفرسان ليثبتوا ويردونهم الى الطعان ، ولكن كثيرا منهم اختار العار على ضرب الرقاب وزعق فيهم بوق الشتات والخراب .

وهنا تحرك مالك والدعبلة ، وطلب من أخيه شداد أن يستنجد بعنترة ، وحدث الصراع فى نفس شداد ، فهو قد حرمه من أبوته ، وقسا عليه هو وأخوه ، والآن يطلب منه أن يحارب للذود عن القبيلة ، وقال لأخيه إنه مابقى لهما مع عنترة سبب يدعوه للوقوف معهما .

وكان ذلك أقوى تعرف من الأب باحتياجه للابن . لقد احتاجه كثيرا ، كما تخلى عنه كثيرا ايضا ، ولكنه الآن فى قمة مراحل التعرف لهذا الاحتياج . والتفت شداد فرأى عنترة واقفا على قمة الجبل .

وتبدى التقابل بين موقفهم فى الحرب وموقف عنترة منهم فهم فى ذلك الكرب الشديد وعنترة يضحك على بنى عبس ، ينظر ما حل بهم من دمار وأخوه شيبوب قدامه يرقص بالمزمار . وهنا يهمز شداد حصانه ويقف أمام ابنه ، فتحتك العواطف وتحتدم ليتكون

الموقف المثير والنادر فى الأعمال الأدبية : الابن المهان ، فى مواجهة الأب المهين .. الحرية .. والتعرف على دوره ... والاعتراف به : ليست كل مايريد عنترة ، إنه يريد أن يحقق لنفسه وجودا متساويا بين الشرفاء من أفراد قبيلته : فقد يعلنون منحه الحرية ، والتعرف على دوره والاعتراف بنسبه ، ولكن ذلك لن يمثل شيئا إذا لم يعترف بكينونته إنسانا .. من حقه أن يتزوج بمن يحب ، عبلة ابنة مالك لقد أذل عنترة كثيرا من أبيه ومن عمه فجرؤ عليه من لايعدهم أكفاء له من بين أبناء القبيلة ، فرفضوا الاعتراف بحقه الكامل فى الوجود إنسانا .

يدور الحوار بينهما ، ويشتد وطيس المعركة بين عبس وطيىء وخيول طيىء تدخل البيوت وتقتلع الأوتاد ، وأخرجت النساء وسبيت عبلة ، فى حين ينظر إليها عنترة ووالده وعمه . وهنا توجه عمه مالك متوسلا اليه أن ينقذها ، فاشترط عليه إن هو خلصها من بلائها ومصابها أن يزوجه إياها ، فأقسم مالك من شدة ما أصابه بحق من خلق الجبال وأرساها ودحا الأرض وسواها إن خلصها من النوائب وفرج هذه الكربة عن الأهل والأقارب أن يكون لعنترة عبدا وتكون له عبلة أمة .

وحين يحدث التحول فى المواقف يتحول عنترة إلى سيد ويستذل مالك ، وبذلك يقف كل منهما عارفا بمكان الآخر . وهنا يتقدم شيبوب بالفرس الأبجر ليتوكل عنترة على الملك المعبود فيذهب ليحارب فى سبيل نفسه ، فلم تكن هذه المعركة فى سبيل القبيلة أو فى سبيل عبلة وإنما كانت فى سبيل وجوده . وانتصار عنترة ، يعنى تعرف القبيلة انه فرد يوازى قبيلة . وما إن تنتهى المعركة حتى يتم تعرف القبيلة كلها ببطلهم والاعتراف به واحدا فى قمتهم من صلب أصلابهم ، وليقف الملك زهير قائما على الأقدام ويمشى بنفسه إلى عنترة ويقبله بين عينيه ويعلن أنه

لايكون عنترة إلا كما يكون الولد وانه أول من يخضع له من الملوك ، وليتم تعرف القبيلة على مكانته بينهم يعلن الملك بنفسه أنه الحق بالنسب وعلى الجميع ان يتعرفوا عليه على أنه ابن عمه ، وأنه لحمه ودمه ، والمفرج عنهم وعن أموالهم . ويضعه موضع الصدارة من نفسه ومن قبيلته ، ويطلب من ساداتها أن ينادوا عنترة بمثل ماينادونه به ، ويرتفع الملك زهير بعنترة فوق النسب فيذكر أنه صديقه ورفيقه كما أنه ابن عمه ومن يرجوه عند ضيقه .
(السيرة : ص ١٨٩ ـ ٢٠٠)

ولقد لعب الأخ ظالم دورا مختلفا فى حياة أخيه مظلوم بن الصحصاح الذى كان يعرف أنه مظلوم ويعرف ظالمه ، ويعرف أن قبيلتهما تخضع له ، فلا تعترف له بحقه خوفا منه ، وهو يريد من أخيه الاعتراف بحقه . والاعتراف هنا إعلان بتعرف حقيقته على الملأ أخا لظالم ، وإذا أراد أن يحقق هذا الاعتراف فليس أمامه إلا الثورة على أخيه .

واجتمع له من فرسان أبيه الصناديد من بنى الوحيد وعدتهم خمسة آلاف رجل ، وكان الصحصاح يتقوى بهم على العرب الذين فى البطاح ، وكان فيهم زهد وصلاح . وأكثرهم قد ربى فى زمان الصحصاح . وبعد أن تأهبوا ، أخذهم مظلوم ليواجه ظالما ، فلابد أن تقع المواجهة ، وقسمت هذه المواجهة بنى كلاب ، فانقسموا قسمين : الأول تعرف عليه ، والثانى تجاهل معرفته لحقيقته ، وقف مع مظلوم مشايخ الحى المعروفون الذين كانوا مع والده ، فقد رأوه أشبه الناس بأبيه .

وهنا تصادم الفريقان . ولما رأى الناس فعال مظلوم تشبه فعال أبيه ، انضم الى جانبه عدد كبير من الفرسان . وتدخل مشايخ بنى كلاب ، ومن شهدوا زواج الصحصاح بأم مظلوم فى محاولة للصلح ، فهم لايريدون من ظالم أن يسن سنة مذمومة بين العرب ،

وحكموا كتاب الله فى قول رب العالمين إخبارا عن موسى وهارون : « واجعل لى وزيرا من أهلى ، هارون أخى ، اشدد به أزرى ، وأشركه فى أمرى » (٢٠ طه : ٢٩) وانتهوا إلى أن يكون مظلوم وزير أخيه الأكبر ظالم .

(مجلد ٢ ، ج ٧ ص ١٠١ ـ ١٠٧)

وإذا كان مظلوم قد استطاع أن يعرف قبيلته بنفسه فى معركة ، فقد كانت رحلة العودة من الغربة رحلة قتال .

(السيرة : ١٠٤ ـ ١٠٧)

وإذا كانت غربة مظلوم قد انتهت بتعرف أخيه عليه واعترافه واعتراف القبيلة بحقه ، فإنه تسبب فى اغتراب ابنته ذات الهمة ، حتى فقدت معرفتها بحقيقتها ، وقطعت طريقا طويلا حتى تحققت لها هذه المعرفة .

● ● ●

لقد أقامت ذات الهمة عند قبيلة طيىء تقطع الطريق على العربان . وكان من بين ما استولت عليه أربعة آلاف ناقة كانها العقبان ، وهى حمر الوبر ، كثيرة اللحم ، موسوقة شحما ، وكانت تلك النوق لأبيها مظلوم . فخرج مظلوم ليسترد ماله من أعدائه بنى طيىء .

والتقى الأب بابنته فى ساحة الحرب ، لايعرف أحدهما الآخر ، وأخذا فى الضرب والطعان والتراشق بالسهام والرماح ورآها مظلوم كلما طال قتالها ناضلت واشتدت وعظم قتالها حتى لم يبق فى أيديهما غير العقبين . واشهرا سيفيهما ، وتضاربا بهما حتى ملأهما الغبار وطلع النهار وازورت الأبصار وحارت الأفكار . وهكذا تصور السيرة هذا الموقف ، وتطور لحظة لقاء الأب بابنته ، بأنه يشفق عليها ويرجع نفسه عنها بالمحبة والشفقة . وكان كلما هم بها لاتمتد يده نحوها وكأنها مشلولة

أما هى فصارت تلعب به فى الميدان ، كما يلعب بالعصفور ، ولم يزالا كذلك حتى الغروب وقد شعر مظلوم أنه هلك وضاق منه الصدر ، بينما رأت فيه ذات الهمة قوة وانطبقت عليه وقبضت على أطرافه ، وأقلعته من سرجه وأخذته أسيرا وجلدت به الأرض وأوثقته . ولم تكتف حتى شدته على ظهر جواد وسلمته لمرزوق ، ثم عادت لتحارب بنى الوحيد فولوا منهزمين . لقد أصبح الأب أسير ابنته . وكان أسره حدثا عند بنى طيىء ، وحدثا عند بنى كلاب . فرحت بنو طيىء بأسر عدوهم ، وفرح ظالم بالتخلص من أخيه ، ولكن الأسر لم يكن شرا على مظلوم وإنما كان خيرا ، فلقد قامت الجارية بتعريفه على ابنته ، فلقد أفرد لمظلوم بيت يقضى فيه أسره ، حتى يتم فى الغد قطع رقبته ، وكان مولاها كان يرى الانتظار حتى يحضر جميع بنى تميم مقتل مظلوم ، فإن أسره حدث من أحداث بنى طيىء الجسيمة .

نظرت جاريتها سعدى الى مايحدث لمولاها وكانت تحب أن تخبرها أنه أبوها قبل لقائها به ، ولكنها خافت من ذات الهمة ، أما الآن وهى ترى السيد مكبلا بيد ابنته ، فإنها ترى أن من واجبها أن تبلغ ذات الهمة بالحقيقة وأن تجعلها تعرف من هى :

وضعت المرأة البرقع عن وجهها ، وذهبت الى مظلوم وتحسرت لحاله فأخذت تبكى ، وعادت إلى ذات الهمة ، فسألتها عن سبب بكائها ، فلم تخف منها ، وقامت بدورها فى عملية التعرف بين الأب والبنت ، وأخبرتها بأن أسيرها هو والدها ، وأنها ابنته من صلبه .

ولم تستغرب ذات الهمة ذلك ، فقد كانت تشعر نحوه بشعور غريب ، كما كانت تشعر أن همتها تسمو فى يد المراتب العالية ، وأنها ليست من نسل العبيد . وقصت عليها سعدى قصتها ، فما إن سمعت القصة حتى سجدت شكرا لله تعالى ، إذ كانت من أولاد الملوك ملوك العرب أهل الحسب والرتب ، وطلبت من سعدى أن

تخبر والدها بالحقيقة ، فرأى كيف أنه ألقى بابنته بعيدا لأنها لم تكن ولدا ، فإذا بها فارسة قادرة على هزيمة الأبطال ولو كانوا مثل مظلوم نفسه ، فسجد لله شكرا أن أخرج من ظهره هذه اللبؤة ، فله الحمد والمنة .

وهكذا تم التعرف والاعتراف فى لحظة واحدة لتنتقل ذات الهمة بعد ذلك مع والدها وتبدأ مرحلة جديدة من مراحل حياتها .

وإذا كانت ذات الهمة قد التقت بوالدها وجها لوجه فى معركة حامية ، وتم التعرف بينهما واعترف الوالد بابنته ، فإن ابنها عبدالوهاب سار طريقا شائكا واجه فيه والده وجده فى معركة دون أن يتم بينهما اعتراف ، وكان الوالد نفسه فى موقف المستنكر لهما ، وكان الأمر قد وصل به إلى أن لايكون الاعتراف شيئا مذكورا بالنسبة له ، فقد حدث أن عرف ، وكانت المعرفة فى طريق من العذاب .

وإذا كانت ذات الهمة قد التقت بوالدها . وقامت بعد ذلك جاريتها بدور التعرف بين الأب وابنته ، فإن الأخت لعبت دورا مهما فى عملية التعرف فى حياة بطلين من أبطال السيرة الشعبية ، وهما هجرس وأبوزيد .

● ● ●

لعبت اليمامة بنت أخى المهلهل دورا مهما فى تعريف المهلهل بأخيها الجرو . فلقد تمت المواجهة بين العم وابن أخيه فى ساحة القتال . وقد تمت فى الواقع بإرادة جساس ، اذ استدعى جساس الجرو من غربته عند الأمير منجد فقد علم أنه يقيم وأمه الجليلة عنده ، فأرسل له أخاه سلطانا فى جماعة من الأبطال ليأتوه بأخته الجليلة وابنها الجرو . وهناك اجتمع سلطان بهما واعتذر لهما عما فرط منه وطلب اليهما الرجوع الى ديارهم ، من الغربة . والجرو

يشعر أن هذا ليس وطنه وأنه مغترب ، ولم يكن قلبه يميل الى جساس أو إلى أى أحد من بنى مرة ، وهو متحرق شوقا ليثأر ممن كان يظن أنه سبب يتمه ، أى المهلهل . وقد أشعل جساس إحساسه بالحقد على المهلهل حتى يقتله ، فالجرو فارس ولعله الوحيد الذى يمكن أن يقتل المهلهل فإن قتله فقد خلص منه ، وإن قتل المهلهل الجرو فإنه بذلك يقتله ألما .

وتقترب اللحظة الحاسمة ليتواجه الابن بعمه فى صراع مأساوى تتشابك فيه العواطف وتحتد ، وجساس يزيد النار اشتعالا فى قلب الفتى ، ويزكيها بالشعر المربع :

فـلا ابنـى ولانحـن مثـالـك
انـاسـا حكمـك فـى ملـك خـالـك
انـا ابكـى علـى المرحـوم بيك
قتلـه الـزيـر فـى ربعـك وحيـك
فقـم اركـب يـا ابـن اختـى
واشخـت للمهلـهـل اى شختـى
سالـت اللـه ان تـاخـذ بثـارك
وتقتلـه بسيفـك او سنـانـك
مـرادى تكشـف عنـك عـارك
وتـحرقـه يـاجـريـوى بنـارك
(قصة الزير : ص ١٤٠)

ولاتمر اللحظة الحاسمة عابرة فى حياة المهلهل وبنات كليب السبعة ولا فى حياة جساس ، فالاحلام وقراء الرمل يوحون بالحدث ، ولكن الجميع يتناسى ليأخذ اللقاء مكانه فى أحداث السيرة .

أبلغ الجرو أمه أنه يريد حصان خاله الأضرج ، وأنه سيعطيه عوضا عنه رأس المهلهل ، فوهبه الحصان ، ووعده إن قتل المهلهل ان يكون عليهم ملكا .

وخرج الجرو يريد أن يدفع ثمن الحصان ، والتقى بعمه فى ميدان القتال . مال قلب المهلهل اليه ، وتحركت جميع أعضائه نحوه بينما الجرو يضمر قتله واعدامه ليوفى جساس وعده بدفع ثمن الحصان ، ويحاول الزير هنا أن يبطل مضاربه بحسن اختياره ، ولم يكن قلبه يطاوعه على قتله ودماره . واستمر الحال على هذا المنوال حتى دقت طبول الانفصال .

عاد المهلهل إلى معسكره واجتمع ببنات أخيه وحدثهن بحديث الغلام وكيف انه أشبه الناس بأخيه كليب فى الصورة والحرب :

يمامة ، اسمعى منى كلامى
ايا ست الملاح المحسنينا
برزت اليوم للميدان حتى
القاتل آل مر اجمعينا
فبارزنى فتى منهم غريب
له عزم كما الصخر المتينا
كمثل اباكم وجها وحربا
فذكرنى ليالى الماضيينا
(ص : ١٤٢)

وسأل اليمامة ان تخبره إذا ما كانت أمها حاملا ساعة خروجها إلى منازل اهلها ، فأخبرته الفتاة أنها كانت حاملا ولاتدرى إن كانت قد أنجبت بنتا أم ولدا . وهكذا تكشف الأضواء الضعيفة شيئا جديدا للمهلهل ولابن أخيه ، فهو قد حارب ثأرا لأخيه ، وثأره ، فقد قتل من آل جساس الكثير ، ولكن نيرانه لم تهدأ لأن اخاه لم يخلف ابنا يرثه .

وإنى ما بكيت على كليب
اخذت بثاره بالسيف مجهر

فابكى حيث ما خلف ذكورا

بنات الكل ماله طفل يذكر

(ص : ١٤٦)

وهو الآن يشعر انه يواجه ابن كليب . واليمامة تقوم بدور التعرف على أخيها ، وهى المرحلة الأولى فى التعرف ، وهى على علم بالطريقة التى تختبر بها الجرو ، فإن كان أخاها فلابد أنه ورث عادات أبيه ، فلها ثلاث إشارات يمكن أن تتعرف بها عليه . وقد أخبرها والدها قبل موته أنها ستحتاج هذه الإشارات إذا ظهر له بنون ، فإن فعال الآباء يرثها الأبناء . حملت ثلاث تفاحات ، ضربت والدها بالأولى فاستقبلها بركابه ، واستقبل الثانية برمحه ، وخطف الثالثة باليمين . وقررت أن تنزل الميدان لتختبر الغلام بهذه الإشارات :

ثلاث إشارات لى فى كليب

إشارات بعقلى راسخينا

ركب يوما بقربى مرة

وقال ايا يمامة فانظرينا

من التفاح اعطانى ثلاثة

وقال بذى الثلاثة اضربينا

فإنك سوف تحتاجى إليهم

إذا ظهرت لنا حقا بنونا

ضربته بواحدة ياعم راحت

بضرب ركابه مثل الطحينا

وثانى واحدة راحت برمحه

وثالثها خطفها باليمينا

غدا انزل واضربه ثلاثه

كفعل ابى ايا عمى الحنونا

يكـون اخــى إذا سوى نظيـره
وإن خالف يكـون غـريب منـا
(ص : ١٤٣)

وفى اليوم التالى ركب الزير للحرب وركبت معه اليمامة وأخذت ثلاث تفاحات ، وكان الجرو قد ركب للقتال ، فصال وطلب الحرب والصدام ، فبرزت له اليمامة لتحاربه بدلا عن المهلهل فاستعظم الجرو ذلك ، وأخذت اليمامة التفاحة الأولى ولوحتها بيدها ثم ضربته بها فأخذها برجله مع الركاب فطعنها ، فضربته بالثانية فأخذها على سنان الرمح ، وضربته بالثالثة وقالت ياخالق الخلق امح الباطل واظهر الحق ، فأخذها بيده ووضعها فى جيبه فتقدمت اليه وألقت بنفسها عليه ، وقالت : أهلا وسهلا يا أخى يا ابن أمى ، فأنت والله ابن الأمير كليب دون شك ولاريب ، وقد ربيت فى دار العدا ، والحمد لله الذى عرفناك بعد طول المدى .

وهكذا لعبت الأخت اليمامة الدور ليعرف أخوها نفسه وعالمه ، وليحدث الانتقال من دار الأعداء إلى دار الأهل والأصدقاء ، وليأخذ مكانه ، قائدا للجماعة ، وليس عدوا لها .

والدور الذى لعبته اليمامة لعبته شيحة أخت أبى زيد ، وهى تقوم بدور تعريف الطفل بأبيه فقد استخدمت شيحة نفس الإشارات التى استخدمتها جدتها الكبرى اليمامة ، ففى روايتى الحاج عبد الظاهر وعبد السلام حامد كانت تحمل تفاحا ، واستبدل التفاح فى رواية عوض الله بالبرتقال .

● ● ●

لم يلتق أبو زيد مع أبيه فى رواية عرب الشوا ، فأبوه لم يطرده ، وإنما تمت العودة ، عودة الأب لابنه . لذلك لم تلعب الأخت دورا فى التعرف ، ولكنها لعبته فى رواية سيرة بنى هلال المطبوعة دون أن

تذكر هذه السيرة العلاقات الخاصة بالتفاحات الثلاث ، فهى مرتبطة بوحدة مع النص المطبوع لسيرة المهلهل ، فلم تكرر الإشارات مرة ثانية .

وقد اختلفت أيضا طريقة مواجهة أبى زيد بأبيه ، فلا تعرف دون مواجهة ، فالتعرف تم بعد المواجهة التى أسهمت الظروف الطبيعية فى خلق الأسباب التى أدت لها كما ترويها سيرة بنى هلال المطبوعة . فقد شاع ذكر أبى زيد فى القبائل حتى وصلت أخباره إلى بنى هلال الذين أصابهم القحط ، إذ أقحلت أراضيهم ، فطلب ملكهم حازم فى ذلك الوقت أن ينظروا اليهم أرضا مخصبة ، ينزلون عليها ، ولم تكن هناك أرض فى خصب أرض الزحلان ، غير أنهم يخشون ابنه أبازيد ، فتحمل رزق مسئولية أن يكفيهم شر الغلام . ومن ثم رحلوا إلى أرض الزحلان ، ونزلوا إلى أحد عيونها واسمها عين قطف الزهور فأسرع الرعيان إلى الحى ، وأخبروا مولاهم أن بنى هلال أتت ترعى فى مراعيهم .

وكان أبو زيد غائبا فى الصيد ، فصاح الزحلان فى قومه فدقوا طبول الحرب ، واتجهوا نحو بنى هلال ، وصاح فيهم الزحلان بأن يرحلوا من بلاده فبرز إليه رزق يسأله أن يتركهم فى الأرض وأن يعطوه عشر دخلها .

وما إن فرغ رزق من كلامه حتى وقع بينهما الضرب ، وانتصف النهار وقد أصاب رزق الزحلان بضربة جرحته وأصابت عنق جواده .

وحين عاد أبو زيد من الصيد ، وجده طريح الفراش فارتمى يقبله ، ويتأسف لمصابه ، وصبر حزينا حتى الصباح ، فركب جواده وطلب الميدان والتقى بضيف بنى هلال غانم الزغبى الذى أخذته الحمية فخرج ليلاقى أبا زيد . وكان أبو زيد يطلب رزقا ،

فقد كان غائبا هذا اليوم فى الصيد ، فالتحما فى الحرب والقتال ساعة وثب فيها أبو زيد على غانم وضربه بحسامة البتار فجرحه جرحا بليغا ألقاه على الارض ، وسأله أن يقوم مسرعا ليداوى جراحه ويرسل غيره ، ونزل بعدها الأمير عمار فقطع راسه ، ثم نزل القاضى فجرحه فاستجار به ، فعفى عنه .

ولم تزل الفرسان تنزل إلى أبى زيد ، وهو يصرعها حتى صرع عشرين فارسا ، وجرح ثلاثين ، وأسر اربعين .

وفى اليوم التالى التقى بالرجل الذى نصح والده بطلاق أمه ، سرحان بن حازم ، فطعنه بالرمح وأصاب فخذه ، ثم هجم على بنى هلال فشتت شملهم .

رجع رزق فوجد الصياح والعويل عند قومه ودخل على سرحان فوجده جريحا . ونصح سرحان رزق وأهله أن يرحلوا فى ظلام الليل .

أنا الشورى عندى ترحلوا لبلادكم
في ظلام ليل شديد الغياهب
(سيرة بني هلال : ص ٣٤)

ولكن رزقا رفض وأعلن أنه سيبرز له وغدا يكفيهم شره . وفى اليوم التالى التقى الأب وابنه فى حومة الوغى ، فقد خرج أبو زيد الى الميدان ، وبرز له الأمير رزق وصدمه فصمد له بركات والتحما فى قتال حتى الظهيرة ، فتعب رزق وطلب من أبى زيد أن يتوقف القتال الى ما بعد الظهيرة ، فقبل أبو زيد ونزل عن صهوة جواده .

وكانت شيحة بنت رزق أخت أبى زيد فى الهودج تراقب مايحدث ، فشاهدت والدها يرفع حربته يريد أن يغدر بأبى زيد فصرخت فى الغلام تحذره من الغدر . وهنا قفز أبو زيد على صهوة

جواده وجدد الكفاح يضرب بالسلاح إلى أن جرح رزقا فى فخذه فوقع على الأرض ، فنزل أبو زيد ليقطع رأسه . وهنا تلعب شيحة نفس دور اليمامة عند نزال المهلهل مع ابن أخيه الجرو ، فتحاول أن تهدىء الموقف ، فصرخت فى أبى زيد تسأله أن يترك رزقا عتيق سيفه ، فيتركه .

وتواجه الفتاة بتهمة أنها عشقت الغلام ، وتقف الفتاة تدافع عن التهمة ، وتدين أباها وتدين بنى هلال ، فقد نبهت الفتاة أبا زيد حين أراد والدها أن يقتله غدرا ، لأن الغدر من صفات الأنذال ولاتريد لأبيها أن يكون نذلا .

أما أنها تعشق بركات فسألت قومها أن ينظروا إلى نعيم ومنعم ابنى الزحلان فهما أبيضان وأخوهما أبو زيد أسود فسألت لماذا لم يطرد الزحلان أمهم كما طرد أبوها أمها ؟ فلو كان أخوها معهم الآن لحارب فى صفهم . رفعت الفتاة صوتها تبرىء أمها من العيب والعار .

فحاشا للخضرا من العيب والخنا
وحاشا لشيحة تتهم بالعار
نحن أصايل ياأمير وشرفا
من نسل طه صاحب الأنوار
(ص : ٣٤)

وهناك شك سرحان فى أن يكون الغلام ابن رزق ، وسألوا عبده مرزوقا أن يذهب إلى مكة ليعرف حال خضرة . وحين عاد العبد عرفت القبيلة أن خضرة لم تذهب الى والدها بالطفل . فسألوا قاضى العرب فايد عما صنع بخضرة وابنها ، فأبلغهم أنه أوصلها الى الزحلان وأنه يظن أن الذى يحاربهم هو ابن رزق .

وبذلك تتعرف القبيلة على الغلام ، وبدا واضحا أنها تريده وتريد الاعتراف به . ولكن الفتى لم يتعرف بعد على العالم الذى اغترب عنه طويلا .

نصح حازم رزقا أن ينزل الى الميدان ليواجه أبا زيد وأن يقول له إنه لايحارب ولدا لايعرف أباه ، فالزحلان ليس أباه ، وأن عليه أن يسأل أمه حتى تخبره عن حقيقة نسبه .

ترك بركات الميدان ومعه حشيشة إذا بلعها الانسان يصير كأنه ميت ساعة من الزمان ، فذهب إلى أمه وقد بلعها ولما وصل اليها وقع ميتا فولولت ومزقت ثيابها وغشى عليها وبكت ، وفى بكائها أخذت تقص قصتها مع رزق ، ثم مالت عليه لتقبله ، ففتح عينيه وأخبرها أنه حى ، فأكدت له ثانية صحة قولها .

تعرف أبوزيد على حقيقة مولده ، ولكن هذا التعرف خلق داخله أزمة ، فهو لايريد أن يتقبل العالم الذى رفضه طفلا ، إن عالمه هو الذى عاش فيه أبوه الزحلان ، وقومه الذين يعرفهم هم قوم الزحلان .

لقد كان أبوزيد ـ فى البداية ـ يحارب قوما يعتدون على الأرض ، أما الآن فهو يريد أن يحاربهم ، لأنهم اعتدوا عليه وعلى أمه ، وخرج ليقاتل وهو مصمم أن يضع رزقا بين يدى الزحلان يصنع فيه مايشاء . ورجع لبنى هلال يغير عليهم ويقتل منهم مقتلة عظيمة .

تقدم سرحان منه يخبره انه عمه ، وأن رزقا أبوه ، ويطلب منه السماح ، فالدم لايصير ماء . ولكن أبا زيد لايغفر لهذا الرجل أنه اتهم أمه زورا وبهتانا فى شرفها ، ولذلك يجب قتله ، فحمل عليه ، فولى هاربا نحو رزق الذى سخر من هروبه .

وطلب سرحان من رزق أن يذهب إلى ابنه يصالحه لعله يعفو عنهم ، وقد تحقق أنه ابنه ، فذهب اليه ليسلم ، ولكن أبا زيد لم يغفر ، فاتجه نحوه بحقد الابن على أب ألقى به وبأمه وحيدين فى الفلاة ، ولام أباه على طردهما وتركه للزحلان يربيه ، ثم يأتون بعد ذلك ليعتدوا عليه وعلى بلاده . وظهر جليا أن أبازيد يريد قتل والده ، فحمل عليه ورزق يتوارى من ضرباته ، وهو لايستمع الى توسلاته ، ثم ضربه بالدرقة فنزلت على رأس الجواد ، وقفز رزق على الأرض ، فكتفه أبو زيد ، وسار به الى الزحلان ، وهناك اعترف رزق بخطئه . وأبو زيد لايغفر له بعد ، فإذا كانت هلال تغامزت عليه ودفعته الى تطليق خضرة فلم يكن لديه المبرر الكافى لأن يتقبل قولهم ، وهل لو قال له أحد : ارم بنفسك فى الجب ، أكان يرضى ؟ وهو أيضا يخالف بذلك كلام ربه فى تكوين خلقه ، فإذا كان الابن لايشبه أباه أيقال عنه إنه ابن زنا ؟

. فانظر إلى المخاليق كلهم
ترى صورهم دوم مختلفات
فهذا أبيض كأنه البدر فى السما
وهذا تراه يشبه الفحمات
فلو كنت عاقلا ماسمعت كلامهم
وتشمت بك الأعداء والسادات
(السيرة : ص ٣٧)

فدخلت خضرة وطلبت من أبى زيد أن يطلق سراحه من أجل كرامتها عنده . وقد أدى طلبها هذا الى أن يخجل رزق من فعلته ويعتذر على أنه فارقها بغير إرادته ، وأنه ـ منذ رحيلها وهو كالطائر المقصوص الجناح ، حرم على نفسه الزواج من بعدها :

وفـارقتـك حقــــا إرادتــى
وصرت مثل طير مقصوص الجناح

وحـرمـت اتـــزوج انـا بعـــدك
وذقـــت العـــذاب ونمـــت بجـراح

ثم أعلن على الملأ وأمام الزحلان اعترافه بأن أبا زيد ابنه من صلبه . ولم يهدىء هذا الاعتراف أبا زيد ، فتعرفه أنه من قوم تخلوا عنه في طفولته ترك فى نفسه جرحا عميقا من قومه . وحين سألوه البقاء بينهم مدة من الزمن وجه اليهم كلمة واضحة : أن يعودوا لأرضهم وبلادهم ويقاسوا بها الجوع .

يا هـلال ، عـودوا لأرضكم وبلادكم
وقاسوا بها الجوع ومـر المحايل
(السيرة : ص ٣٩)

وكان على بنى هلال أن يصنعوا شيئا ليزيلوا الجرح الدامى فى قلب أبى زيد منهم ، فقرر الأمير حازم أن يذهبوا حفاة نساء ورجالا إليه ، عله يعفو عنهم ، فذهب إليه مائة رجل ومائة فتاة ، فلما رآهم استقبلهم ورحب بهم وصافحهم ، وعفا عنهم .
(السيرة : ص ٣٢ ـ ٣٩)

أجمعت بقية الروايات الشفهية على أن أبا زيد بعد هذا التعرف لم يذهب مع بنى هلال ، وإنما بقى بين الزحالين ، فكانوا قومه ، عرف بهم ، وعرفوا به فى كل رحلة حرب يقوم بها أبوزيد .

وفى رواية عبد الرحمن فيفة لايذكر دورا لشيحة فى القيام بعملية التعرف بين أبيها وأخيها ، فاسمها لايذكر إلا بعد أن تم التعرف ، وأنها قد أطلقت الزغاريد فرحا بأخيها ، واستأذنت لتذهب مع الجازية وفتيات بنى هلال إلى أخيها أبى زيد فتعود به إلى أهله .

« وشيحة طلقت الزغاريد فرحت بخوها وطلبت المشى مع

الزازية وبنات هلال يجيبوا أبوزيد خوها لوسط أهله »
(من أقاصيص بنى هلال ص ٦٤)

تذكر رواية عبد الرحمن فيفة أن أبا زيد كان يعرف أن شيخ النجع الذى رباه ليس أباه ، فهو لم يره قط يدخل بيتهم وعندها فهمت الأم أن ابنها أصبح مدركا فقصت عليه قصتها مع بنى هلال وطردها من منازلهم . وحين التقى أبو زيد بقومه كان له من العمر عشر سنوات . وذكرت الرواية أن بنى هلال قدموا الى منازل الأمير دون مقدمات ليأخذوا الجزية من النجع الذى تقيم فيه الشريفة خضرة .

« عامتها جات سية خيل من لأولاد هلال لذاك الحى كى كل عام باس نقلوا الجزية السنوية من أهل النجع إللى فيه قايمة بنت الشريف » (ص ٦٢) .

وقد وقف أبوزيد ضد المعتدين وشتتهم ، وتذكر الرواية أن أمير بنى هلال كان فى ذلك الوقت سرحان ، وليس حازما . وبقية الروايات الشفوية تتفق فى ذلك . ولقد أرسل حسن الهلالى رزقا فى مائة فارس اليهم ليؤدبوا هذا الحى . ووقف الأمير رزق فى مواجهة ابنه دون أن يعرفه . والرواية هنا فى التفضيلات ، فما أن تواجه الأب والابن حتى وقع التعارف بينهما . والرواية تذكر « وضد كل منهم بجبهته » (ص ٦٥٤) . أى أن الرواية هنا تتفق مع سيرة بنى هلال المطبوعة فى أن أبازيد لم يذهب معهم . ويختلف دور شيحة فى كل من الروايتين . فبينما كان دورها إيجابيا فى الرواية المطبوعة لايصبح لها دور قبل التعرف .

وفى رواية الحاج عبد الظاهر تلعب شيحة دورا أكبر مما فى الروايتين السابقتين فى عملية تعرف الابن بابيه .

كانت شيحة أول من عرف الحقيقة من بنى هلال . وتذكر الرواية

أنه بعد أن قتل أبوزيد جايل ذهبت زوجته الى بنى هلال تستنجد بهم ليأخذوا لها بالثأر منهم . وكانت سن أبى زيد فى ذلك الوقت سبع سنوات .

وكان واضحا فى الرواية أن الزحالين قوم ضعاف ليست لهم هيبة بين قبائل العرب ، حتى أن شيحة ترفض أن تكون أمها من الزحالين استصغارا لشأنهم ، وقد كان غريبا أن تهزم قبيلة الزحالين شخصا مثل جايل . وقد عرفتهم زوجة جايل بأمر العبد الذى قتل زوجها ، فدقوا طبول الحرب ، وذهبوا الى الزحالين ، ولم يكن معهم رزق الذى اعتزل بنى هلال منذ زمن . وبعد أن نصبوا خيامهم أخرجوا مناديا ينادى للحرب ، يذكر الراوى .

« كان العرب لما يروحوا بلد لبلد يطلقوا منادى يقولوا الحرب جات لصحابه ، يعنى الحرب جات أصحابه اطلعوا »

تسامع هذا الصياح عند الزحالين ، فذهب ابو زيد لأمه . وقد لعبت الأم ـ فى رواية الحاج عبد الظاهر ـ دورا حيويا فى المعركة بين الأب وأهله . هذا الدور كان غائبا فى السيرة المطبوعة ، وفى رواية قيقة . فلقد حددت الرواية علاقة ابى زيد بأمه . يذكر الراوى .

« كان هنا ابو زيد يعتبر أمه وأول ما أمه تصبح عليه ، يقول لها ادعى لى ، دعاكى من الرحمن » .

وكان يستشيرها قبل أن يقرر أمرا من الأمور . وحين سمع أبوزيد نداء الحرب فذهب إلى أمه وأخبرها أن قوما يسمون الهلايل ينادون للحرب ، وكأنما كانت المرأة تنتظر حضورهم وتتمناه ، فاللحظة لحظة مواجهة بالنسبة إليها ليتعرف الجميع أنها خلفت الطفل البطال (أبوزيد) وأنها من أصلابهم وأنها الشريفة صاحبة الشرف المصون .

طلبت الأم من ابنها أن يخبرها بأسماء الذين سيواجهونه فى

الحرب ، فكان المنادى إذا نادى باسم من الأسماء يطلب القتال ليعود ابو زيد لأمه فيخبرها باسمه فتحدد له ما يصنع . قسمت خضرة الهلايل الى قسمين ، قسم عاداها واتهمها ، وقسم تعاطف معها . فأما الذين عادوها فطلبت من ابنها أن يقتلهم ، وأما الذين تعاطفوا معها فكانت تطلب منه الا يقتلهم وإنما يأتى بطرف من شاشاتهم .

نفذ أبوزيد وصية أمه فى الهلايل ، وهزمهم هزيمة منكرة وأصدر فيهم حكمه « حكم عليهم لانار تضوى ولاجمل يقعى ولا كلب يعوى » . وكان فى هذا الحكم اذلال لبنى هلال ، لم تذكره سيرة من السير . فقد نزلوا على هذا الحكم مما دفعهم إلى الاحساس بالحاجة الى والده رزق بن نايل الذى أعتزل العالم بعيدا عن بنى هلال وعن كل البشر باستثناء ابنته شيحة فأرسلوا له عبده نجاح ليأتى به من منفاه الاختيارى .

ترك رزق شعره يطول وينزل على اكتافه ، كما ترك ذقنه دون أن يشذبها طيلة السنوات السبع التى ترك فيها خضرة .

وحين وصل نجاح إلى مقره بعد ثلاثة أيام من السفر كانت شيحة أول من رآه ، وكان أول شيء خطر على بالها ان والدتها عادت الى النجع . وحين رآه رزق تصور أن خضرة عادت الى النجع ثانية . ولكن نجاح أخبره أن بنى هلال فى مأزق صعب ، فقد ظهر عبد فى بنى الزحلان حكم على الهلالية بالذل والمهانة ، وأنهم يطلبون منه أن ينجد قومه .

شد رزق الرحال الى حيث بنى هلال ، فأدرك صحة ما قاله نجاح ، فلم يجد عندهم جملا يقعى ولا نارا تضوى ، ولا كلبا يعوى .

احتفل بنو هلال بعودة رجلهم وقد أخبروه بما حدث لهم .

فأخرج مناديا ينادى للحرب ، فأعلم أبو زيد أمه أن رزقا ابن نايل هو المتقدم للطعان .

كانت هذه اللحظة حاسمة بالنسبة للمرأة فلا تريد ابنها أن يقتل أباه ، فقالت وهى تدعو له :
"اوع ياولدى .. ادع لك ، ليل مع نهار ، اوع تكتله ، ولا تجرحه
اوع تقرص عليه .. والله معاك" .

نزل أبو زيد الحرب فى مواجهة والده .. لايعرف احدهما الآخر ، والأم تريد أن تذل بنى هلال ، ولا تريد ابنها أن يعرف أنه يقاتل أباه ، إنها فقط تريد أن تطمئن الى أنه لن يقتله .

طالت المواجهة بين الطفل الفارس والأب الفارس من الصباح حتى العصر ، وبعد العصر أخذ الطفل البطل أخته شيحة أسيرة من أبيه .. يذكر الراوى أن العرب كانوا إذا ساروا للحرب خرجت النسوة خلفهم لتشجع الرجال على الصمود للحرب .

نبه أبوزيد على الزحالين ألا يدخلوا على الأسيرة ، ولم تكن تذهب اليها سوى جاريتها سعيدة ، تقدم لها الطعام والشراب ، فوجدت الفتاة حزينة ، تذكر أمها ، وتعدد بقصائد حزينة على فقدها وما حدث لها ، فتألمت لها سعيدة ، وأخبرت أمها بحالتها ، وهنا حدث التعرف بين الأم وابنتها ، فلم تستطع خضرة أن تتحمل وتصبر على عدم رؤيتها فدقت عليها الباب ، ولم تصدق الفتاة أن المرأة التى طرقت عليها الباب هى أمها ، وتصورت أن الزحالين الذين تحتقرهم يسخرون منها . وعندما إلتقت البنت بأمها كانت المفاجأة شديدة عليها فسقطا معا على الأرض مغشيا عليهما من شدة التأثر .

وطلبت خضرة من ابنها بعد ذلك ان يأخذ شيحة على هجين الى أبيها ، فهى تعلم أن أسر شيحة قد يدمر الرجل ، وعندما وصل

بهجينها قرب مكان رزق تركها ومضى ، ورزق يتعجب من هذا العبد فلا يمكن أن يكون شخص مثله إلا حرا من كرام الأحرار فهو أشجع من قابل من الفرسان .

لم يبق بعد ذلك إلا أن يتم التعرف بين الابن وأبيه ، وهنا تلعب شيحة نفس الدور الذى لعبته اليمامة جدتها الكبرى ، وكما صنعت اليمامة مع هجرس وألقت اليه بثلاث تفاحات تتكرر القصة فى رواية الحاج عبد الظاهر ، وهى كما جاءت فى روايته .

« المهم ياشيخ العرب : طلع الصبح للحرب .. ووراه شيحة تغنى وتجيب قصدان .. هنا شيحة مسكت ثلاث تفاحات .. دلوك عاوزه شيحة تورى أبوه وتوريه ده مين ؟ ابنه . مسكت ثلاث تفاحات . راحت رامية اول تفاحة لأبو زيد .. اتلقاها بطرف السيف .. يعنى شوف اهياها ازاى .. واتلاقاها ازاى بطرف السيف .. قرص على مين ؟ .. على أبوه .. ميعرفش ابوه .. قرص فى الحرب .. تعنى زود .. قوم راحت راميه الثانية ، لقفها من الركاب يعنى بركاب رجله .. رمت التالتة لقمى بيده » .

كانت تريد أن يفهم أبوها أن أبا زيد ابنه ، كما كانت تريد من أبى زيد أن يفهم أن رزقا أبوه ، ولما لم يصلح الرمز خافت على والدها وصرخت فيهما أن يرفعا ايديهما وقالت كلاما بالرمز لأبى زيد يفهم منه أنه يحارب والده فيتعرف الابن على ابيه ، كما يتعرف الأب على ابنه ، ويسقط الاثنان ـ من شدة الدهشة والتأثر ـ على الأرض مغشيا عليهما .

استيقظ الأب والابن بعد ساعات ثلاث ليتعرف كل منهما بالآخر واجتمع الشمل بعد التعرف ، واحتفل فضل الزحلان بالقوم احتفالا كبيرا ، وكان ابو زيد يقدم لهم صينية الطعام ، ويذكر الحاج عبدالظاهر أن أبازيد "أعطى كل رجل نايبه" إلا والده "والنايب"

يعنى فى لهجة أهل الأقصر . نصيب الفرد من اللحم ، فهو سيد الطعام .

وغضب أتباع زرق بن نايل من العرب على صنيع أبى زيد إذ كيف يترك سيدهم بلا "نايب" ، وطلب منهم أبو زيد الا يغضبوا وقال لهم "هو فاتنى فى القماط ، وأنا فته فى السماط" ، فاتضح أنه مازال متألما من موقف أبيه . غير أن السيرة كما يرويها عبدالظاهر تعيده مباشرة الى أهله ليأخذ حقه منهم ، فقد أعطى أبوزيد نصيبه كاملا فى كل ما تكسب القبيلة بمقدار الربع ، وتساوى فى ذلك مع دياب وزيدان والقاضى بدير ، وهؤلاء يمثلون الجيل الذى يسير معه رحلة "العبور" .

أعطى أبوزيد نصيبه إلى الرجل الذى رباه ، فضل الزحلان وتدخل الزحالين حلقة بنى هلال القبلية فكانوا شركاءها بعد ذلك فى كل حروبها ومعاركها هزيمة وانتصار ؟.

وفى رواية عوض الله عبد الجليل ذهب عرب جايل الى سرحان يستنجدون به ، وأمر سرحان الهلايل ان يشدوا رحالهم نحو الزحالين ، والتقى سرحان مع الطفل فهزمه ، فما إن وجد نفسه فى الخلاء حتى هرب .. والتقى من بعده بالأمير فايد فجرى إليه ابوزيد يغرسه ، لم يرد قتله وإنما اقتطع قطعة من شاشة وتركه بعد ذلك حرا . وفى رواية عوض الله فى ١٩٨٧/٣/٢٨ أن غانم نزل لمقاتلة أبى زيد فقتله ، وفى روايته التى رواها لى فى ١٩٨٣/٤/٨ يذكر أنه جرحه فقط ، وتذكر رواية النادى عثمان أنه عاش حتى جيل الأيتام وأنه تشفع لأبى زيد حتى لا يقتله دياب .

وقد انتهت رواية عوض الله عبد الجليل والروايات الشفهية لعبد السلام حامد والحاج عبد الظاهر إلى أن أبا زيد هزم بنى هلال هزيمة منكرة ، وانهم لجأوا إلى رزق بن نايل عله يعود من منفاه

الاختيارى ، فهو قد أقسم يمينا منذ أن طلق خضرة ألا يبقى مع بنى هلال .

ذهب ناجح والد قمصان - واسمه أيضا نجاح فى نفس الرواية - إليه فى الجبل ، وعاد به إلى أهله لينقذهم من هزيمة محققة وتحاربوا ثلاثة أيام حتى أن شيحة تعجبت من الطفل البطل :

واتحاربوا بميسرة وردوا يمين
إلا نزل فى الحرب ايا سامعين
تلت أيام ع اللى جرى
وشيحة قالت يا هل ترى
والله حربه يابوى ماجرى
جـايلك ياأمير فى الوغى

وتسرع الأحداث هنا لتصل إلى عملية التعرف بين الأب وابنه وتقوم بها شيحة ، وتستبدل بالتفاحات هنا برتقالة ، ولاتشير الرواية إلى ثلاث برتقالات وإنما برتقالة واحدة تلقيها لأخيها فيقسمها نصفين وتستمر الحرب :

إلا مسكت برتقالة تشوحها فى وسيع الفلاه
مسكت البرتقاله وشوحتها
شافها الهلالى خطفها باليمين
وقسمها نصـين
وسكن الفرس منه والوحوش تراه
عمد ع الهلالى حوم فى حومة اللقا »

ولم تستمر هذه المواجهة طويلا ، فقد تعرفت شيحة على أبى زيد وقامت بدورها فى تقديم الأب لابنه والابن لأبيه ، فصرخت فى أبيها بأن الطفل البطل هو ابنه ، وحذرت الابن من الاستمرار فى الضغط على خصمه فهو أبوه ، فقد يقتله ويصبح عجيبة من

الأعاجيب ، فلما سمع أبو زيد كلمتها وقع سيفه على الأرض واقترب من أبيه وعانقه بينما خضرة تزغرد من فرحتها إذا تم التعرف بينهما دون خسائر تذكر ، فلم يكن هذا التعرف فى حاجة إلى اعتراف من الأب بابنه ، فقد كان بنو هلال جميعا قد احترموا هذا الابن ، حيث أخذ مكانته بينهم من الاحترام والتقدير لمواقفه وقدرته البطولية التى جعلت تعرفهم عليه كسبا لبنى هلال أنفسهم :

قالت له شيحة يانضيف التنا
بذاته ابنك فى وسيع الفلا
شيحة قالت له ياهلالى
ابوك لتكتله ياغربة وتصبح بلاه
لتكتله ياغربه تسكنه لحود الترى
نبقى ياسلامة فى وسيع العجاب
إلا الأمير ابوزيد وقع سيفه فوق التراب
حوم على ابوه لما اتاه
وعانقه شمال ويمين
خضرة زغردت ، قالت ياناس جانا الهنا
والهنا لينا يسير
وحياة نبينا المصطفى نضيف التنا

وكما دعاهم الهلالى للطعام فى رواية عبد السلام ورواية الحاج عبد الظاهر ، فقد دعاهم فى هذه الرواية وقدم لكل الموجودين طعاما باستثناء والده الذى تخطاه أكثر من مرة وهو يرحب بضيوفه ، تعجب منه الهلالية ، فهو يريد من ابنه أن يتصرف معه كما يتصرف الابن الصغير مع أبيه :

«فلت ابوه فى وسيع السما
قال له ليه ياهلالى تفوتنى شمال ويمين
إيه اللى جرا لك يابنى وأنت منى صغير»

رد عليه أبو زيد ردا كان فيما يبدو مستعدا له ، فالكلمات توضح أنه كان يقصد أن يعترض عليه الهلالى ليذكره على الملأ بخطيئته فى تركه . والكلمات هنا قريبة لما يذكره الحاج عبد الظاهر ومايذكره عبد السلام حامد ، فالهلالى الكبير يستنكر أن يتركه الهلالى الصغير فى السماط ، ويتعجب الهلالى الصغير من أبيه لاستنكاره وهو الذى تركه صغيرا فى القماط ، فهى واحدة بواحدة :

« قال له انت فتنى فى القماط
وانا فتك فى السماط .
عيبة وسوت عيبة يامقادم هلال
عيبه وسوت عيبه يانضيف التنا

ويتسيد الطفل بعد هذا التعرف عالمين ، عالم الزحلان ، وعالم الهلالية ويجعل منهما عالما واحدا .

وإذا كانت الأخت شيحة قد لعبت دورا مهما فى عملية تعرف أبى زيد وابيه ، أى تعرف بطلين من أبطال السير بأنفسهما وبعالمهما فقد قامت العمة الجاز بهذا الدور خير قيام لأيتام بنى هلال ، فإن هذا التعرف كان مختلفا عنه فى بقية السير ، فهو تعرف بالذات فى مواجهة الأعداء وليس تعرفا للذات فى مواجهة الأقرباء ، كما تبدو فى كثير من السير ، إنها مواجهة مختلفة وصعبة .

ولقد حانت لحظة التعرف كما تراها الحكيمة الجاز بعد انتصار على أبى الحلقان بن أبى زيد على اليهودى ، فقد كانت الجاز تراقب المعركة ، إذ أتت اللحظة الحاسمة للثأر ، ولأن يعرف الأطفال دورهم الذى دربتهم عليه الجازية ، ولاتوضح الرواية إن كان الأطفال يعرفون حقيقتهم أم أنها كانت مجهولة لهم . تذكر رواية

النادى بلا مقدمات أن الجازية قالت لعلى ألا يخبر البياضى بأنه ابن الهلالى والطفل البطل يرفض نصيحتها ، ويوضح الحديث الذى دار بينهما أن معرفته بنفسه معرفة حديثة ، وإلا فما معنى أن يرفض أن يكتم حقيقته فى هذه اللحظة ، والصورة التى برزت بها شخصية أبى القمصان تشير إلى أنه فارس جاد يملك فروسية أبيه ولايملك تدبيره الحكيم ، وبخاصة أن التدبير الحكيم علمته له الأيام . أما فروسيته فقد نشأت معه منذ ميلاده ، وعلى فى هذا مشابه لأبيه يكرر نفس موقفه ، إلا أن تعرفه واقعه يدفعه للفخر به فيتجه هو بنفسه إلى محمود البياضى عدو العائلة القديم والصديق الجديد فهو مربيهم ومربى الأيتام .

وقد ذهب على بعد حواره مع الجاز اليه ليعرفه بحقيقته التى كانت غائبة عن الطفل ، كما كان الطفل والجاز يتصوران أنها غائبة عن البياضى كما فى رواية النادى عثمان :

« على قال لها لبطلى أيا جاز
انا ابو شال ع القرن مايل
كلامك وسط العرب جاز
والله لقول له احنا من الهلايل
قال له اسمع كلامى ياعم محمود
انا سيد الطقوم الظريفة
اسمع كلامى ليك بقول
انا أبوى أبو زيد ابن الشريفة
انا أبوى القليد بركات
ابو شال ع القرن مايل
يخش العيطة بركات
لاسمر امير الهلايل »

لم يكن البياضى يسمع جديدا ، ولم يكن على يعرف البياضى

بشىء جديد ، فقد ذكر الرجل أنه كان يعرفهم منذ البداية وقبل أن يولد على نفسه بأنهم من عرب الهلايل :

محمود يقول :
ياولدى وحق النبى ياعلى الزين
يابو شال ع القرن مايل
يامؤصل يابوتنا زين
من يوم ماجيتم
وأنا عارفكم من عرب الهلايل
عارفكم من عرب بنى هلال
يا سيد الطقوم الظريفة
أنا عرفكم من عرب بنى هلال
ابوك اياه ابن الشريفه
إياك انت ولد القليد أبو زيد

لقد كان البياضى كريما مع الأيتام ، رباهم وحماهم ، وحين نموا وقفوا بجواره ودافعوا له عن أرضه ، والجاز تراقب الطفل فى حربه ، وتزغرد له وتراقب الأيتام وقد نموا فتقشعر الأبدان بضرورة العودة إلى البطل أبى زيد هناك ، وهو يعمل خادما لأعدائهم يسقيهم ويسقى نوقهم ونساءهم والعودة إلى دياب وأهله من الزغابى للانتقام منهم . الجاز تفكر وتفكر وفى داخلها صراع بين أن تبدأ رحلة العودة ، أو تنتظر حتى لاتكون مغامرة غير محسوبة يضيع معها انتظارها الطويل .

توقفت قبل أن تتخذ قرارها ، وقررت أن تزوج الأيتام ولما يتجاوز أكبرهم الثانية عشرة من عمره . كانت زوجة على هى بنت حسن السلطان . ذهبت الجاز إليهم جميعا قبل دخولهم على زوجاتهم ونصحتهم بأن ينتظروا وألا يدخلوا على زوجاتهم هذه الليلة . وفى الصباح ذهبت إلى الزوجات فوجدتهن جميعا عذراوات

ماعدا زوجة على أبي الحلقان ، فقد عصاها علي ، لقد تصرف كما كان يتصرف أبوه ، يعصاها ويعاندها ، وتعصاه وتعانده وتكيد له . لم تغضب الجاز كما كانت تغضب من أبيه ، فقد زغردت ، وشعرت أن الطفل البطل يعيد سيرة أبيه وأن بني هلال قد خرج من بينهم زعيما جديدا يأخذ بالثأر من أعدائهم ، واقتنعت أن لحظة الرحيل قد حانت .

ذهبت الجاز الى البياضى تبلغه أن الغريب يطلب بلاده . كان عزيزا عليه فراقهم . وهو الأب المربى لهم ، ولكنه تركهم وهو يتغنى بحبهم :

سجرة المحبين تنشاف
ورقها اخضـر يلالى
لابد الحبايب ماتنشاف
ولو طالت عليها الليالى

سار الأيتام بقيادة الجاز فى الطريق القديم الذى علمته الجاز جيدا ، فاستخرجت طبل الرجوج خوفا على أبى زيد من دياب فقد يعلم أن الجاز قد جاءت برجالها لتقاتله .

ولايختلف الإطار الذى تحدده رواية النادى كثيرا عن الإطار المحدد فى روايتى كل من عوض الله عبد الجليل والحاج عبد الظاهر . ففى رواية عوض الله تخرج الجاز بالأيتام فى طريق العودة فيلتقون بفرسان فى الطريق ، ويتصدى على أبو الحلقان للفارس ، وتدور معركة حامية الوطيس يعجز فيها الفارسان عن قتل أحدهما الآخر ، وتتعرف الجاز على الفارس المعادى ، فليس سوى زيد ابن الناعسة الذى ولدته وهما فى الطريق . لقد أصبح الآن ابن عشر سنوات . ودربته أمه على القتال . تزغرد الجاز ، فقد ازداد العدد فارسا وأى فارس . لقد خلف ابو زيد رجالا . واتجه الجميع إلى أبى زيد .

وتتفق روايتا عبد الظاهر وعوض الله فى إطار المسميات ، فقد التقى على فى طريق العودة بطفل صغير يقود جيشا ففكر فى حربه وأن يضم جيشه إليه ، وأخذا يتقاتلان ، سمى كل منهما نفسه فذكر على اسمه ، وذكر البطل المواجهة أن اسمه (مخيمر) ، ولم يكن مخيمر سوى أحد أبناء أبى زيد الذى هرب كما هرب أخوه صبره إلى الجبال ، وكون جيشا . وهناك رواية تذكر أن مخيمر قد مات قبل أن يقتل حسن السلطان .

ولقد تلاقى الأطفال الأبطال فى مواجهة ضارية ، يصف عبد الظاهر عليا بأنه بحر دميرة ، وبأن مخيمر طوفان ، أى أن البحر فى زيادته يلتقى مع الطوفان ، ولا أحد يستطيع أن ينال من الآخر ، واستمرت هذه المواجهة حتى العصر لتبدأ الراحة من الحرب .

يعود على ليحكى لعمته عن الفارس الذى يحاربه ، فحربه تتعتع الجبال . وتستمر الحرب بينهما .. وفى اليوم الثالث خرجت الجاز لتنظر إلى المحارب ، فهى قد أخذت تشك . أن يكون المحارب أخا على فلا يملك هذه المقدرة على الحرب سوى أبناء أبى زيد . ورأت الجاز الطفل البطل يواجه الطفل البطل ، فصرخت فى على أن يتوقف عن القتال ، فقد عرفت المقاتل فليس سوى أخيه على الذى تسميه "عليا أبا الحلقان" ، ثم تقوم بعملية تعريف الأخ باخيه ويأخذان فى الرحيل بعدها .

ويتجه الجميع نحو أبى زيد ، وفى الطريق يلتقون بفارس وتتكرر قصة مخيمر مع الفارس الجديد ويحارب على ومخيمر ، وتستمر الحرب يومين ، وتخرج الجاز فى اليوم الثالث فتعرف المقاتل أنه صبره ابن أبى زيد الهلالى ، ويتعارف الأخوة ويجتمع شمل الأبطال الأطفال .

ولم يبد على الجاز أنها فرحة بهم ، وقد أعلمتهم بخوفها فدياب محارب مخيف يعرف خدع الحرب ، أما الأطفال فيعتمدون على

شجاعتهم وليس على مقدرتهم العقلية فى الحرب . فتوقفت وأخذت تعلمهم فنون الحرب وخدعها ، وطرق والدهم فى الحرب ، ثم سارت فى طريقها إلى أبى زيد .

وأمرت بضرب طبل سفيان وهو طبل بنى هلال فى رواية الحاج عبد الظاهر .

يذكر أن أبا زيد سمعه .. وكان يسمع على مسيرة ثلاثة أيام .. وأخبر أبوزيد ابنته ريا بأنه يسمع طبل سفيان وبأن الأيتام يعودون . وتصورت الفتاة أن والدها فقد عقله ، وفى اليوم التالى أخبرها أن الأيتام قادمون غدا ، والحزن يزداد فى قلب الفتاة وهى ترى والدها يفقد عقله . طلب منها والدها أن تفك حبل البير ، وما إن نظرت إلى البئر حتى سمعت صوت الطبل فأدركت أن والدها بعافيه .

تخلق رواية الحاج عبد الظاهرة من الطبل موقفا دراميا فى النص فدياب يستمع إليه ، وترتج المدنية ، فينظر دياب إلى زيدان ويبلغه مستهترا بأن الأيتام قادمون . ولا تذكر رواية النادى عثمان ولا رواية عوض الله عن الطبل شيئا فليس جزءا من الرواية : إذ تذكر رواية النادى أن الجاز رفضت أن يضرب الطبل حتى لايقتل دياب أبا زيد إذا عرف أن الأيتام قادمون . ويروى أن الجاز قد التقت بالأمير أبى زيد وهو يقف على البير سبالا وقد فقد بصره . فجرته بعيدا حيث يقف الأيتام ، وطلب منها أن يسلم على كل فرد منهم بمفرده ، وتبرز فراسته وهو يسلم عليهم ، إذ يذكر اسم والد كل منهم عندما يسلم عليه ، وهكذا تقوم بتعريفه بأبناء القبيلة ويتعرف الأبناء على فارسهم الكبير . فإذا ما جاء دور على أبوالقمصان . أمسك الغلام بأبيه وهو جالس ، فدفعته قوة الطفل إلى أن يقف على قدميه ، فقال للجاز إن هذا الطفل هو أبنه ، والجاز تغيظه كعادتها بأنه ليس له أطفال ولكن أبا زيد سقط مغشيا عليه من الفرحة ، ثم قام وقد عاد إليه بصره .

وتتفق رواية عوض الله مع هذه الرواية فى أن أبا زيد سلم على الأطفال الفرسان فردا فردا وهو يذكر أسماءهم واحدا واحدا حتى سلم على ابنيه على أبى الحلقان الذى يلقبه بالبطيخى وابنه الثانى زيد ، وترسم الرواية صورة هذا اللقاء :

لما اتى الأمير على
ويسمى على البطيخى
ابن عالية أم دلال
سلم عليه الهلالى
عصروا بيمين عمود هلال
يَديِّم تحت عديه
ولا واحد مدى لأخوه ليان
نده وقال يا أم محمد
ده ابن عالية ام دلال
ولما اتى الأمير زيد
تقول عون من الأعوان
وسلم على التمنى
طبق فيه عمود هلال
وطبقوا فى بعض لاتنين
الدم جرى ده من الفرسان
وخطفوا الملك زيد وجابه وراه فوق الشحتان
قال حقيقى الحية تجيب حية
وأن هافت بتجيب تعبان
انا إن خاب ظنى وكلامى
ابن الناعسة ناعسة الأجفان
وابن الزينة الناعسة بت زيد العجاج رجال

وزالت الغشاوة عن عينيه فى رواية الحاج عبد الظاهر ، فهو تعرف على جميع الاطفال فردا فردا ، والجاز تراقب الموقف كله .

وقد سعد أبوزيد كثيرا . فزالت الغشاوة عن عينيه واستعاد بصره . واستعاد قيادته ، ولم يبق إلا أن يعرف العدو .

ويروى عوض الله لحظة من لحظات تذكر أبى زيد لحياته وتحسره على الشباب وهو يسلم على الأيتام ، فهذه لحظة حاسمة يحتاج فيها لشبابه الذى يتمنى أن يشتريه لو يباع ، ولفرس مثل شهبة الأمير دياب ليحارب بها ، وامرأة مثل عالية فبغيرها يصبح الشباب ضياعا ، وكان يتمنى أن يكون مبصرا وشابا ليأخذ بالثأر من دياب ، وبين الفرحة والألم استعاد أبو زيد بصره :

يقول الأمير ابوزيد
فاح الكبر ، ضاع النظر
وجسمي ابتلا بوجاع
كنت املا انا
اصبحوا الصبايا مرد واقتناع
يامين يبشرني ، يامين يقول لى
ليه سوق الشباب ينباع
اشترى شبابى وشباب عاليه
وشهبة الأمير دياب
شباب بلا عالية وسط الصبايا يعيش ضياع
فتح الأمير ابوزيد بذلك قدرة الرحمن
فتح وراح الغشاشة
وراح الغشاشة بإذن الكريم الذى لاينام

وتجمع الروايات بعد ذلك على أن الأيتام تعرفوا على دياب كما تعرف عليهم دياب فى حومة الوغى ، ويظل دور العمة الجاز فى الدفاع عن القبيلة والمحافظة على تقاليدها خالدا فى نصوص السيرة ، وبخاصة فى تربيتها لأبناء القبيلة الأيتام ، والقيام بدور التعرف بينهم وبين عالمهم الذى تركوه ، فهم يقفون بجوار بطلهم أبى زيد ليواجهو عدوهم دياب .

ويختلف تعرف عبد الوهاب بنفسه وبعالمه كثيرا عن تعرف الأيتام وغيرهم من أبطال السير ، فتعرفه كان بواسطة قوة كونية . كانت وسيلة الإنسان لتعريفه بنفسه .

لقد تدخل العلم وَعَيْنُ الحقيقة والحلم فى التعريف بعبد الوهاب ابن ذات الهمة .. لقد عرف الحارث أن له ابنا من ذات الهمة عن طريق جارية كانت تحب أحد غلمانه ، ولم يكن على علم بأنه حى ، فقد كان عبد الوهاب مخفيا أمره عن الجميع . وقد أبلغت الجارية عشيقها أن ذات الهمة انجبت ابنا أسود اللون من أحد العبيد وتدعى أنه ابن الحارث ، وقد اخفته عن الناس .

وائتمر الحارث مع الجارية أن تخبرهم ساعة أن يكون الغلام نائما بجوارها . وحين اقبل الليل الداجى ومضى القليل منه ، ومع إشارة الجارية للحارث وأبيه وجماعة من أكابر الحى ومن اجتمع إليهم ممن يريد هتك ستر الأميرة ومن تصفهم السيرة بأنهم شياطين اجتمعوا إليها وطلبوا منها أن تريهم ابنها . فأيقظت عبدالوهاب النائم إلى جوارها ، وقدمته إليهم وقالت : هذا ولدكم .

يلتقى الأب بأبنه والجد بحفيده فى لحظة تعرف حاسمة . الأب أبيض اللون . حسن الوجه ، والأم أجمل النساء وجها . وأصفاهن بياضا ، ساطعة لامعة ، والطفل أسود عميق السواد كأنه من أبناء النوبة . لم يشفع له أن له قلبا ، لو وضع منه وزن درهم على قلب أسود فى الدنيا لكان يرى أبيض نقيا ، وبدا التناقض بين وجه الأب ووجه عبد الوهاب ، كما بدا بين وجه الأم ووجه الأبن ، ولما رآه الناس وبدا لهم هذا التناقض ضحك الجد ظالم حتى استلقى على قفاه وامتشق الحسام ، يريد أن يقتل الأم فجرحها ، كما أراد الأب فى لحظة التعرف أن يقتل الطفل لولا أن الطفل تراجع من أمامه ، غير أنه جرح وسال الدم منه . وتحدد موقف الأب من الأبن كما تحدد موقف الأبن من الأب . ليحمل نبوءة المستقبل أو إرادة الطفل ، فقد اقسم الطفل بالله لئن كانت له حياة ليقتلنه .

تسامع الناس بالقصة ، ودخل عليهم الأمير عبد الله أمير القيسية فسئل أن يحكم فى القضية ، ووقف الأب غاضبا كيف ينسب هذا الأبن له . وأخذ يتوعد الأمير إذا لم يحكم فى صالحه فإنه سيتجه إلى أعدائه ويعتنق المسيحية .

فـاحكـم بيننـا يـاخيـر عـدل
فقـد حـل المصـاب بمـا يصيـب
وإلا سـرت نحـو الكفـر ابـغـى
مقـالـهمـو ويـعلـوه الصليـب
(السيرة م/٢/ج/٨/٢٢٢)

طورت كلمته الصراع بينه وبين ذات الهمة فقد أمتد إلى الموجودين ، وانقسم الجمع قسمين : قسم معه ، والآخر مع ذات الهمة . تعجب من وقف فى جانب الأب من أن يكون المولود أسود وأمه بيضاء تسطع وأبوه أشقر أسطع . أما من وقف فى جانب ذات الهمة فهم يعرفونها صالحة زاهدة تسجد لله وتدافع فى سبيله ، فالله يخلق الأبيض والأسود والأبقع وكان رأى ذات الهمة :

وان كـان هذا الطفـل قد جـاء أسـود
فصنعـة ربى عنـدهـا يـوقـف الفكـر
(٢٢٤)

ورأى ظالم أن فى دعوى نسب عبد الوهاب إليه إهانة للأب وفضيحة بين الناس لاتغتفر .

أى عـذر لمـا وقـد افتضحنـا
عنـد اهـل الانسـاب والأقـربـاء
(ص ٢٢٣)

وأصبح واضحا أن الصراع بين القريتين يكاد أن يحتدم لولا تدخل الأمير عبد الله أمير بنى سليم ، وفرق بينهم الظلام ورجعت كل طائفة إلى خيامها .

ولقد تعرف الطفل على وضعه ، وأدرك أنه ابن غير مرغوب فيه لا

يتعرف عليه الأب . وتشفق عليه الأم من هذه الفتنة فهى تخشى أن تصيبه أول من تصيب ، وتتمنى لو أنها لم ترزق به وتدعو الله أن يصبره .

نضج عبد الوهاب نضج الكبار ، وكان يبكى خوفا من الله العلى القدير ، قد برزت عبقريته العقلية والجسدية ، وظهر واضحا أن عقله أكبر من عمره الزمنى بكثير ، فعبر عن تعرفه لأزمته بأن الله قد خلقه أسود اللون . وعبر عن إيمانه بالله بأن ذلك لأمر سبق فى علمه ، فلا اعتراض عليه وأنشد :

فإن أك أسودا فالقلب منى
علية من البياض ضيا نهار
وليس اللون فى الأنساب
إذا ما كان فى فعل الفخار
وليس الفخر إلا فى صلاح
ليوم البهث فى يوم القرار
(ص ٢٢٧)

ولم يكن ذلك نهاية الأزمة بين الحارث وذات الهمة أو بين الأبن وأبيه ، وإنما كان ذلك بدايتها . ففى اليوم التالى أرسل الأمير الى ذات الهمة فذهبت إليه ، وأقسمت أن هذا الغلام هو ابن الحارث . وبدا واضحا أن الأمير يصدقها . وأراد أن يصلح بينها وبين الحارث فرفضت مؤكدة أنها لن تقبل أن تعيش معه تحت سقف واحد ، وهو يعلم أن الحارث يحبها حبا شديدا ، فهى برفضها قد أغلقت الباب أمام الحارث ليعترف بابنه . ولذلك استمرت المواجهة بين الحارث وذات الهمة حول قضية نسب الطفل إلى أبيه ، فالأم تصر على أن الطفل ابن الحارث وهو يصر أنه ليس أبنه ، فارتأى الأمير أن يحسم الصراع بتحكم (القافلة) والحكماء وعلماء مكه ، فيذهبون إليهم ، فإن قالوا إن هذا ابن الحارث لزمهم وتنطفىء الفتنة . وإذا قالوا إنه ليس أبنه فإنه سيدبر تدبيرا آخر يرضى الكبير منهم والصغير ورضى الجميع بذلك .

بدأت رحلة التعرف الأولى بين عبد الوهاب وأبيه إلى العلماء وخصصت السيرة من العلماء والحكماء وأهل القافة . والقافة كما فى لسان العرب (مادة : قوف) : "جمع قائف وهو الذى يتتبع الآثار ويعرفها ويعرف شبه الرجل بأخيه وأبيه" فهى رحلة مع العلم الذى يعترفون به وهو علم القيافة .

ذهب الجميع ، اتباع الأمير ورجاله ومظلوم ورجاله وذات الهمة ووالدها ورجالهما يسير معهم عبد الوهاب . وفى الطريق تآمر ظالم وابنه الحارث مع رجل قاطع طريق تذكر السيرة أن العرب يسمونه شيطان الحجاز وعفريت البر والمغار . وساقا إليه النوق والجمال ، مقدم ثمن لقتل الأبن وأمه .

كانت ذات الهمة يقظة ، فظلت ساهرة تدور حول رجالها تحميهم من غدر الغادر ، وفى الغد أقتحم غاشم قومها . وإذا فارس معه أكثر من خمسمائة فارس يتقدم نحو الغاشم . يطلب منه أن يتقى الله فى دماء المسلمين ، وكان هذا الفارس هو الأميرة ذات الهمة نفسها ، فقدم لها كباشا أحد عبيده الأقوياء فطعنته بالرمح فى صدره ، فطلع السنان يلمع من ظهره ، ولما رأى غاشم ذلك منها أحبها وطلب من الحارث أن يطلقها وشهد بأنها حرة كما شهد لابنها .

احارث طلقها فقد عظم الأمر
وما لى عنها بعدها فعلت صبر
وليس سواد الأبن مما يعيبها
وماهى إلا حرة ظاهرة الطهر
شهدت لها انى اراها نقية
وماهى الا حرة وابنها حر
(ص ٢٣٣)

واتفق الحارث معه أنه إن ظفر بها غاشم طلقها وإن لم يظفر بها فكلاهما فى العجز سواء . ورفضت ذات الهمة عرض غاشم بالزواج

مع أن العرض كان ينفى عنها تهمة الزنا ، وحددت موقفها فهى لن تتزوج ، لأنها تتفرد بخدمة ربها وطلب الآخرة ولن تركب الخيل لفخر ولكن للجهاد فى سبيل رب العباد . فأرسل إليها هدية سنية مما كان ينهبه من مال الحجاج ، كما أرسل أليها ظالما والحارث موثقين ، ومع ذلك رفضت عرضه ثانية فغضب ولم يعد بينهما إلا القتال .

واستطاعت ذات الهمة أن تقتل هذا الفارس الصنديد ، وغنمت وقومها أمواله وأموال قومه . ومع ذلك رفض الحارث أن يعترف بابنه وأصر والده أن يدخلوا بيت الله الحرام حتى يفتضح أحدهما فى الأحكام ، والشيطان عقبة ينصح بضرورة البقاء حتى يظهر الأمر ويهتك أصحاب الفضائح .

كان الموقف صعبا على والد ذات الهمة ، فقد سأل ابنته حين وصلوا إلى مكة أن تقول له الحقيقة فهو يخاف الآن من الفضيحة ، وقد أصبح الموت عليه أهون مما يحدث له .. فتألمت ذات الهمة من موقف أبيها ، كيف يشك فيها ، ورأت أن الموت أهون عليها من شكه .

طافت ليلة بالكعبة وهى تتضرع إلى الله أن يبين الحق ويظهر حتى أصبح الصباح ، وأتوا بالقافة وعلى أكتفاهم الأبراد اليمانية وقد حضر من قدم معها ، وأتت ذات الهمة وقد التفت فى إزار ، فحدثتهم بقضيتها وحدثهم الحارث بقضيته ، اقسم شيخ القافة بالله أن يحكم اليوم بالحق ولا يستعمل إلا الصدق ، ثم إنه قال: الحمد لله المتعال عن الشبيه الذى ليس له عديل ولا شبيه . معاشر الناس ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الولد للفراش . وهذا الولد للحارث من جهة الوجه ، وإنه دخلت عليه الأفكار لأجل سواده وتغير لونه وأضطراب كونه ، ثم اقسم بالله العظيم أن هذا الصبى

ولد الحارث لأن عينيه تشبهان عينيه . وكذلك المعاصم والشمائل والكفوف والأنامل والأطراف .

ولما سمع الحارث من القافة ذلك زعق وعبر عن شكه فى صدق الرجل وأنه مخرف . وأصبح واضحا أن قضية تعرف واعترافه بعبدالوهاب قضية عناد .

كان شيخ القافة نقى الشيبة ، فلما اسمع كلام الحارث طلب أن يبسطوا بسطا من الرمل . فأحضروها فى الحال . وطلب أن يمشى الحارث عليها ومعه عشرة من الرجال والطفل معهم وأخبرهم أنه حين يتم سيرهم على الرمال . قادر على أو يتعرف على والد الطفل من بين أقدام الرجال العشرة . ومشى الرجال والصغير معهم دون أن ينظر اليهم الشيخ ، ثم أقبل شيخ القافة ونظر الى الأقدام وحرك رأسه . وأستطاع أن يتعرف على قدم الأبن وقدم الأب من بين أقدام الرجال .

وفرحت ذات الهمة وأبوها واتباعها من هذا الانصاف إلا أن الأب والجد وأتباعهما ازدادوا غضبا ورفضوا حكم الجماعة ، وأعلن الحارث أنه متبرىء من هذا الأبن وكذلك الجد ووصف عقبة الطفل أنه لقيط مثله مثل الكلاب :

ليس عبد الوهاب منا بشىء
فاسمعوا انتم القول الصواب
فقد صح عندى انه لقيط
بين الاصل مثله كالكلاب
(السيرة ص ٢٤٧)

وبرفض الرجال الثلاثة حكم علم القافة ، كان عليهم أن يتجهوا الى صاحب الكشف .

● ● ●

وكان رأى الحكماء أنهم إذا كانوا قد رفضوا حكمهم فهناك من يحكم الحكم الحق وقد ورث القضاء عن أبيه وجده وهو إمام جعفر

بن محمد الصادق فهو أهل بين النبوة ومعدن الفتوة . ويأمر بالمعروف ويكشف الكروب ويغيث الملهوف . وافق جميع أهل مكة على هذا الرأى وأجمعوا عليه فما لهذه القضية سوى هذا الإمام ورضى المتخاصمون بذلك ، وحملوا الطفل عبد الوهاب .. وكان يدرك ماحوله وهو يعيش أحزانا تعلو أحزان البشر ، ويبدو أنه كان يختزنها داخله . أما أمه فإنها صابرة لما يحدث محتسبة بالملك العلام . حتى ظهر الإمام الصادق وظهرت على الناس هيبته فصمت الناس ولم يتكلم أحد . قدم العرنوس للإمام الطاهر وصعد عليه فرمت الأميرة نفسها تحت الفرس وهى تناديه يابن المشاعر الحرام والصفا والمروة والمقام الأعلى . ابن المرتضى وابن العروة الوثقى ومن حبهم شفى على طول المدى تسأله أن يأخذ بيد مظلومة قل ناصرها وكثر حاسدها وشك فيها أبوها ، وهى تقسم له بحق البيت الحرام والركن والحجر ثم المقام مادناها سوء ولاهم قلبها بارتكاب آثام وذنوب . وقام الحارث مضادا لذات الهمة يعرض قضيته بقلب ملىء بالحقد ويهدد أنه إذا حكم لها فسيذهب الى الروم :

فإن حكمت بجور إننى رجل
امضى الى الروم مرتدا عن النعم

أما والده فقد عزز كلام ابنه وزاد فى توضيح موقفهما بأنهما سيصبحان نصارى إن حكم بغير ما يريدان .

ولن حكمت (لنا) فنحن باسرنا
نمضى نصارى بعد ظلم زائد

وتعرف الإمام جعفر على الطفل عبدالوهاب ، وسأل الإمام الحارث إن كان قد أتى زوجته وهى حائض فأجاب بالإيجاب . وكان رأى الإمام أن حكم الله نزل الأبيض من الأسود والأسود من

الأبيض فلا يصعب على الله ولا ينفذ من قدره أن تتبدل الألوان فلا
يستطيع غير الله أن يجعل الأبيضْ أسود فأمره بين الكاف والنون
يقول للشيء كن فيكون . خلق عيسى بن مريم من غير أب . وماداا
الرجل قد جامع زوجته وهى حائض فالغلام يأتى أسود اللون
وذلك الحكم يقيسه الصادق على موقف جده رسول الله صلى الله
عليه وسلم ، فقد حمل اليه غلام أسود أمه وأبوه أبيضان فحكم بأنه
ولدهما وذكر أنه يحكم بحكم جده ؛ فإن الرجل إذا واقع زوجته
والدم أسود محتقن فى أول الحيض جاء الولد أحمر اللون ، وإذا
واقعها عند انتهاء الحيض وصفاء الدم جاء الولد شبيها لأبيه .
فإذا كان الحارث قد واقع زوجته وهى حائض ، والمستحاضة دمها
أحمر ، والحيض أسود والنطفة بيضاء ودم المرأة أغبر فالولد ولد
الحارث وعليه إن شاء أن يقربه وإن شاء يبعده . وشاء الأب أن
يبعد الابن فلا تعرف ولا اعتراف وهو من الغيظ يريد أن يكيد
فيرفض أن يعرف وأن يعترف ، وحاول أن يفضح ذات الهمة عند
الخليفة المهدى وطعن فى رأى الإمام الصادق معلنا أن شد الزنار
والمقام فى بلاد الكفر خير منْ الذل والشنار .

ويتدخل الحكم عند الخليفة ويتدخل الحلم لينصف عبدالوهاب
وليعرف الأب بحقيقة ابنه ، فقد أعيدت الحكومة مرة ثانية أمام
المهدى ، وكان المهدى قد أصدر حكمه فى هذه القضية قبل
وصولهم ، فقد شهد على صدق المرأة وأحقية الطفل بنسب أبيه هو
محمد صلى الله عليه وسلم . فقد ذكر المهدى أن ابن عمه أتاه فى
المنام وأخبره بخبر المرأة وابنها وذكر له نفس الحدث الذى ذكره
الصادق ، وكان حديث الرسول صلى الله عليه وسلم فى المنام مع
ابن عمه عن الغلام ، فالرسول صلى الله عليه وسلم يشعر بشقاء
الطفل الذى تحركه الأيدى متهمة إياه بأنه لقيط ، فقد كسر قلبه ،
وأصابه الشقاء فى الدنيا وأنه مظلوم متهوم بالزور والبهتان

والعدوان . وقد أمر الرسول خليفته فى الأرض أن ينصره على عدوه حين يحضر بين يديه .

كانت هذه الحكومة هى آخر أو خاتمة المواقف السلمية بين الجد والأب وبين الأم والابن ، فقد حدث انفصال لا رجعة فيه بعد ذلك ، لقد رفض الجد ظالم حكومة الصادق والمهدى ورأى أن العار قد أصابهم بإضافة هذا الابن اليهم وأن إبعاد هذا الطفل عنهم لن يغير من العار الذى أصابهم شيئا ، ومابقى له بعد موقف الخليفة منه إلا حنا ومريم والصليب ، وقد امتلأ حقدا ليس على ذات الهمة وابنها فقط وإنما على كل العرب . وقرر أن يدك بلاد الحجاز فى هذا العام دكا ويسفك دماء المسلمين سفكا .

وقد وقف الابن فى المعسكر المعادى تماماً لهذه الفكرة ووقع له الخليفة بإمارة بنى كلاب وهو مازال فى عامه السابع وجعل له ولأمه قلاع ملطية فى الثغور المجاورة للحدود بين العرب والروم . وعبدالوهاب يتسلم منصبه من الخليفة مجاهدا يجاهد أعداء العرب والمسلمين .

كانت هذه المواقف التى تجعل الأب فى جهة والابن فى جهة أخرى تصعد المواجهة بينهما ، فلم يعد الصراع صراعا حول التعرف على الابن والاعتراف به وإنما أصبح الصراع حول العقيدة ، مما قطع وشائج الدم تماما وروابط القربى . ولم يعد ممكنا أن يتم التعرف بين الابن وأبيه بأى طريقة من طرق المعرفة سواء أكانت معرفة حسية أو حدسية . ولم يبق إلا السيف ليكون حكما بينهما .

وكان واضحا من الأب أنه لا يهتم من المسيحية أو الإسلام سوى بقتل ذات الهمة وولدها . وأيا ما كانت دوافعه فإن كليهما أصبحا متقابلين فى الصراع ، وأصبح طريق اللقاء بينهما مسدودا لا يمكن فتحه ، كما لا يمكن إيقاف الصراع بين الابن المعذب

الذى رفضه الأب وبين الأب الذى أنكرته الحبيبة ثم أنكره المجتمع .

تتابعت الأحداث بعد ذلك ، فالأب فى جانب والابن فى جانب آخر . يقف الأب مع الأعداء ويقف الابن مع قومه فى ذلك الصراع الرومى العربى الطويل وقد خرج العرب لملاقاة الروم . وفى العرب مظلوم وابنته وحفيده ، وفى الروم ظالم وابنه الحارث .

وفى البداية التقى الأخ بأخيه ، التقى ظالم بمظلوم وكل الحقد يملأهما فتضاربا على الجوانب والدرق ، وطلع عليهما الغبار ساعة من النهار وحين انكشف الغبار كان ظالم قد قتل مظلوما . أراق الأخ دم أخيه وأصبح بين ذات الهمة وعمها جدار جديد هو دم أبيها . فأرادت أن تذهب لملاقاته فمنعها الابن وذهب بنفسه لملاقاة جده . وقد أعطاه الجد سببا فى أن يواجهه وأن يقتله دون أن يشعر بأسف أو ندم ، واستمرا فى الضرب والطعان والإقبال والإبعاد ، وجرى بينهما ما يشيب الشباب ساعة من النهار فضايقه الحفيد ولاصقه ثم طعنه فى صدره فوقع على الأرض قتيلا .

رأى الحارث الأب ما حدث لأبيه فالتقى بابنه وأعطى ابنه كل الأسباب لقتله ، فهو يفخر بدينه الجديد ، ولمزه بأنه ابن العبد مرزوق وبإمعانه فى إنكاره لابنه ساعة القتال ، انتزع من قلب الابن الإحساس بأبوته . وأخذ الغضب يأكل الابن من تصرف أبيه ، ولم يعد يريد منه أن يتعرف عليه أو أن يعترف به ، وإنما أصبح يريد قتله . ولم تصور السير موقف حقد بين أب وابنه مثلما صورت سيرة ذات الهمة هذا الموقف وأعطت لكل منهما الأسباب القوية التى تدعو لقتل الآخر ، فالجد أنكر الابن وتنصر وقاتل فى صفوف الأعداء ثم قتل أخاه ، والوالد أنكر الابن وتنصر وقاتل فى صفوف

الأعداء وهو يشاهد والده يقتل بيد ابنه فيتجه نحوه ليقتله فيتصدى له الابن الذى يملك دوافع عميقة لقتل الأب فى هذه المواجهة ، ودارت معركة ضارية ضاعت فيها عواطف الأبوة والبنوة وأخذا فى الطعان والضراب وجرى بينهما ما يشيب الشباب . وعندما نادى الحارث يستنجد بالمسيح أن يعينه على ابنه الذى يسميه بالبغل الأسود الذى يزعم أنه ولده ، تطرق الكلمات سمع عبدالوهاب فيرى كفر أبيه وطغيانه فيستولى عليه الغضب ، وإذا كان الأب يستعين على ابنه بالمسيح فإن الابن يستعين على والده بالله فيناجى ربه مناديا :

يامن فى ملكه احتجب ، ورفع السماء بغير عمد
ورسى الجبال بغير سند ، وليست له صاحب ولا ولد
وبحق من ركع لك وسجد .
أسالك أن تجدد لعبدك الحيل والقوة والجلد .

ويشتدان بعد ذلك فى الضراب ، فانطبقا على بعضهما البعض انطباق الغمام وارتفع صياحهما حتى أذهل الأنام ، ثم اختلفت بينهما طعنتان قاتلتان واصلتان صائبتان فذتان ، فأما طعنة الحارث فإنها وقعت فى خاصرة عبدالوهاب وكانت فى الجلد وأما طعنة الابن فجاءت فى صدر الأب وخرجت من ظهره . ومال قليلا . وعاد الابن من الميدان ودمه يسيل ، وقد أمسك جرحه بيده حتى التقى بوالدته . (ص ٣٢١)

اختار الراوى أن يكون شكل اللقاء الذى تم بين الجد والابن وبين الحفيد وقتالهما ليس للوصول إلى التعرف وإنما لتوقيع العقاب على الظلم الذى أوقعاه بالحفيد ، ويكون انتصار الابن عليهما اعترافا كونيا بشرعية ميلاده .

والرواية تقدم أبطالا خرجوا من صلب الصحصاح المحارب الذى قضى شبابه محاربا يقود جيوش المسلمين فى الثغور ، فلم يجعل أحدا من أبنائه يقف ضد موقف مجتمعه وضد ماعاش له دون

عقاب ، ولاتترك الرواية عقابهما لأحد من خارج الأسرة ، وإنما تجعل الحفيد القوة الباقية من الصلب القديم هى أداة العقاب ، ليصبح هذا الموقف المأساوى الكبير المثير من المواقف المتفردة فى السير الشعبية .



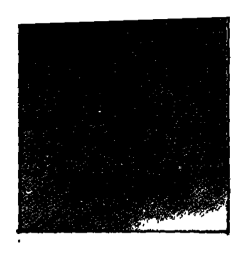


حاول البحث أن يتناول حلقة الميلاد فى السير الشعبية ووحدة موضوعها ليتكشف وحدة فى بنائها ، فهى تسير فى سبع حلقات مترابطة المصادر ، وهى عن الراوى ، والرواية ، والنبوءة ، ونسب البطل ، ومواليده ، فغربته واغترابه ، ثم الحلقة الأخيرة وهى التعرف والاعتراف .

وتوقف هذا البحث عند التعرف والاعتراف لا يعنى نهاية البحث فى هذا الاتجاه . فهناك جوانب أخرى يحاول الباحث أن يتمها ، وهى مرتبطة ارتباطا تاما مع مواليد البطل ، فالمواليد هو الفصل الأول من فصولها ، يتبعه الفصل الخاص بالعبور ، وهذا الأخير متداخل إلى حد كبير مع التعرف والاعتراف ، ثم البطل والمصير ، والرابع البطل والمرأة ، والخامس البطل امرأة ، والسادس الأسطورة وبنية الحدث فى السيرة ، والسابع لغة السيرة . وكذلك لا يمكن اغفال دور الفرس ليكون واحدا من فصولها .

وإذا كان المتبقى للباحث يمثل الجهد الأكبر مما تم فى دراسة السيرة ، فهو لا يطمع فى أن يقوم به بمفرده وإنما يتمنى أن يشاركه فى تحمل هذا العبء فريق عمل ، إذ السيرة مازالت الكنز الذى لم يكشف عن قيمته حتى الآن .

ولا يتصور الباحث أنه أغلق باب الموضوع ، فمازالت هناك جوانب كثيرة فى حاجة إلى الدارسين الجادين الذين يمكن أن يقوموا ببحثها ودراستها وهو نفسه يحاول .



(١) يرى دى بور أن "التفكير السامى يقوم على نظرات فى شئون الطبيعة متفرقة لا رابط بينها ، ويقوم بوجه خاص على النظر فى حياة الإنسان ، وفى مصيره ، وإذا عرض للعقل السامى ما يعجز عن إدراكه لم يشق عليه أن يرده إلى إرادة الله التى لا يعجزها شىء ، ونحن نعرف هذا الضرب من الحكمة فى العهد القديم . ويدل على تكوينه لدى العرب ماجاء فى التوراة من قصة ملكة سبأ وما يحكى عن شخصية لقمان الحكيم مما هو وارد فى المأثورات العربية" . (تاريخ الفلسفة فى الإسلام ص ١١١)

ويرى جورج جيكوب أن الإسلام كان يقف ضد الدراما وأى شىء خلاق فى الفن العربى وهو يعزى ذلك إلى تأثير الإسلام على سكان المنطقة . (History of Theater, P. 11)

ويقلل نيكلسون من شأن القصص العربى بإنكاره أن الأدب العربى لم يبدع ملحمة شعرية كبيرة ، وكل ما أبدعه كان قصصا نثرية ، وهى تكاد تقترب من الملاحم إلا أنه من المستحسن أن تسمى قصصا تاريخية" . (Literary history of the Arabs, P. 3 e 5)

(٢) يذكر العقاد أن العرب كانوا قبائل رحلا يؤمون المدن فى مواسم تتقسمها العبادة والتجارة والخطابة "فائتمر التاريخ والإقليم واللغة على أن يكون العرب أمة بلا خيال" . (الفصول ، ص ١٤٠)

ويرى أحمد أمين أن خيال العربى محدود وغير متنوع "وقلما يرسم له خياله عيشة خيرا من عيشته وحياة خيرا من حياته يسعى وراءها . لذلك لم يعرف المثل الأعلى لأنه وليد الخيال ، ولم يضع له فى لغته لفظة واحدة دالة عليه ولم يشر إليه فيما نعرف من قوله ، وقلما يسبح خياله الشعرى فى عالم جديد ينتقى منه معنى جديدا ، ولكنه فى دائرته الضيقة استطاع أن يرود كل مذهب" . (فجر الإسلام ص ٢٣)

أما غنيمى هلال فيذكر أن الأدب العربى "لم يكن فى قديمه للقصة شأن يذكر ، وكان لها مفهوم خاص لم ينهض بها ولم يجعلها ذات رسالة اجتماعية وإنسانية ، على أن القصة فى الأدب العربى القديم لم تكن جوهر الأدب (كالشعر والخطابة والرسائل مثلا) بل كان يتخلى عنها كبار الأدباء لغيرهم من الوعاظ وكتاب السير والوصايا" . (الأدب المقارن ص ٢١٤ ـ ٢١٥)

ويذكر فى موضع آخر من المرجع نفسه أن "الذى لا مجال لأدنى شك فيه أن القصة العربية لم ينظر إليها قبل العصر الحديث على أنها جنس أدبى له قواعده ، أو له رسالة فنية أو إنسانية" (ص ٢٣٥ ـ ٢٣٦)

(٣) يقف عبدالحميد يونس ضد هذه النظرة فهو يعجب من التعميمات فى الأحكام ويذكر أنه قد "وقع كثير من الباحثين فى الأدب العربى أو المتصدين لعوامل التأثر والتأثير بين الآداب العربية والأوربية فى خطأ دفع إليه التعميم فى الحكم وقياس أثر أدبى على أثر أدبى آخر ، فزعموا أن القصة العربية مقصورة على النثر ، وهم يقصدون بذلك القول غير الملتزم لوزن خاص أو قافية خاصة ولا أعتقد أننا محتاجون

لبيان مجافاة هذا القول للصواب إلى تصحيح التعريف" (الهلالية ص ١٣٧)

ويقف فاروق خورشيد مدافعا عن العقلية العربية بأن إبداعها حورب من بعض العرب ومن كثير من المستشرقين . ويذكر أن النظرة الشاملة إلى أدبنا العربى التى ننظر فيها إلى تراثنا الأدبى من خلال النافذة التى فتحها أصحاب اللغة والبلاغة أرضت الأعداء التقليديين للشعب العربى ، فجهد أصحاب الاستشراق فى تثبيت معالم هذه الصورة ، وجعلها بكل تفاصيلها من المسلمات التى تصطبغ بالصيغة العلمية حتى يؤمن بها أبناء هذه الأمة العربية من أنها لا تعرف عقلية التحليل والتركيب وإنما هى عقلية تجريدية تغرق نفسها فى الجزئيات ولا تقوى على تصور الكليات وهو شعب يقتصر دوره الحضارى ـ كما يذكر المستشرق جوستاف جرونباوم فى كتابه (حضارة الإسلام) ـ على حمل الحضارة اليونانية القديمة إلى الحضارة الأوربية الحديثة دون أن تحمل هذه الحضارة حتى بصمات أصابع من حملوها" ولكن هذا الحكم لا يرضى أصحاب الفن العربى اليوم لأن التسليم به تسليم بتهمة تلصق بماضيهم فتنسحب على حاضرهم وتضم مستقبلهم ، ومن هنا كان بحثهم الدائب عن كل ما يثبت هذا الحكم الخاطىء المتعسف" . (أضواء على السيرة الشعبية ص ٨ ، ٩)

ويفرد عبدالحميد إبراهيم فصلا يؤكد فيه معرفة العرب للقصة وفى مواجهة التهمة يذكر "أن القصة واكبت الأمة العربية فى سيرها التاريخى . وفى كل عصر كانت أداة فنية تعبر عن حاجات العرب وتكشف عن ظروفهم التى كانوا يمرون بها" . (قصص العشاق النثرية ص ٢٨)

ولقد قدمت بردجت كونلى فصلا ممتعا بعنوان "الدفاع عن السيرة" ناقشت فيه دعوى جرونياوم ونيكلسون أنه ليست هناك ملحمة فى الأدب العربى . (Arab Folk Epic P. P 3 - 25)

وفى كتاب "العرب وفن المسرح" للباحث ذكر التهم التى وجهت للعرب ولم يحاول أن يدحضها لأن حقيقة الإبداع العربى تدحضها بسهولة (ص ٥ ـ ٧) .

وفى كتاب Origins of Arabic Theater للباحث أيضا تعرض بتفصيل أكبر لتهمة عجز العقلية العربية وتصديق بعض الباحثين العرب لها ثم اتهام الإسلام بأنه سبب ذلك . (P.p 8 - 9)

(٤) حاول محمد توحيد السلحدار فى ثلاث مقالات فى صحيفة "المقطم" أن يكشف عن سر إعجاب الجمهور بمسرحية "الأحدب" ، ويربط بينها وبين اقترابها من قصص البطولة التى تعود عليها الجمهور ، ويدلل على ذلك بأنه قد لوحظ ليلة تمثيل الأحدب عندنا للمرة الأولى أن حركة المقاتلة الكبرى فى فاتحة الرواية قد نبهت غريزة التوقى الذاتى وأثارت الحفيظة فى سواد الجمهور فتحمس لبطله ولما أمر بيرول بطرح لجاردير فى النهر ، فطرح هو بدله ، وحمل البطل على سرير عدوه إلى حيث أراد ، صفق الجمهور طربا لهذا النصر الغير المنتظر ، وكذلك تأثر فى جميع أحوال هذا البطل غالبا كان أو مغلوبا كأن النفوس المتجمهرة توهمته رمزا للأمن والفضيلة والحق وتوهمت التمثيل حقيقة ، وذلك كله من حصول الطرب وشدة الروح العاملة للروح الخاصة" . (المقطم ع ٧١٥ فى ١٩١٢/٨/٠٢)

(٥) قدمت كاترين أنيتا بيكر رسالة دكتوراه من جامعة أنديانا ، وقد اشتهرت هذه الرسالة ـ ساعة أن أصبحت فى ميكروفيلم ـ بين الدارسين وقد أبلغت أنها نشرت Cathryn Anita Baker, The Hilali Saga . Tunisian South . Indiana University 1978 .

وكذلك قدم بيتر هيث رسالة دكتوراة عن عنترة : السيف الظمآن : Peter Heath, The Thirsty Sword Structure and Composition in Sirat, Antar ibn Shaddad, Harvard University 1981 .

(٦) لم يكن شكرى عياد يتحدث بهذه الكلمات عن بطل السيرة ، وإنما عن البطل الأسطورى ، وقد استخدمته فى الحديث عن بطل السيرة لا لأن هناك ارتباطا بينهما فقط ولكن لأن بطل السيرة فى رأيى هو بطل أسطورى فى الدرجة الأولى ، وهذا ما أقوم ببحثه فى مشروع دراسة السيرة الشعبية ويؤكده هذا البحث .

(٧) تذكر دائرة المعارف الاسلامية أن الخضر فى الأصل لقب معناه الرجل الأخضر ، ثم نسى هذا اللقب على مر الأيام . وهذا يفسر لنا الصفة الثانية وهى الخضر (تشبيها بالنبات الأخضر) التى حلت محل الأولى فى مواضع كثيرة . (ص ٣٤٧)

وما تذكره سيرة حمزة من وصفه الإمام الخضر بالاخضرار فهو "الخضر الأخضر" يوضح أن علاقة الاخضرار لم تنس ، ولا حاجة لتوضيح الرابطة بين الخضر والاخضرار . ولقد ورث الخضر فى معتقدات العامة فى الشرق الأوسط كل ما يخص معتقدات الخصب والإخصاب ، وكان له دور كبير فى معتقدات المتصوفة ولقد وقف منه السلف مواقف شتى ،

حدد ابن حجر الكثير منها فى كتابه "الإصابة" وقد تحدث عن نسبه وما ورد فى كونه نبيا وما ورد فى تعميره والسبب فى ذلك . وذكر من ذهب إلى أن الخضر مات ، والأخبار التى وردت فى أن الخضر كان فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم ، وبعده إلى الآن . ومن نقل عنه أنه رآه وكلمه . (الإصابة ٤٢٩/١ - ٤٥٢)

ويورد فى الكتاب حديثا للنبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : "الخضر فى البحر واليسع فى البر يجتمعان كل ليلة عند الردم الذى بناه ذو القرنين بين الناس وبين يأجوج ومأجوج ، ويحجان ويعتمران كل عام ، ويشربان من زمزم شربة تكفيهما إلى قابل" . (ص ٤٣٢) . وهذا القول يجعل الربط بين الخضر خاجة الهندى واضحا ، فقد اتخذ فى الهند سمتا خاصا بأهل الهند ومعتقداتهم (دائرة المعارف ص ٤٦٨ - ٤٦٩)

وقد ذكر الحافظ ابن كثير فى "البداية والنهاية" الآراء التى قيلت عن اسمه ، وجميعها يقرنه بالخضرة والخير ، فذكر أنه إنما سمى الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء ، فإذا هى تهتز من خلفه خضراء تفرد به ، كما ذكر الفروة عن الخطابى وأبى الخطاب أن الفروة البيضاء تعنى الأرض . وبذلك يكون هو مسبب الخضرة للأرض ، وقيل : إن الفروة الحشيش الأبيض ، ويعنى به الهشيم اليابس وهو يحوله إلى أخضر ، وقد ذكر عن مجاهد أنه قال : إنما سمى الخضر ؛ لأنه كان إذا صلى اخضر ما حوله . (ص ٣٢٧)

وقد محص ابن كثير الآراء التى دارت حول الخضر واتخذ موقفا عقليا منها ، وقد ذكر كثيرا من الحكايات حوله (ص ٣٢٥ - ٣٢٧) مما أوردها فيما بعد ابن حجر وعلق عليها بأن

"هذه الروايات والحكايات هى عمد من ذهب إلى حياته إلى اليوم وكل من الأحاديث المرفوعة ضعيفة جدا لا يقوم بمثلها حجة في الدين والحكايات لا يخلو أكثرها من ضعف الإسناد" . (ص ٣٣٤)

ومع هذه الخلافات التى بين العلماء حول الخضر فإن الرواة الشعبيين لم يختلفوا حوله ، فقد ساهم فى صنع حركة الأحداث لكثير من الأبطال مما جعل دوره يدخل تحت دائرة بحث خاص يعده الباحث حول "السيرة والأسطورة" .

(٨) فى النص (لنا) . ويبدو أنها خطأ مطبعى ، فالمعنى لا يستقيم والصواب (لها) .





أولا : المصـادر .

- الأيتام ،رواية شفوية للحاج عبدالظاهر بالكرنك فى صعيد مصر ، جمعها د . أحمد شمس الدين الحجاجى فى ١٩٧٨/٨/٣٠ م .
- الأيتام ، رواية شفوية لعوض الله عبدالجليل بالحجز بحرى ، مركز إدفو ، جمعها د . أحمد شمس الدين الحجاجى فى ١٩٧٩/٤/٢٥ م .
- الأيتام ، رواية شفوية للنادى عثمان ، بالطود قبلى ، مركز الأقصر جمعها د . أحمد شمس الدين الحجاجى ، فى ١٩٧٩/٤/١٠ م .
- مقتل الزناتى خليفه ، رواية شفوية لعوض الله عبدالجليل بالحجز بحرى ، مركز إدفو ، جمعها د . أحمد شمس الدين الحجاجى فى ١٩٧٩/٤/١٨ م .
- مقتل الزناتى خليفة ، رواية شفوية للنادى عثمان ، بالطود قبلى مركز الأقصر ، جمعها د . أحمد شمس الدين الحجاجى فى ١٩٧٩/٤/١٣ م .
- مواليد أبى زيد الهلالى ، رواية شفوية لعبدالسلام حامد بالأقصر ، جمعها د . أحمد شمس الدين الحجاجى فى أول سبتمبر/١٩٧٨ م .
- مواليد أبى زيد الهلالى ، رواية شفوية للحاج عبدالظاهر بالكرنك فى صعيد مصر ، جمعها د . أحمد شمس الدين الحجاجى فى ١٩٧٨/٨/٢ م .

- مواليد أبى زيد الهلالى ، رواية شفوية لعوض الله عبدالجليل ، بالحجز بحرى ، مركز إدفو ، جمعها د . أحمد شمس الدين الحجاجى فى ١٩٧٩/٣/٢٧ م .
- من أقاصيص بنى هلال ، رواية شفوية عن شيخ ليبى من جادو ، جمعها عبد الرحمن قيقة ، قدم لها ونقلها إلى العربية الفصحى الطاهر قيقة ، تونس : الدار التونسية للنشر ، ط ٢ ، ١٩٨٥ م .
- قصص أبى زيد الهلالى سلامة ، جمعها بترسن من عرب الشوا فى شمال نيجيريا ، ونشرها فى كتابه : Patterson, I. R., Stories of Abu Zaid The Hilali In Shuwa Arabs, London, 1930 .
- ألف ليلة وليلة ، تحقيق محسن مهدى ، ليدن أ . ى . بريل للنشر ، سنة ١٩٨٤ .
- تغريبة بنى هلال ، القاهرة . مطبعة محمد على صبيح . (د . ت)
- سيرة الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، القاهرة ، مكتبة الجمهورية : (د . ت)
- سيرة الأميرة ذات الهمة وولدها عبدالوهاب ، القاهرة . مكتبة عبدالحميد أحمد حنفى (د . ت) .
- سيرة بنى هلال ، بيروت : دار الكتب الشعبية ، (د . ت) .
- سيرة الظاهر بيبرس . القاهرة . عبد الحميد أحمد حنفى (د . ت)
- سيرة عنترة بن شداد . القاهرة . مكتبة الجمهورية ، (د . ت)
- سيرة الملك سيف : القاهرة : مكتبة الجمهورية . (د . ت)
- قصة الأميرة حمزة البهلوان ، القاهرة : مكتبة الجمهورية ، (د . ت)
- قصة الأميرة ذات الهمة ، القاهرة : مكتبة مصطفى البابى الحلبى ، سنة ١٩٦٢ م .
- قصة الزير سالم ، أبو ليلى المهلهل ، دار الكتب العلمية ، بيروت : (د . ت)

- قصة سيرة الإمام على بن أبى طالب ، لأبى الحسن أحمد بن عبدالله صبيح ، القاهرة : ١٩٦٤ م .
- قصة فتوح اليمن الكبرى الشهير برأس الغول ، القاهرة : مكتبة الجمهورية ، (د . ت) .

ثانيا : المــراجــع :

ا ـ المراجع العربية :

- إبراهيم ، عبدالحميد : قصص العشاق النثرية فى العصر الأموى ، القاهرة : دار الثقافة ، ١٩٧٢ م .
- إبراهيم ، نبيلة : سيرة الأميرة ذات الهمة ، دراسة ، مقارنة ، القاهرة ؛ دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، (د . ت) .
- أحمد أمين : فجر الإسلام ، القاهرة : مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر .
- الجهيمان ، عبدالكريم : أساطير من قلب الجزيرة العربية ، الرياض : دار أشبال العرب ، ١٩٨٠ م .
- الحجاجى ، أحمد شمس الدين · الأسطورة فى الأدب العربى ، القاهرة : دار الهلال ، كتاب الهلال ع ٣٩٢ أغسطس سنة ١٩٨٣ م .
- الحجاجى ، أحمد شمس الدين : العرب وفن المسرح ، القاهرة : دار الفصحى ، ١٩٨٤ م .
- ابن حجر العسقلانى ، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن على : الإصابة فى تمييز الصحابة ، مطبعة السعادة ، القاهرة : ١٣٢٨ هـ .
- حسانين ، فؤاد : قصصنا الشعبى ، القاهرة : دار الفكر العربى ، ١٩٤٧ م .
- خورشيد ، فاروق : أضواء على السير الشعبية ، القاهرة : المؤسسة المصرية العامة للكتاب ، سلسلة المكتبة الثقافية ، يناير ١٩٦٤ م .

- خورشيد ، فاروق ومحمود ذهنى : فن كتابة السيرة الشعبية ، بيروت : منشورات أقرأ . (د . ت) .
- دائرة المعارف الإسلامية . الترجمة العربية ، القاهرة : ١٩٣٢ ـ ١٩٤٩ م .
- دى بور ، ب . ح . تاريخ الفلسفة فى الإسلام ، ترجمة محمد عبدالهادى أبو ريدة ، القاهرة : مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٣٥٧ .
- ذهنى ، محمود ، وفاروق خورشيد . فن كتابة السيرة : بيروت سلسلة اقرأ ، ١٩٨٠ م .
- عبدالحكيم ، شوقى : سيرة بنى هلال ، بيروت : دار التنوير ، ١٩٨٣ م .
- عبدالحكيم ، شوقى : السير والملاحم الشعبية العربية ، بيروت ، دار الحداثة ١٩٨٤ م .
- عبداللطيف ، محمد فهمى : أبو زيد الهلالى ، القاهرة ؛ دار المعارف ، ١٩٤٦ م .
- ألعقاد ، عباس محمود : الفصول ، القاهرة ، مطبعة السعادة ، ١٩٢٢ م .
- عياد ، شكرى محمد : البطل فى الأدب والأساطير ، القاهرة ، دار المعرفة ، ط ٢ ، ١٩٧١ م .
- القرشى ، أبوزيد محمد بن أبى طالب : جمهرة أشعار العرب فى الجاهلية والإسلام ، تحقيق على محمد البجاوى ، القاهرة ، (د . ت) .
- ابن كثير ، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير (ت ٧٧٤ هـ) : البداية والنهاية ، بيروت : دار ابن كثير ، (د . ت) .
- ليريك ، أليسون : روايات من تغريبة بنى هلال وحروب آل ضيغم ، الرياض : مطابع الفرزدق التجارية ، (د . ت) .
- ابن منظور الافريقى المصرى ، أبوالفضل جمال الدين محمد بن

مكرم : لسان العرب . بيروت : دار صادر ، (د . ت) .
- النجار ، محمد رجب : أبوزيد الهلالى ، الرمز والقضية ، الكويت دار القبس ، ١٩٧٦ م .
- ابن هشام ، أبو محمد عبدالملك (ت حوالى ٢١٨ هـ) ، السيرة النبوية ، تحقيق مصطفى السقا وآخرون ، (د . ت) .
- هلال ، محمد غنيمى : الأدب المقارن ، القاهرة : دار نهضة مصر ، (د . ت)
- يونس ، عبد الحميد : الظاهر بيبرس فى القصص الشعبى ، المكتبة الثقافية ، القاهرة : دار القلم ، (د . ت) .
- يونس ، عبدالحميد : الهلالية فى التاريخ والأدب ، القاهرة : مطبعة جامعة القاهرة ، ١٥٦ م .

ب - المراجع الأجنبية :

- Abercrombie, L., The Epic., London, Mortin Secker .
- Connelly, B., Arab Folk Epic and Identity : Berkeley : Univensity of California press .
- Al Haggagi, Ahmed Shams : The Origins of Arabic Theater, General Egyptian Book Organization, 1981 .
- Metin . A. A., History of Theater and Popular Entertainment In Turkey . Ankara : Forum, 1963 - 1964 .
- Nickilson, R. : Aliterary History of The Arabs, Cambridge, Cambridge University Press, 1962
- Raglan, lord., The Hero, New York ; New English library, 1979
- Rank, O., The Myth of The Birth of The Hero . New York, Alfred A. Knopt, Inc., 1964
Tillyard, E. M. W., The English Epic and its Back Ground, New-york : Oxford Press, 1966 .

مواليد أبى زيد الهلالى سلامة
رواية عوض الله عبد الجليل
من الحجز بحرى - مركز ادفو
محافظة أسوان
جمع : د . أحمد شمس الدين الحجاجى
بتاريخ : ٢٧ /٣ /١٩٧٩ م

يامسعدك ياللى تصلى على النبى
نبى عربى على أمته بيسال
ياقلبى صلى على نبينا المنتسب
اللى سرى له جبرائيل فى ليلة رجب
أبدى وافنن على ملوك العرب
بقول تعتبروا العقول الزكاه
بقول تعتبروا العقول التمام
أمة نبينا الزين عليه السلام
قال الهلالى رزق أمين الرجال
بدى أنا اتزوج يامقادم هلال
بدى أنا اتزوج يامقادم هلال
ياكش تجينى بنت واللا غلام
قالوا الهلايل هم فرسان تمام
بنت الشريف قرضه من الناس التمام
نسبة نبينا المصطفى عليه السلام
بنت الشريف قرضه ملك فى حماه
شدوا الهلايل فى وسيع الجبال
رزق الهلالى والأكابر وراه
رزق الهلالى شيخ اكابر هلال
عمد على جده وراح له المكان
كانوا أماير فى حظ أهل الزمان
رآهم صوبوا على الديوان
عرقبلهم ناقه سمينه عشا
عرقبلهم ناقه وزادهم كرم
كرمه لخضره اللى جات م الحشا
دبحلهم ناقه وزادهم كرم
عند الشريف بلغو الهنا والمراد

قال الشريف قرضه مرحبا بالعرب
إيه ماطلبتم فيه على الله كفاه
بحضرتكم ضم البعيد والقريب
قال الهلالى ابن نايل اناجيتك مريد
القرب منك ياربيع المشاه
القرب منك ياربيع الضيوف
نسبك يزودنى شرف ع الصفوف
قال الهلالى نسبك يزودنى شرف ع الصفوف
قال الشريف قرضه انا عاوز اربع تلوف
وخمسمية هايج ومتين كلاه
وخمسمية من خيار الخيول
وربعميه لجل شيل الحمول
دوله ودوله ياذوات العقول
دوله ودوله ياذوات العقول
كلوا طميعه للخدم والسعاه
كلوا طميعه للخدم والعبيد
فى مهر خضره اللى لقاها سعيد
وميتين حبشيه من أرض الصعيد
وميتين مملوك تجينا هناك
وميتين مملوك تاجى تسد الطلب
تخدم الاماره عالية الرتب
ومهر خضره فى المال خزنة ذهب
مهر أمها واسال كبار العرب
لو كان بدك ياهلالى دايرع النسب
انا ليلة الدخله عليا عشاك
انا ليلة الدخلة عليا العشا
فى مهر خضره اللى جات م الحشا

إذا جابت مولود كبر واتنشا
ابوزيد يطلع فارس يكيد العدا
يزقى العزول حنضل بكاس الردى
قال الهلالى إحنا رضينا بدا
وان قلت شى تانى على الله كفاه
وان قلت شئ تانى اقول لك وجب
حضروا القاضى وعدوا الدهب
صارت حليلته من وقتها من نساه
صارت حليلته بنت قرضه الشريف
سلطان على مكه وعرضه نضيف
شدوا لها هودج ملوكى ظريف
والبهلوان نصب جه حداه
والبهلوان راخر نصب عدته
نصب وفرجهم على صنعته
كل الاماره ادوه وابوها كساه
اتقدمت العربان ولا تاخرت
قعدت معاه سنه بكرت
وضعت شيحه بإذن الإله
وضعت وجابت شيحه بإذن الإله
وضعت وجابت شيحه وزاد الهنا
تقعد مع رزق فى حظ ودندنه
من بعدها قعدت حداشر سنة
متعوقه والوعد رايد بيه الإله
متعوقه والوعد رايد بيه الكريم الجليل
قادر على حكمه خفيف وتقيل
طلب ركوبه رزق الهلالى الأمير
يلقى الاماره والقرومة السماه

يلقى الأماره بولادهم اوكبوا
بالخير والعز والهنا اطربوا
ولادهم فوق الفراش يلعبوا
زى السبوعه فى وسيع الفلاة
زى النموره فى وسيع البطاح
أبواتهم زادوا الهنا والانشراح
لما نظرهم رزق الهلالى ازدادت بيه الجراح
عاود يكب الدمع جوا حماه
عاود يكب الدمع جوا الحمى
بكى وبل الخدود والمحرمة
إلا وأتت خضره دموعها قنا
إلا وأتت خضره الشريفة تبكى جفاه
ومن كتر ما كانت تموت فى هواه
ومن كتر ما كانت هواها عجيب
تبكى وتتصعب فى يوماً يغيب
قالت له قل لى أصل البكا ليه ياحبيب
يارزق تبكى ليه البكا إيش نباه
يارزق تبكى ليه ياكتير المقام
تبكى ياهلالى وليك دمع سال
قال لها ياخضره حصل لى كلام
ما قرم فارس إلا ابنه بيلعب معاه
ما قرم إلا ابنه بيلعب معاه ع الفراش
وبصيت لقيت نفسى بنيتهم بلاش
نزلت دموع خضره تغنى طشاش
من هرج رزق اللى طراها حداه
من هرج رزق اللى طرى هذا الجواب
كان عند خضره عقل فى الراس وغلب
إلا وأتت شمه بنت الحسب تجر الثياب

بخدود يحاكوا الورد مسّه الندى
دخلت وتلقى خضره متنكده
قالت لها ياخضره "أيا بنت عمى" مالك كده
لم ضع لكم ضايع ولا حد تاه
لم ضع لكم ضايع من الوطن عام
ليه بتبكى ياخضره وليكى دمع سال
قالت لها اياشمه حصل لى كلام
مزق صميم قلبى ودمعى يسيل
مزق صميم قلبى ودوب حشاه
على كسر خاطر رزق طول السنين
راح لقى بنى هلال بولادهم جالسين
عاود يقول آه من الدهر آه
عاود يقول ياهل ترى ربنا
رايد ليه بقطع الولد كام سنه
لما سمعته زاد بكايا أنا
والبين زقانى كاس وعاود ملاه
والبين زقانى كاس وعاده كمان
على كسر خاطر رزق بطول الزمان
بوجدى ياشمه ولا اطيق جفاه
بوجدى ياشمه من رزق الهمام
بوجدى ياشمه وحالى عجب
بابكى وذليله من قلة الولد
ودمعى ياشمه منى ذهب
رزق الهلالى ولا أطيق جفاه
بوجدى ياشمه ودمعى ذليل
دمعى هطل ع الفراش منى يسيل
إذا اشتكيت للجبل لجلى يميل
إذا اشتكيت للبحر يوقف بماه

يحزن عشانى ودمعى صدود
دمعى هطل ع الفراش بل الخدود
شمه تقول ياخضره ربى كريم يعطف يجود
اللى بيترك شي بيعيش بلاه
اللى بيطلب شي من الله ينول
لأنه بيتفول بكتر القبول
قالت لها قومى بنا واتركى الحمول
بكره نروح للنهر وننظر صفاه
ياخضره نروح للنهر ياأم الدلال
نشوف لك ميه شبيه الزلال
ولمت تسعين بيضه من صباية هلال
مشوا فى طول خضره شبيه السعاه
مشوا فى طول خضره وآتوا النهور
لقيوا زلال سايح وحوله طيور
لكن فيهم طير اسود سواده عكور
شتت جميع الطير وشال من حداه
شتت جميع الطير وخلاه شتات
اسمر فى لونه جميع الصفات
شمه تقول اطلبوا يابنات
المولى يرزق العباد بلا عين تراه
المولى يرزق العباد بحال المبتدى
ويعلم بقطر النمل ودب الندى
خضره تقول اديني غلام اسود كيف الطير ده
لملكه تونس ووادى حماه
املكه تونس بحد الحسام
من لجل يقولوا خضره جابت غلام
من الهلالى ابن نايل رزق موافى الزمام
يامن شفيت ايوب وطاب من بلاه .

يامن رفعت إدريس لأعلى سما
يامن دعاك يعقوب وفتح من العما
يامن دعاك موسى كريم ياربنا
لما اتى فرعون وجيشه معاه
لما اتى فرعون وجيشه احترق
وضع عصايته فوق البحر المحيط اتفرق
ربى كريم ماله شريك ولا ولد
هو المولى بيعتلم بجرى المياه
ربى بيعتلم بما فى الافتقار
تسخر الريح والسحب والمطار
اسالك يامولاى بنور باهى الجمال
لأنى اجيب مولود يكيد العدا
لأنى اجيب مولود يكيد العدا
ابوزيد يزقى العوازل حنضل بكاس الردى
سبحانك يامولاى تعلم بحال المبتدى
اعشق جمال المصطفى
محمد نصلى عليه
اطَّلَبَتْ كل السرارى والخدم
من اللى بسط الأرض ورفع السما
من اللى بسط الأرض ومد البطاح
من صنعته البارى إلا الكرم والسماح
بنات الهلايل اطلبوا بالرواح
خضره الشريفة كان عقلها زل تاه
راحت على فراش المملكة مطرشا
جاها الهلالى رزق من بعد العشا
لبست حرير ديباج وجلست معاه
لبست حرير من الديباج كداه لبسها
رزق الهلالى طلب الوصل من يمها

سعدت ورب العرش أرسل لها
بالطفل اللى بان وكاد العدا
بالطفل ده اللى بان وكاد الرجال
من صيت أبوزيد شرف هلال
فرحت أيا جدعان كبار وصغار
فرحت العربان جميعاً فى ناحيته
بالطفل ده اللى بان وكاد العدا
كانوا أماره فى حظ أهل الزمان
فرحت العربان وأتت ناحيته
فرحت العربان وأتوا جموع
واندقت الأفراح فى ليلة السبوع
قربوا على البطل أبوزيد وكشفوا القلوع
لقيوا الهلالى أسمر ولا جه لباه
لقيوا الهلالى أزرق بلون العبيد
لكن وجهه أحلى من العنب والزبيب
قال الأمير سرحان أمر الله عجيب
من رحمة البارى يستر على المذنبين
امه وابوه بيض وهو الولد جه لمين
بقت مسبه والهلايل جالسين
ياحيف خضره تهوى عبد لابس عباه
ياحيف تهوى عبد ياجى من الجلب
قالوا شريفة من خيار النسب
لمن سمع بالقول عاد قال ده الحشا
لمن سمع بالقول عاد وقال يارجال
اسمعوا الحجة منى ومعنى السؤال
ابن الزنا كتلوا وموته حلال
لا خيرة فى مولود ميجيش لباه
لا خيرة فى مولود ياجى من الزنا

طلق خضرة يارزق تنول المنى
طلقها ياهلالى فى هذا السنا
وديك زغبية عليها كلام
واديك زغيبة عليها القول عجب
شواطع من فضه والمناطق دهب
لمن سمع بالقول رزق الهلالى اتغلب
حلف يمين واتق بفمه تراه
حلف يمين واتق وباع واشترى
طلق فراش السلطنه والمره
لما بقينا بين الهلايل معيره
حلف الأمير رزق الهلالى بفمه وتراه
لم عدت أقبل خضره ولا عاوز عيال
يشفعوا فى رزق كبار وصغار
اشفعوا فى رزق بيهم ما ارتضاش
سفه مقادمهم ورجعوا بلاش
إلا وجات شيحه بدمع العين طشاش
يابويا تظلم أمى ليه بلا عيب تراه
يارزق تظلم أمى ليه بلا عيب حقيق
أمى شريفه ما تعرفشى مشى الطريق
اعمد على خضره بواحد رفيق
انعم على خضره بحق الاله
انعم على خضره بحق واحد أحد
هو الذى يعتلم بحال الولد
لمن سمع بالقول صابه جلد
لمن سمع بالقول حنت عضاه
رزق الهلالى نده وقال يانجاح
بينده يقول يانجاح
اسمع القول منى ورايى صلاح

خد الدبوس وسيربيه فى وسيع البطاح
وطوحه ع المال وعينك تراه
وطوحه ع المال وخلى عزمك صديق
خلى اعتمادك على ربك كريم ومجيد
محل مايخط الدبوس وعينك تشوفه من بعيد
اديه لخضره ياعبد ليها جباه
ولا يصير ابنى البطل ابوزيد
وسط الفوارس "الهلايل" "العرب" معيبه
خد الدبوس نجاح وراح
قطب العمايم حوم وجاه
قطب العمايم نده وقال له يانجاح
اسمع القول منى ورأيى صلاح
حديلك تلت دعوات بإذن الإله
اديلك تلت دعوات منين تسير
أخد الدبوس قطب العمايم من بعيد
طوحه على المال والعين تراه
أيا سامعين ..
أيا سامعين .. صلوا على طه
أخد مال رزق ومال سرحان قسموا سواه
اتقسم أيا سامعين .. صلوا على طه نبينا الضمين
توكل نجاح فى الجبال يسير
قال ياملك أخد مالك ومال سرحان .. قسموا سوا
بشىء عجب وحياة نبينا الزين طه المنتسب
اسمعوا ياملوك العرب ع اللى جرا لخضره الشريفه بحق الإله
يشفعوا فى رزق الهلالى بيهم مارتضاش
سفه مقادمهم "العرب" ورجعوا بلاش
قال الهلالى خساره
رزق الهلالى ولا ارتضاش

قالوا الهلايل عاوزين جيد ياخد كراه
عاوزين لنا جيد من ارض النجاد
ياخد هدوم خضره وحتى الجهاز
ومن هنا يوديها لأرض الحجاز
كرمه للشريف قرضه دخلنا حماه
كرمه لأبوها اللى رحابه وسيع
ندهوا على القاضى وكان اسمه منيع
لمن سمع بالقول جاهم مستطيع
قالوا أدي اللى الناس تصلى وراه
قالوا أدى اللى الناس تريده إمام
قالوا معاه ولا نخلفوش معنى الكلام
نشروا فى وسيع الخيام
مسكوا لهم بره الوسع فى الفلاه
مسكوا لهم بره الوسع فى الحملد
بعيد عنديهم فرسان ولا فيه بلاد
قعدوا تلت ايام وهمن فى اجتهاد
قربت على القاضى خضره باست يداه
قالت له أنا مقدرش اصوب يم ابوى فى هذى السنة
إذا انْ قلت له رزق الهلالى هون فينا
مقدرش اقول القول ولا اتكلموا
إل كان يكرمنى على ذمته
شوف لى ياامير جيد انا اروح ناحيته
خلينى اربى الغلام فى جباه
ياما الزمان حكام على ناس كتير
اللى امر بافتراق شملنا ياامير
يفقد من الهلايل وتطفش نساه
يفقد بين العربان ويخلف عيال

يبقوا مسطه بين مقادم هلال
خبط القاضى على كتفه وقال
الأرض للزحلان وانا اكبر عداه
الأرض للزحلان ولا اقدر أفوت
لمن تكون معاى الف لازم تموت
عزمهم القاضى "فايدبن مناع" ورجعهم سكوت
جوها عرب عطوان يهزوا القنا
قال ادخلوا الصيوان ماده اللى هنا
طلعت خضره الشريفه ومتلتمه
تبكى لكن دموعها دما
عيب على فرسان تعر النسا
عيب على الفارس يعر الحريم
الفعل ده ما يفعلوش إلا اللئيم
اللى يكون طاهر وجسمه سليم
لم يفعل المكروه لطول المدى
لم يفعل المكروه لطول الدوام
اللى عبر حيه يسير فى أمان
انا جعلتكم قوم أكابر تمام
تريكم عرب عطوان أرازل حفاه
تريكم عرب عطوان ارازل طموش
أندال فى حيكم ضيف ولا تكرموش
اسالك ياعالم بلغاء الوحوش
يارازق الأطيار فى وسيع الفلاه
يارازق الأطيار فى وسيع الحماد
أبوزيد يطلع فارس ويركب جواد
يطب فى إيده سليط البولاد (الخضر عليه السلام)
ويبلغ المقصود على أكبر عداه
ويبلغ المقصود باهل الكرم

بحق أهل البيت وإمام الحرم
لمن سمع ده القول داغر انقهر
وقال لقومه اسمعوا باسماه
يقول لقومه اسمعوا يارجال
انهبوا الخيل منها وحتى الجمال
أوعوا تخلوا لخضره عيال
وسيبوها لوحدها في وسيع الفلاه
ياما تقاسي ذل وبهدله
إلا وسبع "أضرع" عليه السلام (الخضر)
يأتي من الخلا يمشي ويسرع بالعجل بخطاه
راح ليها لقيها بتبكي وجنبها ابنها
شتت نياهم بإذن واحد أحد
رجع على خضره وقال هاتيلى الولد
عطت له الأمير ابوزيد لكن لم جيلهاشي جلد
قال لها بركات وسرى معاه
قال لها بركات وسرى معه
حتى إن اضايق فى الحرب انفعه
دلوكت اهو ابوزيد الخضر حزمه
خضره الشريفه اتلفتت لم تراه
خضره الشريفه اتلفتت ولا شافتوش
واطلعت بالعين ولا لقيتوش
إلا الأمير زحلان حقق شاف الجيوش
حقق صيوان اخضر وحوله سماه
حقق صيوان اخضر وحوله خيام
لا هم عرب شعبه ولا هم شوام
ارسل لها اربعه لام الغلام
قالت نزيله للزحلان روحوا بشروه
جوا لها خطار سماح الوجوه

راحوا للزحلان وبشروه
جوها وقال قومي دخلت فى حماه
ربى وليدك ابوزيد فى هنا وامان
قعدوا حدا الزحلان مدة زمان
كبر البطل أبوزيد فى الحق زود عشاه
كبر أبوزيد ودوه لراجل فقى
فى الخط شاطر لكن فى الصلا متقى
إيه ما طلب فى اللوح عنده بيتلقى
سبق عليه بالسطر بأحسن جواب
كانوا حدا الزحلان ولدين شباب
من يوم راحوا الكتاب وهما سوا
إلا الأمير أبوزيد تقصد شرهم
الفقرى رعيان ابدى وقال لهم
طبوه وانا ادى له تلاتين عصاه
طبوه وانا اديله ده عبد وشقى
داروا عليه الكل حتى الفقى
داروا عليه الكتاب ميلتقى
طلع هارب منهم محدش رآه
طلع هارب منهم أيا سامعين
نبش ركان البيت شمال ويمين
إلا لقى دبوس ليه مده من السنين
يحكم تمانين رطل فى كمه تراه
يحكم تمانين رطل برمانته
شاله الأمير ابوزيد على راحته
جات خضره الشريفة لابوزيد البطل
خضره الشريفه باسته وحبته
وقالت تسليني ياولدى على قهر اباه
وقالت تسليني على شوق بقى

قال انا ما ارتجع إلا إن كتلت الفقى
قالت له ياابوزيد متبقاش شقى
هما فى الحديت والشيخ سابق اتى
هما فى الحديت والشيخ نوى يغدره
جبلوا الطعام ابوزيد قوام اطعمه
طلع الفقى عايب وعيبه جزاه
طلع الفقى عايب وعيبه غلب
رحلوا الكتاب ابوزيد ده اللى كتب
الشيخ يقول له ياعبد ياقليل الادب
جاى يمسكوا سطوا بدبوس رماه
طلعت مِنِّيه روحه وسالت دما
إلا اخو الرعيان لف وارتمى
راحوا حدا الزحلان قالوا ياامير
ابوزيد كتل الفقى .. قال عيل صغير
روح إلزم الكتاب وحفظك كتير
والعلم لاخر اوهبوه له الإله
بقى ابوزيد الفقى واخو الرعيان عريف
أخو الرعيان إن خش الكتاب يقول ياللطيف
خايف من الأمير ابوزيد ليقطع رجاه
خايف من الأمير ابوزيد بالاتهام
صلوا على طه عليه السلام
إلا كانوا حدا الزحلان ولدات تمام
تركب ظهور الخيل وتطلع وراه
تركب ظهور الخيل وتطلع تسير
ويتواعدوا بره فى الحماد الغزير
كلهم كبار وابوزيد عيل صغير
تِرَكِّبُه خضره وتطلع وراه
تِرَكِّبُه خضره وتطلع تقول

الله يزيدك وتدعى له - بالهنا والقبول
يرمح ورا السجعان فى أيده اصول
كان له جريده .. هى جريده
لكن ضبها فى يداه
يعنى جريده أبوزيد فى ايده ضبها
يرمح ورا السجعان يلعب بها
جميع الدكر اللى يدوق طعمها
يرجع موزم لم يدوق العشا
حرب الأمير ابوزيد يكيد الحشا
كبر الأمير أبوزيد فى الحرب واتنشا
نزلت على الزحلان أعادى طغاه
نزلت على الزحلان اعادى فجور
من لجل عشر المال على من يكون
عطوان وابوه يحكم على الف سور
مالبين قلاعهم من الحرب والقناه
مالبين قلاعهم من الحرب العسير
مرتبين جزيه على ناس كتير
نزلوا على بل الزحلان كان غزير
اخدوا عشر تلاف وبقواميه
اخذوا عشر تلاف وطلعوا الجبل
زى الجراد اللى يكون منسبل
بعتوا المرسال الرعيان بالعجل
راحوا حدا الزحلان وقالوا النجاه
قالوا له الجمال اخدها عطوان
اتخبط الزحلان على كفه
وقال فين الغلام اللى يبين تناه
وقال فين الغلام اللى يبيان له التنا
يحجز بقية المال بطعن القنا

قال له الأمير أبوزيد
وحياة دراعى أنـا
لو راح جمل منهم دراعى فداه
لكنت اموت ولا يكسبوه العدا
ياعبد ياقمصان شد اللى الجيده
ركب الأمير ابوزيد ونديده معاه
ركب الأمير ابوزيد وكام فارس عنيد
ركبت الفرسان وأبوزيد عنيد
استخفت بيه الشهبة
شالت وحطت لزها بالحديد
زحلان لما شافه من بعيد
كيف صقر ارتخى وانزاح منه الرماه
كيف صقر ارتخى وانزاح منه الضباب
ياما نهار كالريح نادى وطياب
زحلان ينادى وقفوا ياعباد
لم تفرحوا بالمال وابوزيد وراه
أوعوا تفرحوا بالمال ولا تكسبوه
جاكم الأمير بركات سماح الوجوه
قال الأمير عطوان ده عبد اكتلوه
ده عبد جاى أبلم وجهله رماه
ده عبد جاى ابلم رمح وانجمر
وراه ابوزيد الحرب عليه واتوعر
(خطوا) خبلوا بحربه عودها ثمر
طل الخشب غير الحديد .. من قفاه
طل الخشب غير الحديد من القفا
وشال دراعه من ع الجواد واكتفى
لما كتل عطوان جيشه اختفى
راحوا لابوه الكل وقالوا له النجى

(راحوا لابوه الكل وقاموا عزاه)
(راحوا لابوه الكل قاموا عداه)
راحوا لابوه وقالوا له البقى
بينك مابينه الناس ياطول الشقا
عطوان اخدوه فى أول الملتقى
جاله عبيد شاله محدش رآه
جاله عبيد شاله محدش نظر
واتعتع الديش من جواره اتقهر
لمن سمع ده القول داغر انقهر
نبه طبول الحرب وجاته ألوف
زرد يمانى والدروع ع الكتوف
قال قوموا بينا خل نشدوا نشوف
اللى كتل عطوان وشطط نياه
اللى كتل عطوان وحاز الطرود
عاوز أشوف إيه كنيته ؟ وإيه يكون
قالوا له نوريه ليك احنا بالعيون
ابق انت خد منه حراب بالبلا
ياكش تكون فى قدومكم مقبلا
برز ابو عطوان فى وسيع الخلا
واتمنعوا اللى شافوا حرب أبوزيد ولقاه
واتمنعوا اللى شافوا حرب الولد
ع اللى راوه محدش جاى له جلد
استهتر داغر بعلم الولد
رمح عليه بالغول وسابه جلد
قال له تعال ياعبد ياقليل الأدب
تكتل وليدى ياقليل الحيا
تكتل وليدى ليه يافردة نصاح
انت تمن دبوس ماليكش تمن

قال ياعم داغر منا عليك السلام
الفشر للأندال مش للسماه
الفشر للأندال مش للملوك
اعمد على التار وعربك ينظروك
ولدك جانى انا وراقد فى المنام
قال لى هات لى ابويا اتانس من لقاه
قال لى هات لى ابوى من على حربته
قال له انا ولدى رضيت ذمته
قال دلوكتى ندى ونى
الحرب دلوكت ندى له ميعاد
قال عاد مين يجيلك يافساد البلاد
حلقت على امى ليه فى وسيع الفلاه
حلقت على خضره ليه وانا ولد صغير
غير نجاها ربى كريم وحليم
رمح عليه بالغول أيا سامعين
نزلوا لتنين فى حومة اللقا
اتحاربوا ميسرة وردوا يمين
(صلوا على طه أيا سامعين)
طسه تلت طسات بسيفه رماه
طسه تلت طسات بسيفه اترمى
وطلعت منه الروح وسال الدما
واسيط ابوزيد فى الحرب واتنشا
روح بميت بيضة تزغرد وراه
روح بميت بيضة تزغرد وراه
من طلعته فارس يمشى مع الرجال
إلا عرب عطوان شدوا ع الجمال
بلد الأمير جليل وباسوا يداه
(محمد نصلى عليه)

وحياة نبينا المنتسب
إلا وشدوا ملوك العرب
فرسان سجعان يهزوا القناة
فرسان سجعان ملكوها شمال ويمين
بلد الأمير جايل وباسوا يداه
بلد الأمير جايل .. وراحوا له المكان
كانوا أماره فى حظ أهل الزمان
إلا الأمير جايل لم خيله واحتجب
لم خيله وكان صاحب لعب
الشواطع من فضة والمناطق دهب
قال الأمير أبوزيد شدوا لى أنا كحيلى
انظر جايل وانظر صفاه
انظر جايل من أهل الزمان
... صلوا على نبينا عليه السلام
لمن شد الأمير أبوزيد أمير الرجال
عمد على جايل أيا سامعين
حاربوا ميسرة وردوا يمين
أبوزيد جه من جايل لم لقى له معين
حرك اللوالب بقوه معاه
حرك اللوالب بقوه معه
طلع نبه على طبله
لمن نبه طلع الأمير أبوزيد
حمد إلاله ومسك الفضا
بقى يحسبن فى الأمور والقضا
إلا بقوه قطب العمايم حوم وجاه
حوم يقول وحياة نبينا الزين
قطب العمايم لابوزيد يقوم
حابس له الأعوان فى المنطقه وجاه

أبوزيد قال ياقمصان شد لى الفرس
دوس الأمير جايل دوس حماه
دوس الأمير جايل دوس حماه
دوس الأمير جايل أيا سامعين
اتحاربوا ميسرة وردوا يمين
رمح عليه بالغول أيا سامعين
طسه تلت طسات بسيفه ورماه
صلوا على نبينا طه الضمين
عرب جايل طلعوا يسيروا حدا سرحان
أبدوا يقولوا وحياة نبينا الزين طه الرسول
عند الزحلان فارس يقول
عيب جميع الفوارس أيا سامعين
حلف سرحان نطق اليمين
شدوا ياهلايل شمال ويمين
داسوا بلاد الزحلان وملكوا حماه
قاموا بلاد زحلان وملكوا المرس
إلا أبوزيد قال شدوا لى الفرس
أنا انظر الأمير اللى أتى وانظر صفاه
أنا انظر سرحان أيا سامعين
اتحاربوا ميسره وردوا يمين
همز عليه أيا سامعين
إلا سرحان حمد الإله ومسك الفضا
قال اشكى لمين ع اللى جرى
إلا أتى فايد حارب ابوزيد شمال ويمين
رمح عليه بالغول أيا سامعين
أخد قمح الشاش والشاش رماه
وملك الفضا بقى يحسبن فى الأمور والقضا
قالوا العرب ده شىء مفهشى رجا

عاوزين نشوف الأمير غانم وننظر صفاه
عاوزين نشوف الأمير غانم
راجل فارس من اهالى زمان
شدوا المقادم وشدوا فوق الخيام
إلا اتاهم أبوزيد سبع الرجال
عمد على الميدان حوم وجاه
عمد على الميدان ونزلوا لتنين فى حومة اللقا
ظهر الجيد من نضيف التنا
إلا الأمير غانم فى الحرب ارتمى
سط الأمير أبوزيد بحربة وجاه
سط أبوزيد بحربه شمال ويمين
خطفها الهلالى أيا سامعين
همز عليهم بركات والمولى ليهم معين
سكنه ياالخوانا لحود الترى (سكن غانم أبو دياب)
سكنه فى لحود الترى
قالوا لينا فارس ياهل ترى
نستنى رزق بن نايل ملك فى حماه
(رزق بن نايل من نهار ماطلق خضره ماسك
جبل كوم)
قالوا رزق السجيع نضيف التنا
فى الحرب زايد أيا كبار الهنا
قال الأمير ناجح وحياة دراعى أنا
لا جيب رزق نايل فى وسط الفلاة
(ناجح أبو قمصان) لا جيب رزق بن نايل أيا سامعين
روح وجده فى الجبال سجين
قال له قوم بينا ياأمير ناجح أيا سامعين
خلينا نشوف اللى قوى الزحلان ياأمير العرب
إيه اللى قوى الزحلان وقوى عظاه

وحياة نبينا الزين طه المنتسب
عيب ملوك العرب حتى الديوان هردم علاه
حتى ديوان المملكة أيا سامعين
كتل كبار وياصغار شمال ويمين
رزق بن نايل بمهره لما يسير
إلا وشيحه ياأهل الهنا
ملكوا العربان فى وسيع التمن
رزق بن نايل كان نضيف التنا
داس بلاد الزحلان وداس حماه
وداس الفرس وقال يادنيا ممتعك لأنه بلاش
أبوزيد قدام ما يلف ده شاش
حلف يمين واتق بحقه تراه
حلف بيمين واتق بفمه
وقال انا اشوف اللى دوس الأرض ده أيا سامعين
واتحاربوا بميسرة وردوا يمين
إلا نزل فى الحرب أيا سامعين
تلت ايام بلا عين تراه
تلت أيام ع اللى جرى
وشيحة قالت ياهل ترى
والله حربه يابوى ما جرى
جايبك ياأمير فى الوغى
نزل الهلالى أبوزيد من فوق التنا
لاتنين اتلاقم فى حومة اللقا
لاتنين اتلاقم شمال ويمين
وصلوا على طه الأمين أيا سامعين
ده حاربوا ميسرة وردوا يمين
إلا مسكت البرتقالة تشوحها من وسيع الفلاة
مسكت البرتقالة وشوحتها

شافها الهلالى خطفها باليمين ـ قسمها نصين ـ
وسكن الفرش منه والوحوش تراه
عمد على الهلالى حوم فى حومة اللقا
نزلوا لتنين ـ فوارس ـ فى حومة اللقا ـ وردوا يمين
اتحاربوا وحياة نبينا طه الضمين
أبوزيد ده رزق مالقى له معين
ناوى يسكن أبوه فى لحود الترى
قال الأمير رزق بن نايل ياهل ترى
ده شىء ياناس زود أساه
وحياة نبينا المصطفى
قالت له شيحه يانضيف التنا
بذاته ابنك فى وسيع الفلا
شيحه قالت له ياهلالى
أبوك لتكتله ياغربه وتصبح بلاه
لتكتله ياغربه تسكنه لحود الترى
نبقى ياسلامة فى وسيع الحجاب
إلا الأمير أبوزيد وقع سيفه . فوق التراب
حوم على ابوه لما أتاه
وعانقه شمال ويمين
خضره زغردت قالت ياناس جانا الهنا
والهنا لينا يسير ـ وحياة نبينا المصطفى نضيف الد
قال الأمير أبوزيد وحياة دراعى أنا عزمتكم عندى أيا سامعين
حاربوا السجعان شمال ويمين
عزمهم الهلالى فى ديوان زحلان
دبح من الكبشان والجمال فى وسيع الفلاة

دبح من الكبشان ابدي يقول
وحياة نبينا الزين الرسول
يسمع فضل الزحلان يقول
مايفرق إلا نضيف التنا
فات أبوه فى وسيع السماه
قال له ليه ياهلالى تفوتنى شمال ويمين
إيه اللى جرى لك يابنتى وانت منى صغير
قال له انت فتنى فى القماط
وانا فتك فى السماط
عيبة وسوت عيبة يامقادم هلال
عيبة وسوت عيبة يانضيف التنا
قال له الهلالى ابوزيد
وحياة دراعى انا لازم تجيب القاضى
تكتب على خضره يانضيف التنا
الأمير رزق بن نايل والله بلغت المنى
ا طبول الفرح ويا الهنا
نين ليلة فى وسيع الفلاه
رحت العربان وزاد الهنا
وقال الهلالى رزق وحياة دراعى انا
مهر خضره يكون ع التمام
فه للحبيب محمد
الكبش نطق له وجاه
كرمه للحبيب
وحياة نبينا طه المنتسب
أحمد محمد نضيف التنا
(محمد نصلى عليه)

الفهرس

رقم الايداع : ٣٤٢٩ / ١٩٩١

I . S .B . N
97707 - 007t - t

كتاب الهلال القادم :

القلق فى حياتنا
الشخصية والاجتماعية

تأليف

د . عبد الستار ابراهيم

يصدر : ٥ مايو سنة ١٩٩١

هذا الكتاب

يعد كتاب السيرة الشعبية ـ مولد البطل تتويجا للجهد الذى بذله الدكتور احمد شمس الدين الحجاجي فى دراسة علاقة الأدب الشفوى بالادب المكتوب اذ قدم كتاب الأسطورة فى المسرح والأسطورة فى الادب وصانع الأسطورة . [illegible] المؤلف بعد ذلك ليقضى سطرا من حياته [illegible] جمع السير [illegible] ودراستها ودراسة راويها محاولا ان يضع القانون الفني لروايتها وبنائها فهى النوع الفني المت[illegible] [illegible] ع القرية الأمية الذى طورته المدينة الكاتبة الى فن الرواية الحديث ، فالسيرة هى ام الرواية وقد عبر المؤلف عن ذلك فى روايته سيرة الشيخ نور الدين ، ويدرس هذا الكتاب الراوى لساعة ابداعه للسيرة وكذلك مدونات السير الشعبية

وانتقل من ذلك الى دراسة النبوءة الخاصة بالبطل وهى صلب الاسطورة المتصلة به ومنها لدراسة البطل المصاحب ثم درس نسب البطل [illegible] [illegible] انتهى عند تعرف الجماعة على بطلها والاعتراف به ليكون قائدها وزعيمها فى رحلة الحياة .

وفى الخاتمة يعد المؤلف بتقديم بقية جوانب السيرة حتى يستكملها فى مشروع عمره .

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) فى جمهورية مصر العربية واحد وعشرون جنيها وفى بلاد اتحادى البريد العربى والأفريقى والباكستان سبعة عشر دولارا أو ما يعادلها بالبريد الجوى وفى سائر أنحاء العالم خمسة وعشرون دولارا بالبريد الجوى

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج . م . ع نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية ، وفى الخارج بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ، وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة عالية عند الطلب

● وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت السيد/ عبدالعال بسيونى زغلول ، الصفاة ـ ص . ب رقم ٢١٨٣٣

للحصول على نسخ من كتاب الهلال اتصل بالتلكس 92703 Hilal.V.N



المنظف الصناعي
نيون ... ٢٠٠٠
ذو الرغوة الوفيرة
والرائحة الذكية
نيون
٢٠٠٠
إنتاج:
شركة اسكندرية للزيوت والصابون